

مورج غورفيتش

الأطر الاجتماعية للمعرفة

ترجمة د. خليل أحمد خليل



علي مولا

الط
الأجتماعية
للمعرفة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثالثة
1429 هـ — 2008 م

مجده المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت — الحمرا — شارع اميل اده — بناية سلام — ص.بم. 113/6311
تلفون 791123 (01) — تليفاكس 791124 (01) بيروت — لبنان
بريد الإلكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 978-9953-463-90-2

جورج غورفيتش

الاطلس الأجتماعية للمعرفة

ترجمة : د. خليل احمد خليل

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

تمهيد

هذا الكتاب من حيث الشكل إعادة للمحاضرات العامة التي القاها المؤلف في السوربون خلال السنة الجامعية 1964- 1965 ، مع التعديلات والتعميقات التي تفرض نفسها .

غير ان هذا الكتاب هو في آن حصيلةً مسلسل من المحاضرات وخلاصة تأملاتٍ ومجهودات بدأت منذ العام 1944 وتفاقت بالشكوك الحائمة حول إمكان الاحاطة بموضوع بالغ الاتساع كـ « علم اجتماع المعرفة » في كتابٍ واحدٍ ، وحتى في عدة اجزاء لمؤلفٍ واحد .

والحال ، فإن المؤلف ادرك شيئاً فشيئاً ان عدد المسائل التي كان يفترض بعلم اجتماع المعرفة ، او حتى بـ « مدخل الى علم اجتماع المعرفة » ، ان يجيب عنها بتواضع ، كان يستلزم مجهود فرقة كاملة من الباحثين المتخصصين في شتى فروع هذا الاختصاص الاجتماعي الجديد .

قادت هذه التجربة الفكرية ، القاسية احياناً ، المؤلف الى الاستنتاج بأن الحكمة تقضي بصّب مجهوده على فرعٍ واحدٍ من « علم اجتماع المعرفة » ، ولكنه ظهر له انه فرع اساسي لأنه رأى فيه الركيزة الأولى لكل الفروع الأخرى ، او اذا شئنا المفاضلة ، رأى فيه البداية الضرورية لكل بحث في هذا الميدان .

ان هذه المسألة - المفتاحية هي مسألة الأطر الاجتماعية لأنواع

المعرفة واشكائها ، والدول والكنايس والطبقات الاجتماعية والمجتمعات الشمولية عندما يكون الأمر متعلقاً بهذه الوحدات الاجتماعية المتميزة ، ومسألة مراتب شتى تجليات المعرفة ، نعني المنظومات المعرفية .

وان موقف المؤلف ، قياساً على اعماله السابقة ، لم يبدل إلا في نقطة واحدة ، لكنها تبدو اساسية في نظره . فإذا كان يشدد في كتاباته الأولى على استحالة تخطي دراسة الترابطات الوظيفية بين الأطر الاجتماعية والمعرفة ، فقد توصل ، آخر الأمر ، الى الاستنتاج بأن الروابط السببية (1) سواء كانت احدية الجانب ام كانت طردية ، لا مناص من تصوورها ايضاً في حالات الانقطاع او حالات التوتر البالغ بين البنى الفوقية والظواهر الكلية الكامنة ضمنها .

* * *

إن المؤلف هو اول مَنْ استدرك بأن هذا الكتاب قد يظهر بالغ التجريد وبالع التخطيط بالنسبة الى غير المؤهلين من ذوي الاختصاص . ومن البين ان ثمة موادَّ جمة كان بالامكان استثمارها . ولكن اذا اكتفى هذا الكتاب باستعمال بعض الأمثلة المختارة ، فذلك لأنه لا يرمي لأن يكون كاملاً بل يرمي للتدليل على توجهات بحثية جديدة ، وهي توجهات غالباً ما تجاهلها اسلافه او أهملوها . وهو بكلام آخر ، رمي الى صياغة برنامج جديد للأبحاث ، اكثر مما يرمي الى تقديم نتائج نهائية .

(1) في كلتا الحالتين ، يتعلق الأمر طبعاً بـ «سببية فاردة» ولا يتعلق بـ «قوانين سببية» ، راجع بهذا الصدد للمؤلف :

Déterminismes Sociaux et liberté humaine, 2e éd., 1963, P.P. 63- 75

وبهذا الشأن غالباً ما شعر المؤلف أنه يكشف أرضاً بَدْرًا ،
على الرغم من الأدبيات الوفيرة والأسلاف القِيَمين .

لقد سعى ، كما في كل أعماله الاجتماعية السابقة ، الى ابراز
التنوع الوافر والتغاير اللامتناهي سواء في الأطر الاجتماعية ام في
التجليات المتوافقة مع المعرفة ، وهنا أيضاً ، يستلهم مجهود المؤلف
القول الجازم بأن « التجربة النسبية » هي الجهاز المفهومي
الضروري لعلم اجتماع معرفي علمي حقاً ، اي لعلم اجتماع
معرفي متحرّر من كل إبتسار ومن كل مفهوم شائع .

ولربما تتحقق آماله فيما لو قُبِضَ للتوجّه الذي يسعى لإعطائه
لهذا الفرع الاجتماعي الجديد ، ان يمتدّ ويتحقق في أعمال زملاء
فتيان ، حتى وان توصلت أعمالهم الى استنتاجات مختلفة عن
استنتاجاته .

ج . غ .

مدخل

الفصل الأول

المسألة

للوهلة الأولى تبدو المعرفة ، من بين الأعمال الحضارية كلها ، هي الأكثر انقطاعاً عن الواقع الاجتماعي . الا يبدو أنها تدعى الصلاح الشامل والارتكاز على أحكام صحيحة تعتبر ، عادةً ، وفقاً على الوعي الفردي ؟ مما لا شك فيه ، بالواقع ، ان الدين والحياة الأخلاقية والتربية ، وحتى الفن (١) ، ولا سيما الحقوق ، تقيم مع الأطر الاجتماعية علاقات أظهر ، ملحوظة على نحو مباشر ، هي أخيراً علاقات أكثر وأهم من حيث المبدأ على الأقل .

وإذا أضفنا ، وفقاً لتقليد قديم مرده الى العصور الكلاسيكية القديمة ، اننا حينما نتكلم على المعرفة أننا نفتكر أولاً ، ان لم نقل حصراً ، بالفلسفة وبالعلوم ، واننا لن نندهش من كون عبارة « علم اجتماع المعرفة » قد أثارت

(1) الا أن بعض الأنواع الفنية ، مثل « الآداب » ولا سيما الرواية والشعر من جهة ؛ والمسرح (الحياة الاجتماعية ذاتها لا ترتدي أحياناً طابعاً مسرحياً وذلك ليس فقط في مظهر الاستعراضات الرسمية أو شبه الرسمية ، بل حتى في مظهر الكليات الاجتماعية الفطرية ، دون الحديث عن التجمعات الخاصة ، غير المنتظمة ، مثل الأسر - المنازل) من جهة ثانية . راجع بهذا الصدد :

- Sociologie du théâtre. G. G., in lettres nouvelles, N° 35, 1956, P. 203 et suiv.

أقول إن هذه الأنواع الفنية متأثرة بمتغيرات المعرفة أكثر من كل التجليات الجمالية الأخرى ، لهذا فان سوسيولوجيا المسرح التي درسها جان ديفينيو دراسة رائعة في كتابه (L'acteur, Gallimard, 1956) و (Sociologie du théâtre, P. U. F. 1965) فضلاً عن أبحاث أخرى حول علم اجتماع الأدب ، تنتمي كلها الى علم اجتماع المعرفة بقدر ما تنتمي الى علم اجتماع الفن . اذن يمكن استعمالها كوسيط بين هذين الفرعين الآخرين من علم الاجتماع ؛ راجع بهذا الصدد - جورج لوكاش ، الرواية التاريخية ؛ ولوسيا غولدمان - نحو سوسيولوجيا للرواية ، ومقالته عن المادية الجدلية وتاريخ الفن (1950) .

المخاوف لدى العامة كما لدى العلماء والفلاسفة على سواء . فهولاء وأولئك يتساءلون بفارغ الصبر ، وحتى بانفعال ، عما إذا كان وضع المعرفة في المنظور السوسيولوجي ليس وسيلة جديدة ابتكرتها الارتيازية والعدمية لكي ترمي رداء العجز على كل معرفة .

ولقد تزايد الهلع ، من باكون إلى باريتو ، نظراً لأن المعاملات الاجتماعية المعرفية قد جرى تأويلها كأوثان ، كـ «مشتقات» وترسبات عاطفية تهيمن وحدها في المجتمع وتضفي الظلامية على المعرفة . ولم يبدد كومت ولا ماركس هذا الخلاف تبديداً كاملاً . فقد وقف كلاهما وقفة « مميزة » عند علم اجتماع المعرفة ، الأول حين اختزل كل علم الاجتماع بعلم اجتماع المعرفة ، والثاني حين ألحقه بمسألة الأيديولوجيا والارتهان⁽²⁾ . لكنهما ، كومت وماركس (حين عادا ، كل على منواله ، الى مثال كوندورسيه) كانا يأملان بتحرير المعرفة من تجذرها في البنى الاجتماعية ، بحيث أن هذه البنى أصبحت في المرحلة الأخيرة موجهة من قبل المعرفة . وفي عهد قريپ ، استسلم كارل مانهايم - مع نظريته عن النخب الفكرية المنفصلة - للأغراء نفسه ، فاستوثق وثوقاً ساذجاً بالثقفين وبـ « التربية المعجمة »⁽³⁾ دون أن ينتظر حتى حلول المجتمع اللا طبقي والتحرر من الارتهان .

إن اميل دوركهيم⁽⁴⁾ وحده ، حين انطلق في آن من سان سيمون (الذي كان أول من رأى جيداً التضمن المتبادل بين الطرائق المعرفية والبنى الاجتماعية)⁽⁵⁾ ، ومن كوندورسيه وكومت ، وحين تجاوز المفاهيم الشائعة

G. Gurvitch: Sociologie de Marx, in la vocation actuelle de la sociologie, 1963, Vol. (2) 2, chap. XII.

K. Mannheim: Idéologie and utopie, Bonn, Cohen 1929. Voir G. Gurvitch traité de (3) Sociologie, T. 2., chap. 2, PP. 115- 119.

G. G. Annoles de L'Université de paris, 1960, N° 1., PP. 36- 38 (4)

= } C. H. de Saint- simon: La physiologie sociale. oeuvres choisies , P. U. F, 1965. (5)

والابتسارات لدى هذين الأخيرين ، لم يعد يعتمد في أن مظهره الاجتماعي المعرفة يمكنه أن ينال من صلاح هذه الأخيرة : يقول أن نسبة الأمل الاجتماعي إلى المعرفة لا يعني خفضها أو الخط من قيمتها . لكن كان على دوركهم أن يدفع ثمن هذه الخطوة إلى الأمام ، من نزوعه إلى أن يرى في الوعي الجماعي تشخيصاً للعقل ، وإلى أن ينتقل من علم اجتماع المعرفة إلى أصولية (ابيستمولوجيا ، معلومية) ذات مرتكز سوسيولوجي ، يفترض بها أن توفّق بين التجريبية وفلسفة قبلية ذات لهجة كانطية⁽⁶⁾ . وفي الواقع ، لم يكشف في الواقع الاجتماعي سوى المفاهيم الفلسفية المسبقة التي كان قد أدخلها فيه من ذي قبل .

ولقد أنجز لوسيان لفي - بريل تقدماً بالغ الأهمية حينما رفض أن تستخلص خلاصات فلسفية من أعماله حول العقلية البدائية . فهو إذ عارض تجربة البدائيين ومعرفتهم بتجارب ومعارف المتمدّنين ، أظهر أن استيعاء الزمان والمكان ، ومقولة السببية ، ومدارك وتجارب الأنا والغير ، العالم الخارجي والمجتمع ، انما هي أمور مختلفة في الحالتين⁽⁷⁾ ، وبذلك ، اكتشف أن في عين النمط الاجتماعي كانت تتوكّد عدّة أنواع من المعارف (معرفة العالم الخارجي ، معرفة الأنا والنحن ، المعرفة التقنية ، المعرنة الأسطورية - الكونية الاعتقادية ، الخ) في مراتب مختلفة من التصوُّف والتعقُّل⁽⁸⁾ . وإن ما افتقر إليه بوجه خاص ، هو تقصيره عن اكتناه تنوُّع المنظومات المعرفية ، المتوافقة

= لا سيما قوله أن « انتاج الأفكار يتدخل في تكوين كل مجتمع » . وهذه اشارة الى متغيرات منظومات المعرفة وفقاً لتغاير انماط المجتمع أو « الأنظمة » كما يقول سان سيمون .

C. Durkheim les formes élémentaires de la vie religieuse 1912. (6)

Lucien Lévy-Bruhl : la mentalité primitive, 1922, 15^e éd. P. U. F. 1960; L'âme (7) Primitive, 1973.

L. Lévy-Bruhl: Le surnaturel et la nature dans la mentalité primitive, 1931, Alcan, la (8) mythologie primitive 1935: L'expérience mystique et les symboles chez les primitifs.

1938

مع تنوع انماط المجتمعات ، وهو تنوع لا يقبلُ الخفضَ إلى المثوية البسيطة ،
البداثي والمتحضر⁽⁹⁾ .

وكان لماكس شلر ، وهو فيلسوف من اتجاه مختلف تماماً ، الفضلُ الأكبر
في اكتشاف وإبراز تعدد الأنواع المعرفية في مجتمعاتنا المعاصر . وإن دقائق
واقترانات هذه الأنواع المعرفية تتباين وفقاً للأطر الاجتماعية . ويلاحظ شلر
أن كثافة الارتباط مع هذه الأخيرة تتباين أيضاً وفقاً لأنواع المعرفة مثلما تتباين
وفقاً لهذه الأطر الاجتماعية نفسها . غير أن هذه الحركة باتجاه النسبية في علم
اجتماع المعرفة نجدُها محاطة بالمفاهيم الفلسفية المسبقة عند شلر ، التي تدفعه
إلى التسليم بهيكلية ثابتة للأنواع المعرفية ، مرتبة وفقاً لسلم جامد من القيم
التي يعزوها لها . وهكذا ، انقاد شلر إلى وضع نسق قبلي للمعارف ، وهو
نسقٌ متوَجُّ بالمعرفة اللاهوتية ، وتليها المعرفة الفلسفية عن كُتب . ونجد في
المرتبة الثالثة معرفة الغير (التي شدد شلر كثيراً على خصوصيتها) . ولا تأتي
معرفة العالم الخارجي إلا بعد ذلك . وأما المرتبتان الأخيرتان فتحتلّهما المعرفة
التقنية والمعرفة العلمية أخيراً . أن تباينات المراتب والدقائق الخاصة بشتى
الأنواع المعرفية ، ربما لا تعني إلا ما يسمّيه « القبليات الذاتية » ، أو الرموز
الخاصة بالأطر الاجتماعية ، وليس « الجواهر » التي قد تبقى ثابتة ، مثلما
سيبقى ثابتين من جهة ثانية الواقع المدرّس والسلم الوحيد للقيم . إن

(9) راجع بخصوص اسهام لفي - بريل ملاحظاتي في Traité de Sociologie, T. 2, chap 2. الأنف الذكر .
ولقد تمكّن عالم الانام الكبير ، المغفور له موريس لينهاردت (الذي كانت مفاهيمه كلها قائمة على
ابحاث تجريبية في بولنيزيا) من تقويم لفي بريل خير تقويم . فمَيَزَ لينهاردت بدقة بالغة ، بين
« الصوفية » و « الأسطورية » مبدأً أسفه لكون لفي بريل لم يميز بينهما بشكل كاف . وللمضي قدماً
بفكرة لينهاردت ، لا بد من القول أن الأساطير الالهية الكونية لدى البدائيين ، يمكنها أن تكون
صوفية ، لكنها ليست دائماً كذلك ، وبالعكس فإن الصوفي (لديهم أم لدى المتحضرين) لا يتضمن
الأسطوري بالضرورة ، وعليه يبدو لنا أن لفي بريل بالغ قليلاً في « صوفية العقلة البدائية » . وهذا لا
يعطي الحق لبعض المحللين مثل لفي ستروس في محاربة الاكتشافات الكبرى لعالم أنام فرنسي كبير ، كما
لا يحق له خفض كل ميثلوجيا بدائية إلى العقلة والعقلة إلى « العقل الكلي » .

أفلاطونية شلر وأوغسطينيته تحدّان من علم اجتماع المعرفة كما يتصوره معصور
الغاية في مساعدة « النخبة الفكرية » على أن تسليح مجمل معالم المعلوم من
الأطر الاجتماعية ، وذلك باعادة النسق الأساسي بين أنواع المعارف والجواهر
وطرائق الواقع .

أما عند بتريم سوروكين - المؤلف الشهير بكتابه الصادر في أربعة
أجزاء ، نيويورك 1937- 1941 بعنوان Social and Cultural Dynamics
والذي يخصّص الجزء الثاني منه لـ « تقلّبات منظومات الحقيقة » - فإن المفاهيم
الفلسفية الروحانية المسبقة أكثر وضوحاً مما هي عليه لدى شلر ، وذلك على
الرغم من تراكم مواد تجريبية فريدة في غناها . إنه يطور مفهوماً دورياً
Cyclique للمعرفة البشرية يتقلب بين العصور الروحانية (Ideate) والمثالية
(Idealistic) والحسية (Sensate) ، وفقاً لأنماط المجتمعات ، دون أن
يخفي تفضيله للأولى التي ينتظر عودتها الميمونة ، الأمر الذي يجعله يخاطر
بالسير المعاكس لقانون الحالات الثلاث عند أوغيست كومت . وهو من جهة
ثانية يمحصر علم اجتماع المعرفة في دراسة المعرفة الفلسفية ، فلا تظهر العلوم
والتقنيات بنظره سوى تطبيقات لها .

وبالتالي ، فأنا نعتبر أنه من المناسب البحث عن أحد الأسباب الكبرى
للمصاعب التي صادفها علم اجتماع المعرفة حتى الآن ، وذلك في المفاهيم
الفلسفية المسبقة التي جرى ادخالها فيه بشكل واع أو لا واع ، لأن علم اجتماع
المعرفة ، على الرغم من الاهتمام الثابت الذي لا يزال يستثيره ، قد أولد بعضاً
من الاستياء وعدم الاهتمام . حتى أنه سجل فترة توقف منذ عشرين سنة (10) .
ولأطلاقه مجدداً ، جرى في المؤتمر العالمي الخامس لعلم الاجتماع (المنعقد

(10) آخر ما ظهر في هذا المجال كتاب و . ستارك The Sociology of knowledge ، لندن 1958 ، لا
يقدم عملياً أي جديد .

برعاية الأونيسكو في مطلع أيلول (سبتمبر) 1962 في واشنطن) ، تشكيل « لجنة خاصة تُعنى بتطوير علم اجتماع المعرفة » ، وهذه اللجنة ستدعى لتقديم البراهين الأولى على فعاليتها خلال المؤتمر العالمي السادس (الذي سينعقد في أثينا ، في مطلع أيلول 1966) . ونحن أيضاً نَظَمنا في فرنسا منذ 1957 « مختبراً لعلم اجتماع المعرفة » ، غايته استثارة الأبحاث والاستطلاعات الاختبارية في هذا المضمار . ولقد بوشر عملياً ببعضها ، وجرى انتمائها ونشرها (1) وهناك أبحاث واستطلاعات أخرى قيد الأجراء .

ولكن في العقود الأخيرة ، لم ينجح في استرعاء انتباه الرأي العام ولم يؤد الى منشورات كثيرة ، سوى علم اجتماع المعرفة التقنية والمعرف العلمية ، وكذلك علم اجتماع نشر وتعميم المعارف المكتسبة (بواسطة الاذاعة ، التلفزة ، السينما ، وأخيراً « كتب الجيب ») . ان هذا الوضع ، بما هو علامة للعصور ، يعكسُ دون شك بعض اتجاهات المنظومات المعرفية المتطابقة مع انماط البنى الاجتماعية المعاصرة ، لا سيما الرأسمالية التوجيهية (Capitalisme dirigiste) .

بيد أننا لا نعتقد في أن الاتجاهات المذكورة يمكن أن تكون حصرية ، ويمكن لأطار الرأسمالية التوجيهية أن يعتبر دائماً وله أدنى حظ في البقاء لأمدٍ أطول . . .

أكثر من ذلك ، يبدو لنا أن الأسباب العميقة لأزمة سوسيولوجيا المعرفة الراهنة تكمن في مكمن آخر : في التبعية الشديدة ، حتى لا نقول في العبودية ، التي يعيشها علم اجتماع المعرفة تجاه الموقف الفلسفي المسبق ، المعلن أو المُضمَر . وأتينا دائماً في الكثير من كتاباتنا ، على تبيان المدى الذي يمكن للمفاهيم الفلسفية المسبقة اللاواعية والواعية على حد سواء ، ان تصبح

(11) راجع : Enquête sociologique sur la connaissance d'Autrui. dans cahiers Internationaux de sociologie. vol. XXIX. 1960. PP. 137- 156.

فيه مضرّة لعلم الاجتماع ، مع التشديد ، في العلوم الانسانية (دون الكلام على العلوم الدقيقة أو الطبيعية) ، على أن علم الاجتماع هو الأقل قبولاً للانفصال عن الفلسفة ، نظراً لأن بعض المجالات مشتركة بينهما (12) : مثال ذلك الشمولية أو بالأحرى « الشملنة Totalisation » التي تتجلى في النحن Les Nous . في الجماعات ، الطبقات والمجتمعات مثلما تتجلى من جهة ثانية لدى الأنوات « Les Moi » المشاركة (13) ؛ ومثال ذلك أيضاً مجال « الفعل » الذي يمكنه ، بتخطيه لنفسه ، أن يصبح عملاً (14) ، واستطراداً يصبح عملاً خلافاً .

ولقد أتاحت لنا الفرصة في كتابنا « المحدّدات الاجتماعية والحرية الانسانية » لوصف شتى درجات توتر الأفعال والأعمال الجماعية ، لا سيما التحقق المبدع (للقواعد والرموز) ، والخيار والقرار والأبداع الجماعي (15) التي تتجلى بواسطتها الحرية الانسانية في المجتمعات التاريخية أي البروميثيوسية (16) . فتوصلنا الى الاستنتاج بأن علم الاجتماع كان علماً

(12) G. Gurvich - Dialectique et sociologie, 1962, PP. 221- 239.

— Philosophie et sociologie, 1963. chap. XVII.

— la Vocation actuelle de la Sociologie, vol. II., PP. 482- 496

(13) في الواقع أن مسألة « الانسان الشامل L'Homme total » التي فسرها كل من ماركس وموس تفسيرات مختلفة ، انما تنطرح بالنسبة الى كل « أنا » ، لأن كل « أنا » يشارك حتماً في المجموعات الاجتماعية البالغة التباين التي تمنح أفرادها المعايير لبلغ تدامج نسبي ومتنوع بين الاتجاهات المتعاكسة أو المتكاملة الخاصة بكل شخص بشري .

(14) للتمييز بين « سلوك » و « استعداد » ، بين « فعل » و « عمل » التي يجري الخلط بينهما في الغالب ، يمكن الرجوع الى تحليلاتنا في :

- La vocation, Vol. 1. 3e éd. op. cit., P. P. 76- 115.

Déterminismes Sociaux et Liberté humaine, 2e éd. 1963, PP. 1- 13., 95- 104, 221, 246- 324. (15)

Ibid., PP. 220- 221, 246- 247, 324. (16)

للمحددات الاجتماعية بقدر ما كان علماً للحرية الانسانية . ومن البدهاء القول إن علم الاجتماع والفلسفة يعملان هنا أيضاً في ميدان مشترك .

كذلك هو الحال بالنسبة الى الاشارات ، الرموز ، الأفكار والقيم . . .

وأخيراً ، فإن القاعدة المشتركة بين الفلسفة وعلم الاجتماع تظهر الحد الأقصى من البروز في الفروع المتخصصة من علم الاجتماع ، مثل علم اجتماع المعرفة ، علم اجتماع الحياة الأخلاقية ، وعلم اجتماع الفن . والحال ، لكي ندرس تغيرات المعرفة ، الأخلاقية أو الفن وفقاً للأطر الاجتماعية الجزئية أو الكلية ، لا بد أولاً من الاتفاق على معنى « حياة أخلاقية » ، ومعنى « معرفة » ، ومعنى « فن » ، . وبكلام آخر ، لا مناص من حدها كأعمال حضارية متخصصة ، وبالتالي كوقائع اجتماعية . ولكن ، حتى لا يكون هذا التحديد الأولي اعتباطياً ، ملتبساً أو عقيدياً ، لا بد من تحليل فلسفي . وحتى لا يغدو هذا التحليل متحجراً بدوره أي تابعاً لموقف مسبق ولا واع في الغالب ، لا بد من الإدراك أن عالم الاجتماع والفيلسوف ، اذ يتلاقيان كثيراً في الميادين عينها ، لا يستخدمان إطلاقاً نفس المنهج في استكشافها .

وعليه ، لا يجوز أبداً لعالم اجتماع المعرفة أن يطرح مسألة صلاحية قيمة الاشارات والرموز والمدارك والأفكار والأحكام التي يصادفها في الواقع الاجتماعي المدروس . ولا ينبغي له الا أن يستنتج أثر حضورها وتراكبها وسيرها الفعلي .

في المقابل ، يتوجب على الفيلسوف الاهتمام بتبرير صلاحية قيمة العناصر المذكورة . فهو يقوم ، بذلك ، بجهد يرمي قدر الأمكان الى دمج عدة جوانب من المعرفة الجزئية في كلية شاملة لا متناهية حيث يمكنها أن تجد مكاناً لها . وان إسهام علم اجتماع المعرفة ، اذ يكتشف تنوعاً كبيراً في المنظومات المعرفية ، انما يعقد المهمة بقدر ما يغني مضمون الفلسفة ، وبالأخص هذا الفرع المتخصص المسمى « أصولية » أو « فلسفة المعرفة » .

وإذا كان لا مناص من تعاون سلبي وإيجابي على حد سواء ، بين علم اجتماع المعرفة والفلسفة ، فليس من الوارد هيمنة أحدهما على الآخر . إن استخلاص أصولية معينة من علم اجتماع المعرفة تعتبر ضاربة بقدر ما يصار إلى ربط مصير علم اجتماع المعرفة باتخاذ موقف فلسفي خاص . ولا مناص ، في كل المواجهات من جهة ثانية ، من أن يتعلم علم اجتماع المعرفة أن يبقى متواضعاً ، لأجل ازدهاره ، وإن يقلع عن كل مزاعم غير محسوبة .

وهذا لعدة أسباب :

أولاً ، لأن التفسير في علم اجتماع المعرفة لا يجوز أبداً أن يتخطى ارساء الترابطات الوظيفية ، والانتظامات التزوعية ، والتداعجات المباشرة في البنى الاجتماعية . فلا يمكن للبحث عن السببية أن يتدخل في هذا المجال إلا في بعض حالات التفاوت الواضح بين الأطار الاجتماعي والمعرفة ، وهو تفاوت لا يمكن رصده إلا بتحليل جذلي تمهيدي للوضع المعين ، وقبل أيضاح هذا الاعتبار ، لنشدّد على هذه الواقعة المزدوجة (أ) دون الشك في معرفة ما ولهمها لا يمكن القول أنها مجرد انعكاس أو مظهر ثانوي للواقع الاجتماعي ؛ (ب) عادة ، لا يشكل كل نوع معرفة وكل منظومة معرفية جزءاً من دوامة الأطار الاجتماعي إلا بوصفها معلماً ، مرتبة ، عنصراً من الظاهرة الاجتماعية الكلية ، وبالأخص من تجليها في بنية اجتماعية ، حيص تلعب المعرفة دوراً موطداً ، جنباً إلى جنب مع أعمال حضارية أخرى (الأخلاق ، الحقوق ، الدين ، السحر ، التربية ، الخ) .

إن جدليات الاستقطاب ، الالتباس أو التكامل يمكنها أن تظهر بين الإطار الاجتماعي والمعرفة ، بينما تكون بوجه عام في علاقات تضمين متبادل أو تقابل في المنظورات (17) . كما أن هاتين العلاقتين جدليتان ، لأنها يمكنهما أن

G. Gurvitch: Dialectique et Sociologie Paris 1962, PP. 189- 220.

(17)

تنزعا كما يمكن أن تنزع المتوازيات الى الانكسار ، وحتى للارتداد الى اضدادها . لهذه فأن التباينات ، بوجه عام ، بين الواقع الاجتماعي والمعرفة ، التي تحول وحدها من الممكن التدخل السببي بين الحدين ، يمكنها أن تدرس دراسة أيسر ، انطلاقاً من الأنواع الجدلية الأولى . وعليه فأن بنية اجتماعية متأخرة بالنسبة الى مظهرها الاجتماعي الكلي الضمني يمكنها أن تقاوم الانفجار ، مؤقتاً على الأقل ، بفضل منظومة معارف متقدمة . كان هذا هو حال المدن - الحواضر في اليونان القديمة ؛ وكان حال « النظام القديم » في فرنسا وروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

يمكن للمعارف المتقدمة ، بالنسبة الى تطور البنية ، ان تصبح سبباً للتأخر ، وأن تكون في نهاية الأمر سبباً مؤاتياً لانفجارها . الا أن البنية والظاهرة الاجتماعية الكلية الضمنية تصبحان ، دورياً ، عللاً لتوجه تجريدي خاص بالمعرفة وحصرها بالنخبة . وفي الحالة المعاكسة : ويمكن لبنية اجتماعية متقدمة بالنسبة الى منظومة المعرفة أن تغدو سبباً لتبدل اتجاه هذه المنظومة . وهذه الظاهرة تظهر للعيان في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة ، كذلك يمكن لحظها في الولايات المتحدة بعد حلول الرأسمالية المنظمة ، التي تميل الى فرض هيمنة المعرفة التقنية على أنواع المعرفة الأخرى . هنا تكون السببية فاردة دائماً ، ولذلك تكون محصورة بحالات خاصة .

إن « المعامل الاجتماعي » ، الخاص بكل نوع معرفي وبكل منظومة معرفية ، الذي قدّمه علم اجتماع المعرفة ، لا يجوز اعتباره كعقبة أمام هذا العلم ، حقاً ، يمكن لوعي هذا المعامل أو « وضع المعرفة في الأفق السوسيولوجي » ، أن تظهر عدم فعالية المنظومات المعرفية غير المتكيفة مع الأطر الاجتماعية حيث هي مستقرة ، كما يمكنها أن تساعد ، الى حد ما ، على « أن يوضع بين هلالين » هذا المعامل ، وأن تحدّ أهميته . الا أن علم اجتماع المعرفة لا يمكن استخدامه في ابطال المعرفة الزائفة ، و « كشفها » و « تحريرها » ، كما أراد ذلك ماركس . أولاً لأنه ليس لهذا العلم أن يقرّر صحة

مضمون المعرفة ، فهو لا يدعي الحلول محل الأصولية (الأبيستمولوجيا) ؛
وثانياً لأن « تحرير » المعرفة ، بوصفه تحريراً لكل علاقة بين المعرفة والبنية
الاجتماعية ، وحتى وان كان منعكساً في المستقبل ، لا يمكنه أن يمثل بالنسبة الى
عالم الاجتماع سوى طوبى فكرانية للمعرفة غير المتشخصة .

لا بد لعلم اجتماع المعرفة أن يقلع عن الابتسار العلموي والفلسفي
القائل ان كل معرفة تنتسب الى المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية ، وهما نوعا
المعرفة الأكثر انسلاخاً نسبياً عن الأطر الاجتماعية ، اللتان يصعبُ درسهما من
زاوية علم الاجتماع . وهذا يصح بوجه خاص بالنسبة لعلم اجتماع المعرفة
الفلسفية ، حيث تظهر نفس المواقف التي تفصل قرون بينها . ولا مناص
لعلم اجتماع المعرفة من بلوغ نضج أكبر قبل أن تتمكن من التعامل ، بشيء من
الأمل في النجاح ، مع علم اجتماع الفلسفة .

بادئ الأمر ، يفترض بعلم اجتماع المعرفة صب جهوده على أنواع
المعارف الأشد رسوخاً في الواقع الاجتماعي وفي دوامة بناءه ، مثل : المعرفة
الادراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر ، المعرفة السياسية ، المعرفة
التقنية ، وأخيراً معرفة الحس السليم . هذه هي الميادين التي يمكن للبحوث
والاستطلاعات التجريبية أن تندفع فيها قُدماً . وأن علم اجتماع المعرفة يحتاج
في هذه الفترة ، خاصة ، الى استطلاعات كهذه ، مثلما يحتاج من جهة ثانية
الى استقصاءات تاريخية ملموسة (18) .

يفترض بعلم اجتماع المعرفة التخلي عن ابتسارٍ رائج جداً يقول إن
الأحكام المعرفية يجب أن تمتلك صلاحية شاملة . وان صلاحية حكمٍ ما

(18) هذه الاعتبارات أرشدت اختيارنا لمواضيع الأبحاث التي شرع بها « مختبر علم اجتماع المعرفة » الذي
نديره .

ليست شاملة أبداً ، لأنها متعلقة بأطار مرجعي معين . والحال ، هناك كثرة من الأطر المرجعية المتطابقة غالباً مع الأطر الاجتماعية . فإذا كانت الحقيقة والأحكام شاملة دائماً ، فليس بالمكنة التفريق ما بين العلوم الخاصة ولا بين الأنواع المعرفية ؛ والحال ، فان علماء الاجتماع والفلاسفة الأكثر تحجراً في مذاهبهم يميزون هم أيضاً بين نوعين أو ثلاثة أنواع من المعارف ، المعرفة الفلسفية ، المعرفة العلمية والمعرفة التقنية . أما نحن فنعتبر أنه يوجد عدد أكبر من أنواع المعارف التي ينبغي أن يحيط بها علم اجتماع المعرفة وعلم الأصول على حد سواء ؛ وان كلاً من هذه المعارف يفرض نفسه كأطار مرجعي ، مستبعداً بذلك عقيدة الصلاحية الشاملة للأحكام .

فلا يستطيع علم اجتماع المعرفة أن يتوطد من جهة ثانية دون التسليم بالمعارف الجماعية المتصلة جدلياً بالمعارف الفردية . وان كل تاريخ الحضارات يشهد على وجود معارف جماعية ، قائمة على احكام جماعية ، تعترف بصحة التجارب والحدوس الجماعية . ولقد ساعد التخلي عن مفهوم الوعي الحايي ، الوعي المغلق ، المنكمش على ذاته ، لصالح الوعي المنفتح ، المتصل اتصالاً دائماً وثابتاً بالعالم ، ساعد على تأكيد تداخلات الوعي ، وانصهاراته الجزئية ، والتأكيد على أنها واقعية مثل وجود الوعي الفردي ذاته . وهكذا يبدو كل وعي ملتزماً بجديلية الأنا ، الآخر والنحن ؛ والاعتراضات على امكان المعارف الجماعية التي تتركز على الأفعال الحكمية المتعلقة بالتفكير من جهة ، وبالكلام من جهة ثانية ، يمكنها أن تكون فردية .

والحال ، فما معنى التفكير ، ان لم يكن مناقشة المع والضد ، ومجابهة الحجج ، أي الاشتراك في حوار ، في نقاش ، في مساجلة ؟ لكن حينئذ يكون التفكير أبعد ما يكون عن الاحتكار من طرف الوعي الفردي ، فيرتدي بكل وضوح طابعاً جماعياً بحيث يمكن القول بالأحرى أن في التفكير الشخصي تمثل انوات شتى تتناقش فيما بينها ! وبكلام آخر ، ان المقصود ، جزئياً على الأقل ، هو إسقاط للجماعي في الفردي . وأتأنا اذ ننتقل من فعل الحكم الى معايير

الحكم ، يغدو من السهل أن نبين أن معايير الانسجام الشكلي والاستقامة الشكلية للحكم هي معايير جماعية دائماً ، في حين أنه يمكن لمعايير الصحة أن تكون تارة جماعية وتارة فردية .

وهكذا ، أن الادعاء مثلاً بالتواجد في جملة أماكن في آن واحد ، أو بالاتصال مع الأرواح سيحكم عليه بالتناسق في بعض المجتمعات البدائية وسيظهر غير متناسق في مجتمعات أخرى . وإذا انتقلنا من التناسق الشكلي الى الاستقامة الشكلية ، فسوف نصل الى نفس الملاحظة ، لنضرب مثلاً التصريحات التالية : « هاكم واحداً من سكان كوكب آخر » ، « هاكم آلة نقل ما بين الكواكب » . هذه التصريحات كانت تظهر متناقضة في الماضي في نظر هذه الاستقامة ، والحال فأنها لا تظهر كذلك الآن . واما سداد الحكم ، فإن معياره يعتبر جماعياً على مستوى المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر والنحن ، المعرفة السياسية وحتى المعرفة التقنية الى حد كبير . ان المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية تستندان الى معايير السداد الجماعية تارة والفردية تارة .

ليس هناك سوى البيان مما يبقى فردياً دائماً . ويمكن للكلمات أن تكون جماعية ، ليس فقط عندما ترددها الجوقة . يبقى أن حكماً فردياً يمكن الإفصاح عنه بكلام جماعي ، كما أن احكاماً جماعية يمكنها أن تتقبل تعبيراً لفظياً مفرداً . والخلاصة أن كل النقاش حول امكان الأحكام الجماعية يبين أن الأمر يدور حول مسألة ملفقة .

الفصل الثاني

تعريف علم اجتماع المعرفة

قبل تعريف علم اجتماع المعرفة وتعداد مهامه الكثيرة ، ينبغي علينا الرّد على اعتراضٍ أوليّ . فربما يقال لنا إن اختلاف أنواع المعارف التي نسعى لتناولها في هذا الكتاب ، يبدو اختلافاً مصطنعاً ، لأن شتى الأنواع المعرفية ذات اثرٍ متبادلٍ على بعضها البعض ، وهي تشكّل بذلك كلاً لا يقبل الانفكاك . فنلفت الانتباه أولاً الى أن الأمر يتعلق في هذا الميدان بقضايا واقعة . وبالتالي يمكن للأنواع المعرفية المختلفة أن تتغالب وتتعارض كما يمكنها أن تتوحد وتتشابك . اننا هنا وسط النسبية الكاملة ، وأن المسألة المطروحة تتعلق هي أيضاً بعلم اجتماع المعرفة . ومن جهة ثانية ، ان وضع المراتب المتحركة للأنواع المعرفية والاستنتاج أن الأنواع المسيطرة تتباين وفقاً لتباين انماط البنى الاجتماعية الكلية أو الجزئية ، لا يعينان إطلاقاً رفض اتجاه هذه الأنواع ، المتمايزة في اطار اجتماعي معين ، الى التأثير والاختراق للأنواع المعرفية الأخرى التي تتراتب في أثرها ، وانما خلافاً لذلك يفسحان في المجال أمام استدلالات وملاحظات من شأنها تفسير الدوامية الخاصة بالتداخلات والتأثيرات فيما بين أنواع المعارف المختلفة . فعندما نلاحظ ، مثلاً ، أن المعرفة التقنية من جهة والمعرفة السياسية من جهة ثانية تحتلان المكانة الأولى في المجتمعات الراهنة ، لا ندهش من رؤية أن معرفة الآخر ، المعرفة الادراكية للعالم الخارجي وحتى المعرفة العلمية والفلسفية تجدُ نفسها متقنّة أو مسيّسة الى حدٍ كبير . وبالتالي يبدو لنا أن الاعتراض الذي حاولنا الرّد عليه هو اعتراض بدون أساس .

ماذا نعني تماماً بعبارة علم اجتماع المعرفة ؟ إنّه أولاً دراسة الترابطات (المتضائفات Corrélations) الوظيفية التي يمكن قيامها بين الأنواع المختلفة ، بين الدقائق المختلفة للأشكال داخل هذه الأنواع ، وشتى منظومات (مراتب هذه الأنواع) المعرفية من جهة ، والأطر الاجتماعية من جهة ثانية ، أي المجتمعات الشمولية ، الطبقات الاجتماعية ، التجمعات الخاصة وشتى تجليات الاجتماعية (Sociabilité) (العناصر الاجتماعية الجزئية) . ومن بين الأطر الاجتماعية ، تشكّل البنى الاجتماعية الجزئية وبالأخص الكلية النواة المركزية لهذه الدراسة المبسّطة هنا نظراً للدور الذي يمكن للمعرفة أن تضطلع به جنباً إلى جنب مع الأعمال الحضارية والتعقيدات الاجتماعية الأخرى في هيكل بنية ما - هذا التوازن الأولي بين مراتب عدّة .

لا بد لعلم اجتماع المعرفة ، بعد انجازه مهمته الرئيسة ، من أن يدرس بالتفصيل :

أ - العلاقة بين المرتبة المتغيرة للأنواع المعرفية ، والمرتبة المتحركة أيضاً للأعمال الحضارية الأخرى ، فضلاً عن شتى التعقيدات الاجتماعية Réglementations sociales (المسماة « ضوابط اجتماعية ») .

ب - دور المعرفة ومثليها في شتى انماط المجتمعات ؛

ج - شتى طرائق التعبير والتعميم والتوصيل المعرفية ، ذات الارتباطات الوظيفية مع الفعلة الجماعية ، من مستقبلين ومرسلين ؛

د - الانتظامات النزوعية ، التباينية من جهة والتلاحمية من جهة ثانية ، الشاملة شتى أنواع المعرفة المتطابقة مع أنماط المجتمعات الشمولية ، الطبقات ، وحتى الجماعات الخاصة في بعض الأحيان ، الأمر الذي يشكّل الفصل الأول من « علم الاجتماع المؤكّد » للمعرفة ؛

هـ - أخيراً ، الحالات الخاصة بالتباين بين الأطر الاجتماعية والمعرفة ، الناشئة عن الاستقطابات والالتباسات والتكاملات الجدلية في علاقاتها ، التي

تفرض البحث عن السببية الفاعلة ، لكن الفاردة ، التي تسير تارة في اتجاه تأثير الأطر الاجتماعية على توجُّه المعرفة وسماتها ، وتارة في الاتجاه المعاكس لتأثير المعرفة على حفظ أو على انفجار البنى الاجتماعية ، وتارة تظهر أخيراً كأنها سببها المتبادل . أن من شأن هذه الدراسة السببية أن تشكّل مادة للفصل الثاني من « علم الاجتماع المؤكد » للمعرفة ، المتصلّ اتصالاً خاصاً بالبحث التاريخي .

الفصل الثالث

علم اجتماع المعرفة والأصولية *

■ لكي نختم هذا الأيضاح التمهيدي ، علينا أن نبين الصلة بين علم اجتماع المعرفة والأصولية ، لقد استبعدنا كل فكرة تبعية احديّة بينهما . الا أننا نعتبر أنها يملكان قاسماً مشتركاً يدرسه كل منهما بطريقة مختلفة ، الأمر الذي يقودهما الى التلاقي ، ويجعل بذلك من الممكن حدوث مساهمة متبادلة سلبية وإيجابية على حدٍ سواء ، وبالتالي يجعل من الممكن التعاون المشروع بين هذين العلمين اللذين لا يقبلان التخافض من جهة ثانية .

- أن وجود معارف جماعية يطرح على الأصولية مسائل جديدة :
- أ - مسألة الفَعْلَة الجماعيين ، وصلاحيّة أعمالهم المعرفية وقيمتها بالنسبة الى المعارف الفردية ؛
- ب - مسألة الرموز الاجتماعية الفكرية (ذات الصياغات المفهومية المتنوّعة) ، ومدى صحّتها ؛
- ج - مسألة الإشارات الاجتماعية المعرفيّة غير الرمزية (كالروايات من كل نوع) ومسألة فعاليتها .

أين يكمنُ الإسهام الايجابي للأصولية في علم اجتماع المعرفة ؟
في المقام الأول ، يكمن في تعاون الأصولية مع هذا الفرع من علم

* Epistémologie ، علم الأصول ، علم العلم ، معلوميّة ، أصوليّة ، (المترجم) .

الاجتماع ، في مجهودها المبذول للاحاطة بالمعرفة بوصفها واقعة اجتماعية متميزة عن وقائع اجتماعية أخرى ، وللتفريق بين الأنواع والأشكال المعرفية . وفي المقام الثاني ، تسعد الأصولية علم اجتماع المعرفة على اثارة المسألة بعبارة الترابطات الوظيفية (وبعبارة السببية الفاردة ، عند اللزوم) ، فتساعد هذا العلم على وضع المعرفة في منظور سوسيولوجي لا يفتح باب النقاش حول صلاحية هذه المعرفة . وفي المقام الثالث ، الأخير ، أن الأصولية استناداً الى مدارك الكل ، اللا متناهي ، التكاثر ، التنوع في المنظومات والأطر المرجعية ، وأيضاً بالاستناد الى تعميمات محصورة بهذه الأخيرة ، تفتح الطريق أمام تفسير سوسيولوجي لاتجاهات المعرفة لا يختلط إطلاقاً مع مسألة « تفاوتها » .

ليس من الصعب أن نرى أن هذه المساهمة الايجابية للأصولية في علم اجتماع المعرفة لا تتضمن أية عقيدة أصولية خاصة ولا تستلزم في أي حال اتخاذ أي موقف فلسفي . . ومن حيث المبدأ يمكن أن يكون ثمة ($1 + n$) تبريرات فلسفية للتعاون بين هذين العلمين .

من جهته يكمن الأسهم الايجابي لعلم اجتماع المعرفة في الأصولية ، في أنه يضع بتصرفها كنزاً من الأدوات الملموسة والتجريبية المتراكمة خلال الأبحاث حول متغيرات :

- أ - مرتبة أنواع المعرفة ؛
- ب - دقائق أشكال المعارف داخل كل نوع من هذه الأنواع ؛
- ج - العلاقات بين منظومات المعارف والتعقيدات الاجتماعية الأخرى ، أي متغيرات الدور الفعلي للمعرفة في شتى انماط البنى الاجتماعية .

ان الأصولية اذ ترمي الى البت في مسألة الصحة أو البطلان ، أو بكلام آخر حين تهدف الى تقديم مبرر لصلاحية المعرفة ، انما تجد نفسها مرغمة على الرد بطريقة أدق وألطف على المسائل التي يطرحها عليها علم اجتماع المعرفة ، فتستبعد بذلك كل حل تبسيطي .

من جهة ثانية يطرح علم اجتماع المعرفة على الأصولية مسألة صحة الكثرة شبه اللامتناهية لمنظورات المعرفة . وعلى الأصولية أن تحل بوسائلها الخاصة مسألة ما اذا كانت هذه المنظورات (أكانت « أيديولوجية » أم « طوباوية » ، أم « أسطورية » الخ) صالحة كلها ، أم اذا كان بعضها أقل صلاحاً من البعض الآخر .

اذن يتعلّق الأمر بتعاون مشروع بين علم اجتماع المعرفة والأصولية اللذين ، مع بقائهما غير قابلين للتخافض ، يقدمان لبعضهما خدمات متبادلة . « ولا يمكن للأمبريالية أن تدخل بينهما : فهما يترسّدان بعضهما ويستحثّان بعضهما للعمل . أنها مواجهة مقلقة ، لكنها مثمرة . فهنا يفرض نفسه التآخي وسياسة اليد الممدودة ، وهذا الأمر لا يستبعد مع ذلك كل انصهار وكل التباس بين هذين العلمين ، اللذين يفترض بهما أن يظلاً مستقلين » (19) .

في هذه الاطلالة الإجمالية التمهيدية على المسائل المطروحة أمام علم اجتماع المعرفة ، سعينا أيضاً باختصار شديد قدر الأمكان للتوصل إلى دراسة ملموسة للعلاقات بين الأطر الاجتماعية وأنواع المعرفة واشكالاتها . وبالتالي اعتقدنا أنه من الممكن الاستغناء هنا عن تاريخ علم اجتماع المعرفة ، الذي نجد نبذة انتقادية موجزة عنه في دراستنا ، بعنوان « مسائل علم اجتماع المعرفة » (20) . وإننا من جهة ثانية نعدّ « تاريخ علم الاجتماع في القرنين التاسع عشر والعشرين » ، سنخصّص فيه مكانة هامة لتاريخ علم اجتماع المعرفة .

(19) أجزت لنفسي هنا الاستعانة بنص من دراستي « الفلسفة وعلم الاجتماع » في كتابي : La Vocation , t. II., op. cit., P. 496.

(20) Traité de sociologie, T. II., chap. II, 2e éd., 1964, PP. 103- 136
راجع ملحق المدخل هذا ، الذي نقلناه من المصدر السابق تعميماً للفائدة ، بعنوان : « تاريخية علم اجتماع المعرفة وقضاياها الأساسية » . (المترجم) .

الفصل الرابع

أنواع المعرفة وأشكالها

يبدو لنا من الممتنع القيام ببحثنا حول العلاقات الملموسة بين المعرفة والأطر الاجتماعية أياً كانت (تجليات الاجتماعية، تجمعات خاصة، تكتلات هذه الأخيرة في الدول والكنايس، طبقات اجتماعية، مجتمعات شمولية من شتى النماذج) دون الشروع أولاً بتحليل دقيق ومفصل لأنواع المعرفة ولتقاطعها مع أشكال المعرفة. وفي هذه المقدمة، اكتفينا حتى الآن بالإشارة إلى كليهما، وإلى المنظومات المعرفية التي تكونها أيضاً، عندما يكون الأمر متعلقاً بالأطر الاجتماعية المنبئية.

لكن، لدرس تغيرات المعرفة في «منظور سوسيولوجي» لا مناص لنا من أن نجرى أولاً تحليلاً لأنواع المعرفة وأشكالها التي تجلت حتى الآن⁽²¹⁾. لهذا فأننا نعتبر أنه من الواجب علينا تخصيص الفصل الأهم من هذا المدخل لهذه المسألة، على الرغم مما قد يسببه تحليل كهذا، تجريدي زعماً، من نفاد صبر لدى القارئ.

ومن الممكن معارضة موضوع أنواع المعرفة وأشكالها الذي نرمي

(21) بالطبع يمكن أن تظهر في المستقبل أنواع وأشكال معرفية أخرى. ومن هذه الزاوية ليس في تميزنا أي شيء حصري، نظراً لأنها تعترف ميدانياً بإمكان $1 + n$ من أنواع المعرفة وأشكالها التي ينبغي رصدها كلها ظهرت في إطار اجتماعي معين. وليس المقصود هنا سوى منطلقات نحو علم اجتماع المعرفة، النسبي والواقعي فعلاً، أي التوافق مع متطلبات كل دراسة سوسيولوجية تريد أن تكون علمية حقاً.

لدرسه ، بالقول إن المسألة ليس لها معنى إلا بالنسبة للمجتمعات البشرية ، أو بالنسبة الى الطبقات الاجتماعية . وبالتالي من الممكن أن يستهوينا القول بأننا لن نتوصل إلى أي استنتاج صالح ما لم ندرس ظهور انواع المعرفة وأشكالها وفقاً لتجليات الاجتماعية أو التجمعات الخاصة غير المنتظمة بعد ، التي بقدر ما تكون متغيرة ، تكون متبدلة تأثيراتها على المعرفة . والحال ، فإن هذه الاعتراضات أقل إقناعاً مما يظهر .

وبالتالي ، أننا لا ننكر أنه يتوجب أولاً البحث عما اذا كان الأمر لا يتعلق بنتائج تدامج العناصر الاجتماعية الفردية أو الاجتماعية في عوالم اجتماعية أكبر وأوسع ، يمكنها في هذه الحالة أن تعدل من سماتها ، بما في ذلك تلويناتها المعرفية . بيد أنه لا يجوز تناسي الوقائع التالية . إذ يمكن لتجليات الاجتماعية والتجمعات غير المنتظمة أن تؤثر بدورها ، في الظروف المناسبة (كظروف الحروب الأهلية والدولية ، الثورات ، الحركات الشعبية الواسعة النطاق ، الخ) ، على الأطر الاجتماعية التي تشتملها سواء من الوجهة المعرفية أم من أية وجهة أخرى . هكذا تترسخ في علم اجتماع المعرفة القاعدة العامة في كل علم اجتماع ، القاعدة القائلة أن الميكروسوسيولوجيا الصحيحة تؤدي في نهاية المطاف الى الماكروسوسيولوجيا وبالعكس أن الماكروسوسيولوجيا لا يمكنها الاستغناء عن الأولى عندما تتناول التفاصيل ، الأوضاع الملموسة والظروف . أن جدلية التضمن المتبادل تلعب هنا دورها بكثافة خاصة .

ان بعض الأنواع المعرفية ، وبالأخص المعرفة الادراكية للعالم الخارجي ، وكذلك معرفة الآخر ، النحن ، الجماعات ، الطبقات الخ . والمعرفة السياسية ، وبعض فروع المعرفة العلمية المتصلة بعلوم الطبيعة (الفلك ، الطبيعة ، الأحياء ، الخ) أو بعلوم الانسان (بما في ذلك التاريخ وعلم الاجتماع) ، تتضمن دراسة الميادين والأزمة الخاصة حيث تتحرك مواضعها .

والخلاصة ان علم اجتماع شتى هذه الفروع المعرفية يطول بالضرورة علم اجتماع الميادين والأزمنة . وبالتالي يمكن أن يستهوينا البدء بهذا الأخير . غير أن الميادين والأزمنة تشكل حسب كل نوع معرفي تنوعاً وعقداً خاصين ويظهران تحت ضوء خاص . بحيث أن دراستهما ، هناك حيث تكون ممكنة ، قد تستلزم توجهاً سوسيولوجياً خصوصياً ، كذلك نرى من الأفضل اجراءها على حدة بخصوص كل نوع معرفي ، على الرغم من ظهور المعرفة الحسية للعالم الخارجي بمثابة ميدان متميز .

ليس في قصدنا إطلاقاً أن نباشر عدداً من علوم إجتماع المعرفة على قدر ما نتميز بين أنواع معرفية : فمن شأن مشروع كهذا أن يكون مصيره الفشل مسبقاً منذ أن نشرع في دراسة أطر اجتماعية واسعة وغنية كالطبقات الاجتماعية ، وخاصة المجتمعات الشمولية ، التي تتوافق معها منظومات معرفية كاملة (22) ، وبالتالي منذ أن يتعلق الأمر بأطر اجتماعية ذات أهمية كبرى ، لا يبقى مجال للريب أن الأنواع المعرفية تتراتب ، وفقاً للأنماط الاجتماعية ، في منظومة هرمية . وفي هذا الهرم المتغير ، يخترق النوع أو الأنواع المعرفية المسيطرة كل الأنواع الأخرى ، كما أشرنا الى ذلك آنفاً . ومثال ذلك أن المعرفة الفلسفية والمعرفة الادراكية للعالم الخارجي كانتا ، في اليونان القديمة ، تحتلان المكانة الأولى وتخترقان كل أنواع المعرفة الأخرى ، كما يفترض أن تفعل المعرفة العلمية في ظل نظام الرأسمالية التنافسية . وأما في ظل الرأسمالية المنظمة والموجهة فقد سادت المعرفة التقنية من جهة ، والمعرفة السياسية من جهة ثانية ، وطبعتا كل الأنواع بطابعهما .

لنوضح الآن ، تفصيلاً ، السمات المميزة لشتى أنواع المعرفة :

1 - تؤكد المعرفة الادراكية للعالم الخارجي صحة مجموع متناسق من الصور ، الموضوعية في ميادين وازمنة ملموسة وخاصة ، فادراكها وأمكان

S. cf. infra. Iere partie. chapitre IV. PP57- 59. IIe partie chap. II. PP. 66- 69.

(22)

صوغها في مفاهيم وفي معايير كمية من الأمور البالغة التنوع . - وأن هذه المعرفة تفترض في آن ادراكات جماعية واحكاماً جماعية تطول صحة الميادين والأزمة المتداخلة كما تطول صحة مضمونها . ولكي نعطي فكرة عن الأهمية النسبية التي يمكن أن يرتديها هذا النوع المعرفي داخل منظومة تراتبية ، يكفينا مثال واحد : مثال المجتمع الأقطاعي . كانت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي موضوعاً فيه في المرتبة الأخيرة (انعدام الأفق في الفن ، وانغلاق المدن والقرى على نفسها في عمرائها ومحيطها ، هما دليل كافٍ على ذلك) .

أن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، بوصفها واقعة اجتماعية ، تفترض أولاً الإدراك الجماعي للميادين وللأزمة حيث يقع هذا العالم . وإن الفعلية الاجتماعيين (النحس ، الجماعات ، الطبقات ، المجتمعات الشمولية) ، شيمة الفعلية الأفراد ، تواجه باستمرار عقبات تتعارض مع مساراتهم ونشاطاتهم وتطلعاتهم . وتكون الميادين والأزمة بعدد هذه العقبات . وإن الفعلية لا يعونها إلا وهم يكافحونها ويحاولون الهيمنة عليها . ويحدث في هذا الكفاح اصطفاء أول ، خاص بكل إدراك ، ومتوقف على إطارات مرجعية تنزع إلى التطابق مع الأطر الاجتماعية . لهذا السبب ، فإن عدداً كبيراً من عمليات الإدراك ، حتى الفردية ، إنما تضبطها عوامل جماعية وتوحي بها ، والحال ، كيف يمكن أن تكون الأمور على نحو مختلف ؟ أليس من شأن إدراك فردي ينزل عن المعايير الجماعية أن يصبح إدراكاً خيالياً ؟ إن إنساناً ذا إدراك فردي ، حصراً ، للميادين والأزمة ، يمكنه أن يكون إنساناً ضالاً ، ضائعاً في العالم الخارجي وفي العالم الاجتماعي ، وبالتالي يكون عاجزاً عن اكتشاف ذاته فيه . وسوف يكون عند التخوم التي سيغدو الميادين والأزمة من بعدها ، هي تخوم الجنون ، أو على الأقل تخوم الحالات النفسية - المرضية .

لقد حدد برغسون الميادين الملموسة ، المتميزة عن تسورها quantification في حقول ، مثل الأمتدادات ، معارضة للتوترات المتميزة

للزمن النوعي بعدة درجات . . وإذا كان بالإمكان أن نحدّد على نحوٍ وصفي محض الزمن بوصفه « إتساقاً أو تبايناً لحركات راسخة تدوم في التابع ، وتتوالى في الديمومة » (Vocation actuelle de la sociologie, Vol. II, 1963, P.) 329) ، فسوف يكون بالإمكان القول في الميدان إنه « اتساق أو تباين بين نقاط متراكبة ، قابل للتوسع والتراجع ، تتعايش جنباً الى جنب » .

ولنشرّ إلى فرق جوهري آخر بين الزمان والمدى . هو أن كثرة الأزمنة لا تعني الحياة الاجتماعية وحدها . بل تعني كل نوع من الواقع خارج الإنسان ، لأنها تفرض نفسها بقطع النظر عن كل وعي للزمان . ثمة أزمة على قدر ما هناك من ميادين للواقع ، وفي كل ميدان يمكن لعدة أزمنة أن تتنافس . وليس الأمر كذلك مع كثرة الميادين . فالمدى الذي يقع فيه العالم الخارجي والعالم الاجتماعي على سواء ، بوصفه واقعاً مستقلاً عن كل وعي ، لا يمكنه إلا أن يكون ميداناً وحيداً ، وإن من شأن كل تأويل آخر أن يدخل عدة عوالم منظورة وغير منظورة لن يكون اتحادها الصوفي صالحاً إلا في مجتمع بدائي . وبالتالي لا يمكن لتنوع الميادين أن يقبل إلا كمحصلة لتدخل جملة من المدارك والرميزات والصياغات المدركية ، الخ . وهذا لا يعني أن أنواع الميادين مجردة من كل واقع . وإنما الأمر لا يتعلق فقط بالواقع الميداني الممتلئ ، بل يتعلق بالمنظورات التي تضعه فيها أنواع الوعي المتنوعة . وهذه المنظورات ليست سوى أوهام وذلك على قدر ما تشكل سبل مقارنة باتجاه المدى الواقعي الوحيد . لهذا ، بينما أمكن اعتبار أنواع الأزمنة ، لا سيما الأزمنة الاجتماعية كما ميزناها في أعمالنا السابقة ، بوصفها أنواعاً مستقلة عن طريقة ادراكها قبل كل شيء ، كانت أنواع الميادين ، بخلاف ذلك ، لا تقبل الانفصال عن الطرق المختلفة في النظر إليها ، وهذا الأمر يصح على الميادين الاجتماعية وميادين العالم الخارجي . في كلتا الحالتين لا تكون الميادين المتنوعة سوى السبل المؤدية الى المدى الواقعي الوحيد .

وسواء تعلّق الأمر بالميادين أم بالأزمنة فإن ادراكنا لها هو ادراك ذو طبيعة

جماعية . إلا أن تجلياتها تظهر تنوعاً كبيراً في المزايا ، من هنا جاءت كثرة صور العالم الخارجي في شتى الأطر الاجتماعية ، على الرغم من الاصطفاء الذي تجربه الأحكام الجماعية بين المدارك الصحيحة أو الباطلة .

ان مدارك الميادين تتنوع وفقاً لمعيارين رئيسيين :

أ - معيار العلاقة مع الفاعل ، الجماعي والفردى على سواء . وهو يساعد على إجراء التمييزات التالية : 1 المدى الغيري الذي يتماهى مع الذات ، 2 المدى الأنوي الذي يخترقه انفعال الذات ، 3 المدى الإسقاطي ؛ وهو يتسع تدريجياً على قدر ابتعاده عن الذات ، لكنه يتضمن نشاطاته (مثلاً المدى البنيوي - البنيوي الذي يحكي عنه في علم الاجتماع ، أو ميادين الأجهزة المنتظمة والنماذج والرموز التي تحد من فعاليتها) ؛ 4 الميادين المستقبلية ، الأشد بُعداً عن الذات والأكثر قرباً من الميادين الواقعية .

ب - المعيار الثاني رهنٌ بطابع المدى المدرك بالذات . وهو يفيد في وضع تمييزات أخرى مثل : 1-ميادين غامضة بدون نطاق محدد ؛ 2-ميادين منغلقة ، منطوية على ذاتها ؛ 3-ميادين تنفتح وتنغلق دونما صعوبة . ولنلاحظ أن الميادين المستقبلية والميادين المفتوحة والمنغلقة غالباً ما تتداخل ، وان الميادين الغيرية هي في الآن ذاته ميادين انوية . الا أن هذه الأوضاع ليست ضرورية . وهكذا تنتصر في عصرنا ، بفضل التقنيات الجديدة ، وسائل الاتصال على الميادين المنتشرة والأنوية ، ولكن الميادين الموسومة بالميادين المستقبلية ترتبط بالأدوات الى حد أنها تميل الى أن تصبح ميادين انوية ، مقطوعة عن الميادين المنتشرة .

ان الأزمنة أشد تنوعاً من الميادين والامتدادات : ففي الواقع ، ينضاف الى شتى أنواع وعي الزمان ، كثرة المواقيت الفعلية . وفيها يتعلق بكثرة الأزمنة الاجتماعية وحدها ، اعتقدنا أنه بالامكان التفريق بين 8 أنواع من الأزمنة الفعلية ، فاذا تصورنا وقائع العالم الخارجي والأزمنة التي تتحرك فيها - أننا نستبعد هنا كل الاسقاطات التي تزيقها الانفعالات بوضوح - اكتشفنا تشكيلة

كبيرة من الأزمنة المتداخلة مع الميادين . إن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي تستلزم جدلية مركبة بين الميادين وشتى الأزمنة ، المدروكة والفعلية معاً . ولنلاحظ هنا أن الصورة المتناسقة للعالم الخارجي ، موضوع هذه المعرفة ، تتضمن ميادين وأزمنة يمكنها أن تتداخل وحتى أن تتوحد ، كما يمكنها أن تتصادم وتتصارع : ويمكنها أن تصبح قطبيةً وتكاملية أيضاً . الخ . لكن علاقاتها تظل متوترة وغامضة على الدوام .

وإذا أخذنا بالاعتبار واقع أن معايير قياس الميادين والأزمنة ، مثل معايير تناسق العالم الخارجي بالذات ، غالباً ما تتغير بين مجتمع وآخر ، وبين طبقة وأخرى ، وجماعة وجماعة ، فمن غير الممكن عدم التعرف إلى التنوع الشديد في صور العالم الخارجي التي يواجهها علم اجتماع المعرفة الإدراكية . وإننا بسبب ذلك مدعوون للأسف لكون هذه المعرفة وعلاقاتها مع الأطر الاجتماعية التي تتغير بتغيرها ، لم تسترِع انتباه علماء الاجتماع حتى الآن . وإننا سننكب عليها في عرضنا الإجمالي . لكننا نصل الآن إلى نوعٍ معرفي آخر .

II - معرفة الأغيار . النحنُ ، الجماعات ، الطبقات ، المجتمعات المدركة في واقعها والمثبتة صحتها بحكمِ واقعٍ . تمثل نوعاً خاصاً من المعرفة .

لم تُدرك هذه المعرفة إلا مؤخراً ، وكان ذلك الإدراك أظهرَ في الفلسفة منه في علم الاجتماع . ولهذا المفارقة ثلاثة أسباب ومصادر . فلا يمكن تخيل أي إطار اجتماعي (ميكرو اجتماعي ، جماعي ، شمولي) لا يحدث فيه هذا الاكتناه وهذه المعرفة ، لأنها عنصرٌ منشيءٌ للواقع الاجتماعي ذاته ، ولكنها غالباً ما يكونان ضمنيَّين أكثر منهما صريحين . وفي الوقت نفسه ؛ فإن كثافتها المتبادلة ، أهميتهما ، مزاياهما ، والدور الذي تلعبه بنية الآخر ، تعابير وجهه ، مسلكه ، حركاته وكلماته ، مواقفه الاجتماعية رغبته أو رفضه الاتصال ، ان كل ذلك يتغير مع كل إطار اجتماعي مثلما تتغير في معرفة الآخر بحصر المعنى ، المعايير والنماذج والرموز التي توحى بها الجماعات ، الطبقات

والمجتمعات الشمولية للصّور الإدراكية عن الآخر . وسنذكر ، على سبيل المثال ، معايير الآخر والنحن ، الصادرة عن مجتمعات شمولية . وبمقتضى الأحوال ، يمكنها أن تنقبض وتنبسط (ومثال ذلك أنها قد لا تطول الغريب ، العبد ولا حتى القرن ، نظراً لأنه لا يعتبر أى منهم بمثابة « آخر » وبالتالي لا يجوز انتسابه إلى « النحن ») أو بالعكس يمكنها أن تتسع (على قدر ما يؤخذ الانسان بوصفه ممثلاً للإنسانية بعامة وحيث يفقد بالتالي سماته المميزة والفردة) . ومن جهة ثانية يمكن في بعض الأطر الاجتماعية وفي بعض الظروف ، أن يظهر الآخر بوصفه موضوعاً للدراك أو للمعرفة ، ماثلاً في شخص الأب أو الأخ ، في شخص صديق أو عدو ، كمرافق أو منافس ، كرفيق أو خصم ، كأدنى أو أعلى ، كولي أو قاهر ، كمركز اجتذاب ونبذ أو لا مبالاة . ويمكنه أن يتخذ طابعاً ملتبساً حين يجمع بين مزايا متعارضة . أخيراً ، وهذا هو الأصل الثالث للمفارقة التي اشرنا إليها . لم تلعب معرفة الآخر أي دور معتبر في المجتمعات من النسق الأبوي أو الاقطاعي في الأخويات والتنظيمات الرهبانية في القرون الوسطى ، وهي تتدخل أيضاً في بعض التجمعات الضيقة النطاق (الأسر - المنازل ، الأقسام الداخلية ، الخ) . وربما يمكنها أن تصبح رئيسة في انماط المجتمعات المنتظمة وفقاً لمبادئ الجماعة اللا مركزية والمتنوعة القائمة على التسيير العمالي الذاتي .

وفي كل حال ، سيتوجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذا النوع المعرفي المتصلّ اتصالاً خاصاً بالأطر الاجتماعية .

III - معرفة الحس السليم ، التي يمكننا الإشارة إليها أيضاً بعبارة دارجة : « معرفة الحياة اليومية » ، هي نوع خاص من المعرفة . وهي تكمن في توليف معرفة الآخر والنحن ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي - بوصفه المحيط الأقرب من النحن أو من الجماعة ، وبعض المعارف التقنية الأكثر تداولاً ويسراً - ومنها تقنيات الجسم ؛ وأصول اللياقة ومظاهر التحفّظ والتأدّب .

وهي تنزع إلى تأييد المعرفة السلفية ، معرفة الناس المسنين والمجربين ، معرفة « أدب الحياة » ، التي يفتقر إليها الأولاد وبوجه أعم الأجيال الفتية .

إن هذه الأجيال غالباً ما تدعوها الى « الحس السليم » الأجيال السابقة المفاخرة بأن تعلمها كيف تخرج من مصاعب الحياة وكيف تتجنب الخطى الفارغة . الا أن نجاح تناقل المعرفة الحسية السليمة هذا هو تناقل عشوائي جداً في المجتمعات الصناعية الحديثة : فشروط الحياة تتبدل فيها بوتيرة خطيرة تفرضها التطورات التقنية المتواصلة . وأمام هذا التبدل الدائم في الحياة اليومية ، يجب على كل جيل ، بل على كل شريحة جيل أن تصنع بنفسها معرفتها الحسية السليمة ؛ وهذا الأمر يخفف من أهمية هذه المعرفة في منظومة المعارف المعاصرة . ولنلاحظ من جهة ثانية أنه كلما كان المجتمع أثقف ، كان دور المعرفة الحسية السليمة أقل ؛ وكلما كان المجتمع أمياً كان دور هذه المعرفة أعظم .

غير أنه يوجد بعض الجماعات الضيقة النطاق حيث تستمر سيادة معرفة الحس السليم ، كما هو الحال في الأسر - المنازل ، وفي الدساكر الصغرى أو القرى المعزولة . ومن جهة ثانية ، هناك بعض الهيئات المهنية ، كالجيش ونقابة المحامين ونقابة الأطباء وحتى الكليات وبعض الأجهزة الأخرى في التعليم العالي تكتفي في حياتها وعملها الداخليين بـ « معرفة الحس السليم » وذلك على الرغم مما تنشره من معارف . وهذا دليل على أن المقصود بذلك هو بالضبط نوع خاص من المعرفة .

IV - المعرفة التقنية ، ليست مجرد معرفة الوسائل التي تستخدم لبلوغ أهداف مثالية ، كما توهم بذلك بعض الفلاسفات الروحانية ، ولا هي معرفة علمية مطبقة تتميز بأرصانها وقابليتها للتناقل ، كما تقول الوضعية الشائعة . إن المعرفة التقنية معرفة قائمة بذاتها Sui generis ، لا تقبل الخفض الى أي معرفة أخرى . وهي مسكونة برغبة السيطرة على العالم ، واستعماله ، وتشغيله وتوجيهه ، إنها جزء منشيء للفعل ، Praseis ،

(بالمعنى الذي كان يعنيه ماركس) وتندرج في « القوى المنتجة » مباشرة .

الا أنه من الخطأ ربما حصر المعرفة التقنية فقط بمعرفة استخدام المادة ، ومن ثم من الخطأ خفضها الى التكنولوجيا ، فمن جهة ، تعتبر المعرفة التقنية في آن واحد صريحة على قدر ما يمكن تناقلها ، وضمنية على قدر ما ترتبط بالمراس والمهارة واللباقة . ومن جهة ثانية للمعرفة التقنية ميدانٌ أوسع بكثير من ميدان استعمال المادة . انها معرفة كل الاستعمالات الفعالة ، الصناعية والعادية ، التي تنزع إلى الاستقلال والى استمداد قيمتها من صفتها هذه - انها استعمالات دقيقة ، قابلة للتناقل ، مبتكرة ، ومصدر معرفتها هو الرغبة في السيطرة على عالم الطبيعة والانسان والمجتمع ، وذلك في سبيل الانتاج ، التدمير ، الصون ، التنظيم ، التخطيط ، الإيصال والتعميم .

إن درجات المعرفة التقنية ، الصريحة والضمنية على السواء ، هي درجات بالغة التنوع دائماً داخل النمط الاجتماعي عينه ، وتمتد من الخبراء أو أصحاب الأسرار التقنية الى منفذي الأوامر الصادرة ، دون الكلام عن العاملين العاديين .

ويمكن التحقق من السمة الخاصة للمعرفة التقنية من خلال وقائع معروفة جيداً ، تتعلق بأهميتها التفاضلية وغير المرتقبة أحياناً في شتى انماط المجتمعات الشمولية . فمن مستوى بدائي جداً في الحواضر والأمبراطوريات القديمة ، وبالرغم من التطور الهائل في المعارف العلمية ، توصلت التقنيات الى مستوى مرتفع جزئياً في المجتمعات الشيوقراطية - الكاريسمية (اللاهوتية - الزعائمية في مصر القديمة مثلاً) . وبلغت في المجتمعات الإقطاعية درجة أرفع بقليل ، لا يتوافق معها أي تطور خاص بالعلم .

وفي بداية الرأسمالية أيضاً تطورت التقنيات ، ليس بمقتضى الاكتشافات العلمية بل في المانيفاكتورات والفبارك مباشرة . ولم يحدث الوصل بين المعرفة التقنية والمعرفة العلمية فعلياً إلا في القرن العشرين ،

وبالأخص في قطاع التكنولوجيا المحدود وفي المقام الأرفع للخبراء والمهندسين . ومن جهة ثانية، بدأت المعرفة التقنية في مجرى العقود الأخيرة هذه تسود المعرفة العلمية وتنوطها بدورٍ دوني . وهذا ليس فقط في علوم الطبيعة ، بل في علوم الإنسان أيضاً . ويقدم علم النفس وعلم الاجتماع المعاصران مثالين على هذه الهيمنة التقنية ؛ وهذه الحركة لاتني تتصاعد ويخشى أن تدمر أساسها بالذات .

لكن هناك ما هو أسوأ . لقد وصلنا الى عصر تتجاوز فيه التقنياتُ البنى الاجتماعية ، وبالأخص أنماط المجتمعات التي نشأت فيها . والحال ، فإن تاريخ التقنيات يظهر أنه لم يسبق للمعرفة التقنية أن أنجبت حتى الآن أطراً اجتماعية ، وانما بالعكس تماماً ، كانت الأطر الاجتماعية هي التي تستثير التقنيات الجديدة . ويمكن القول ، بقدر ما يكون المقصودُ ببنى اجتماعية جزئية أو شمولية ، متركزة على أعمال حضارية ، كانت هذه الأعمال باستمرار تقود المعارف التقنية وتسودها .

إننا نشهد اليوم تفاوتاً ملحوظاً بين البنى الاجتماعية وأعمالها الحضارية غير التقنية من جهة ، وبين التقنيات من جهة ثانية ، إن المعارف التقنية المنفلتة من عقالها ، لا تخضع لأية سيطرة وأية رقابة . والتقنيات في مستواها الأعلى تظهر قوتها التدميرية ، ويبدو التكنوقراط - هؤلاء السحرة المتعلمون - عاجزين عن كبح القوى التي تطلقها . إن التقنيات تبدو كأنها في إعصار ، ويقوم سباقُ سرعة بينها وبين المجتمعات . وهذا الوضع انما يزيد من جاذبية علم اجتماع المعرفة التقنية ويثير الأسف لأنه لم يجر حتى الآن شيء جوهري في هذا المضمار .

V - المعرفة السياسية ينبغي تمييزها بدقة عن « العلم السياسي » وعن « علم الاجتماع السياسي » ، اللذين يدرسان ، بمناهج مختلفة ، الأنظمة السياسية ، اعداد وسير الانتخابات ، الأحزاب السياسية الخ . وباختصار

يدرسان كل ما يتصل بالدولة بالسياسة **Politeia** ، على حد تعبير أرسطو . فأفلاطون لم يتكلم الا عن الجمهورية ، وفي حوار متأخر تكلم عن السياسة أي « السياسي » - وهذا ما يسمّى باللغة الأنكلوسكسونية بـ السياسات **Politics** . كذلك ينبغي تمييز المعرفة السياسية من « العقائد السياسية » أو « الفلسفة السياسية » التي تبرّر الأنظمة الحاضرة أو المقبلة وترمي أحياناً ، لأجل هذه الغاية ، الى منهجة المعارف السياسية المكتسبة .

هكذا تبدو المعرفة السياسية ، كما نقصدها هنا ، بالغة الاقتراب من المفهوم **Policy** الأنكلوسكسوني (المقابل لـ **Politics**) . على أن تشمل الاتجاهين التاليين :

أ - « استراتيجية الفعل الاجتماعي » التي تطول أولاً تطول دوامة الدولة بـ المعرفة الفطرية والمروية معاً ، التي توجه هذه الاستراتيجية ، بالتالي فإنها تتخطى من كل جهة الفعل المتعلق بسياسة الدولة (Policy) .

وعليه ، فإننا نعارضُ عن وعيٍ عبارة « المعرفة السياسية » مع كل علمٍ ، بما في ذلك العلم الذي يدرس كل ما يمكن أن تكون له صلة مباشرة أو مداورة بالدولة أو بفعلها . فالمقصود بنظرنا معرفة فطرية أو مروية ، خارجية بالنسبة الى كل علم ، تنبثق مباشرةً من صراع اجتماعي متعدد الرهانات . إنها معرفة منحازة تماماً ، يكون فيها المناضلون والمرشدون (« رجال السياسة ») أقوى من العلماء بكثير ، يغتدون بـ « العلوم السياسية » وحتى بـ « علم الاجتماع السياسي » . وهذه المعرفة السياسية لا تفترض مسبقاً وجود الدولة أو فعلها السياسي . وهي بالتالي تتجلى في شتى أنماط المجتمعات البدائية من خلال تصارع العشائر والقبائل ، والمنافسات بين العشائر ، أو المعارك التي تشنها « بيوتات الفحولة » على هذه وتلك . كذلك يمكن لحظ « المعرفة السياسية » في المجتمعات البدائية (التي تنتسب الى المجتمعات التاريخية دون أن تشكل « دولا ») عندئذ تفصحُ هذه المعرفة عن نفسها في الصراعات بين الابن البكر والأبناء الصغار (ومن ضمنهم أمهاتهم ، محيطاتهم

وأنصارهم) ، أو أيضاً في المؤامرات المحبوكة بين « الريب » و « الابن
الفعلي » الخ .

إن المعرفة السياسية يمكن رصدُها بوجه خاص في الأفعال ، النزاعات
والصراعات حيث تتصادم الجماعات ، الطبقات والأحزاب تصادُماً مباشراً .
وإننا ندرسه اليوم دراسة أيسر في مقررات المؤتمرات النقابية وشتى الأحزاب
السياسية أكثر مما ندرسه في برامجها أو عقائدها . إن اقتران الأحكام القيمية
والأحكام الفعلية يشكلان المعرفة السياسية ، بيد أن هذه لا تقبل الانخفاض
الى معرفة إيمانية ، لأنها معرفة قبل كل شيء : إنها معرفة واقعية ودقيقة جداً
للقوى المتنازعة وللبيئة التي يجري فعلُها فيها . وبالتالي فإن المعرفة السياسية
تتضمن الوعي الواضح للمصاعب التي ينبغي قهرها ومساً حاداً بالسلوك
الواجب اتخاذه في هذا الظرف الاجتماعي أو ذاك . وهي بمقتضى الحال ستوحي
إذن بسلوك ثوري ، متطرف أو مطلبى على الأقل ، لكي تدفع في ظروف
أخرى نحو التسوية ، والاعتدال (« لأجل التقاط النَّفس » حسب عبارة لينين
الشهيرة التي استهل بها عام 1922 نهج « السياسة الاقتصادية الجديدة N. E.
P » في الاتحاد السوفياتي) وحتى لأجل التراجع .

هناك سرٌّ في طابع المعرفة السياسية ، وهو سر إذا جاز القول يبرّر
إندراجه في الميدان المعرفي . وهو يكمن في كون المقصود هو اقتران خاص
للايمان بمثال مع المعرفة الضرورية لتخطي العقبات ، ولاكتناهِ الفرص المناسبة
منذ أن تظهر . إن المعرفة التقنية المطبقة على تدبير البشر وجماعات الأنصار
والجماهير العريضة أحياناً ، تلعب هنا دوراً لا يمكن إهماله : وقد صار في
عصرنا متزايدة الأهمية . . . وعليه ، فإن المعرفة السياسية تشكل ، في صورة
ما ، اقتراناً بين عدة أنواع من المعارف : معرفة الآخر والنحن ، معرفة الحس
السليم ، المعرفة التقنية ، وأخيراً المعرفة المباشرة للمعالم الاقتصادية
والنفسانية الخاصة بالواقع الاجتماعي ، من خلال تجلياتها في الظروف

الشاملة ، بيد أن الأمر لا ينحصرُ أبداً في مجرد جمع أنواع المعرفة المذكورة ، بل المقصود هو انصهارها الذي لا يقبل الانفكاك ، في نوع معرفي قائم بذاته ، لا يقبل الخفض ، وخاص تماماً . وهذا ما يمكن تبينه من خلال الملاحظة أن المعرفة السياسية في بعض المنظومات المعرفية ، لا سيما تلك التي تتوافق مع الرأسمالية التوجيهية من جهة ، ومع الشيوعية المركزية من جهة ثانية ، إنما تبدو قادرة على أن تسود كل أنواع المعرفة الأخرى وأن تخرقها .

لا شك أنه لا يوجد معرفة أكثر أيديولوجية ، من المعرفة السياسية . إلا أنه من المناسب أن نلاحظ أنه ما من نوع معرفي ينجو كلياً من نفوذ الأيديولوجيا . فهذه تدفع ، بالواقع ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر والنحن ، معرفة الحس السليم ، المعرفة التقنية والعلمية ، في درجات مختلفة ، وبشكل شديد جداً تدمغ المعرفة الفلسفية .

سبق لنا أن ميّزنا بين معالم المعرفة السياسية على اختلافها ، ومعنى هذا بطريقة ما تحديدها بالنسبة الى أنواع أخرى من المعرفة .

ولتحديد هذا بوضوحٍ أشد ، فنلشدّد على أنها تكمن جوهرياً في دوامة خاصة من الأقوال الفطرية والمروية حول الوضع الحاضر ، المقبل والماضي أحياناً لبنية أو لظرف اجتماعيين . وهذه المعرفة هي الأكثر التزاماً مباشرة ، أي أنها تملك طابعاً تحزيبياً متميزاً . هاكم السبب في كونها عادة لا تقبل نفاذ حجج الخصوم (المنافسين العاديين أحياناً) فما بيّناه من قبل لا يقبل إطلاقاً التوافق مع استعدادها لكشف العقبات الأشدّ كموناً وللتوصل الى احكام دقيقة حول الظروف الفعلية والشروط المؤاتية لتحقيق الأهداف المنشودة تحقّقاً جزئياً أو كلياً . هكذا يمكن للمعرفة السياسية ، كما رأينا ، أن توحى حسب الظروف ، رفض كل تسوية ، « الانفصال الكامل »⁽²⁴⁾ ، التمرد المطلق أو

(24) عبارة برودون في كتابه « القدرة السياسية للطبقات العمالية » ، الصادر عام 1865 ، ثم طبعة ريفير ، =

التراجع التكتيكي والاعتدال . وعليه يمكنها أن تكون ثورية وإصلاحية في آنٍ إنها غير مسكونة بالأيديولوجيا فقط بل باليوتوبيات و « الأساطير » بالمعنى الذي ذهب إليه سوريل تصور - إشارات تدعو الى الفعل . وهي تنزع داخل المنظومات المعرفية للارتفاع الى مرتبة أعلى في المجتمعات حيث تزدادُ حدةُ مآزِمُ الجماعات ، وحيث تتوطدُ تعارضات الطبقات ، أو كما يحدث في عصرنا عندما تدخل عدة بنى شمولية مختلفة الأنماط في سباقٍ شديدٍ تكون نهايته غير مأمونة أحياناً .

IV - المعرفة العلمية : هي نوع معرفي ينزِعُ الى التجرُّد (كما في قول سبينوزا « لا ضحك ، ولا بكاء ») ، والانفتاح والتراكم والانتظام والتوازن والوصل بين المدركي والتجريبي . إنها تنطلقُ من أطرٍ عمليةٍ هي جوهرياً حصيلةُ نتائج سابقة غالباً ما تدعو الى تحققٍ إختباري . وإذا استثنينا الحاضرة القديمة حيث لم يكن العلم مميزاً عن الفلسفة لم تكن المعرفة العلمية تشغل مكانة هامة في منظومة المعارف وفي بعض أنماط البنى الرأسمالية ، لا سيما نمط الرأسمالية التنافسية . فمنذ حلول المجتمعات الصناعية ، دخلت في سباقٍ وتنافس مع المعرفة الفلسفية التي أفسحت لها المكان في ما بعد .

وعلى الرغم من مزاعمها المبدئية في أن تكون « فوق الالتباس » أي أن تكون منفصلة عن الأطر الاجتماعية ، فإن المعرفة العلمية لا تتمتع إلا باستقلالٍ نسبي ، وإن الخطأ الأكبر للوضعية يكمن في أخذ هذه المزاعم بحرفيتها . ففي كل معرفة علمية تتدخل المعاملات الاجتماعية تدخلاً قوياً على قدر ما تكون المعرفة متطورة .

فاذا أخذنا بالاعتبار أولاً العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية ، حصراً .

= باريس 1959 . جاء في الصفحة 237 من طبعة ريفير : « ان الفصل الذي أوصي به هو شرطُ الحياة بالذات . فالجائز والتحدُّ يعنينان الوجود ؛ وكذل فإن التخالط والتدامج يعنينان الضياع » .

سنرى أنها تؤثر على المعاملات الاجتماعية من أربع زوايا :

أ - في المقام الأول ، تتركز على التجربة والاختبار وهما جوهرية إنسانيان ويعانيان تأثير الإنسان . هناك أصوليون من مشارب مختلفة - ليون برنشفيع ، صاحب كتاب الاختبار الإنساني والسببية الطبيعية ، 1922 ، وغاستون باشلار مثلاً - بينوا ذلك تبياناً كافياً في مؤلفاتهم الكثيرة .

ب - في المقام الثاني ، يتأسس كل علم على الوصل بين إطار مرجعي مدركي عملي من جهة ، والتجربة والاختبار من جهة ثانية : إن عمليات التدريك الخاصة بكل علم Les Conceptualisations ، المتأخرة أحياناً ، لكنها المتقدمة على حالتها الفعلية ، تؤدي إذن إلى إدخال المعامل الاجتماعي في المعرفة العلمية . من هنا ، تحمل كل فرضية مبررة أم غير مبررة ، طابع بنية المجتمع الذي توضع فيه . وهكذا ، رأينا الداروينية تُستأنف في علم الحياة مبدأ التنافس ، الرائج آنذاك في الرأسمالية ، وتكشف طابعها الأيديولوجي بكل جلاء . ومهما يكن هذا الطابع أقل ظهوراً ، فإنه حاضر في فيزياء الكوانتا . وإن الميكرو فيزياء الحاضرة تظهر ، بلا وعي ، حدود الطاقة الذرية التي يمكن أن تظهرها البنى الاجتماعية الشمولية المتنازعة في المجتمعات المعاصرة .

ج - في المقام الثالث ، تحتاج العلوم الدقيقة ، أكثر من كل العلوم الأخرى ، إلى مختبرات وأجهزة بحث واختبار واسعة النطاق أي عالمية وقومية على السواء . ففي عصر الطاقة الذرية والالكترونيك ، لا مناص من تخطيطات البحوث العلمية . وطالما أن التخطيطات العامة لم تبلغ المدى المنشود ، فسوف تكون موضع منافسة من جانب المنظمات الخاصة للبحوث العلمية ، المرتبطة بالاحتكارات الصناعية ، القومية والعالمية .

د - في المقام الرابع ، يقوم في الواقع ارتباط بين العلوم والواقع الاجتماعي - سواء سيطر الواقع على العلوم بفضل « القوى المنتجة » التي

تندرج فيها العلوم ، أم أنه خضع لسيطرتها - ، نظراً لأن المعارف العلمية تستلزم وسائل خاصة بتعميم نتائجها . ان التعليم ، التعميم ، منشورات الجيب ، الإذاعة أو التلفزة ، كلها مسألة سوسيولوجية تثار بخصوص سبل تعميم المعرفة العلمية واستعمالها . ولقد عولجت هذه المسألة في أعمال ب . B. Barber في كتابه (العلم والنسق الاجتماعي ، 1952 ، وبالتعاون مع هيرش ، في كتاب سوسيولوجيا العلم ، 1962) ، من جهة ثانية ، تصور فيزيائي بريطاني مطلع مثل ج . د . برنال ، كل معالم تنظيم وتعميم العلوم الدقيقة في المجتمعات الحديثة ، ولقد كرّس لذلك ، منذ ربع قرن ، كتاباً كبير الفائدة ، الوظيفة الاجتماعية للعلم ، 1939

(The Social Function of science)

يتناول دور العلوم وأثرها في المجتمع الحديث .

وتبدو فائدة علم اجتماع المعرفة العلمية أكثر جلاء فيما لو أخذنا بالاعتبار العلوم الانسانية ، وبالأخص اثنين منها : التاريخ وعلم الاجتماع ، فهما ثنائيان حقيقيان خليقان بتتويج وتوجيه علوم الإنسان . ان علم الاجتماع والتاريخ ، بما هما أقل انحيازاً وأقل أدلجة من علوم الانسان الأخرى التي تمنهج أبحاثها في سبيل أهداف عملية ، لا يمكنهما مع ذلك أن يكونا متحررين من بعض المعاملات الأيديولوجية التي لا يمكن أن يعزلها الا علم اجتماع المعرفة . هنا تتدخل الأطر الاجتماعية بصفتين : أولاً بالترابط مع التنظيم المتزايد للبحوث ومع إنشاء نسبي دائماً للجهاز المدركي العملي ، وثانياً بالترابط مع المادة المدروسة بالذات . وبالتالي تكون المجتمعات ، الطبقات ، الجماعات ، النحن ، في حركة جدلية ، وتكون مسكونة بالدلالات الإنسانية . ولا يتحقق زعم المعرفة العلمية في البقاء « فوق العامة » في أي مكان آخر مثلما يتحقق في هذا المجال . وعليه ، اذا كان علم اجتماع المعرفة العلمية فصلاً هاماً في علم اجتماع المعرفة ، فان علم التاريخ وعلم الاجتماع

هما كذلك بصفة مضاعفة .

VII - المعرفة الفلسفية ، لإنهاء هذا التحليل الخاص بأنواع المعارف بوصفها وقائع اجتماعية متعلقة بعلم الاجتماع ، يبقى علينا النظر في المعرفة الفلسفية .

إنها معرفة من الدرجة الثانية ، تتلاقح على التوّم مع معارف أخرى (مثلما تتلاقح مع أفعال ذهنية غير معرفية) سابقة الاكتمال ، وتسعى لاستيعاب تجلياتها الجزئية في كليّات لا متناهية ، حتى تبرّرها . إن هذا النوع من المعرفة هو من حيث المبدأ متعال ، متباعد ، باطني ، ارسقراطي . وعلى الرغم من انتسابه الى جدل بين المعرفة المستخلصة والملتزمة ، فإن المعرفة الفردية تسود فيه على المعرفة الجماعية ، ومن هنا البرج العاجي الشهير للفلاسفة . لكن الوضع معقّد هنا أيضاً . فالفلسفة تتبلور في مذاهب حاسمة ؛ وتتشكل مدارس تذكرنا بالكنايس ، وهي في مأزق دائم . ومما يلاحظ ، فضلاً عن ذلك ، ان العلاقة بين المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية تبقى معقّدة ، فيما يتعدّى العصور حيث كانت هيمنة الأولى تبدو مؤكّدة وراسخة في كل مكان .

إن كل علم بحاجة إلى جهاز مدركي عملي متطهر ومتجدّد دائماً حسب مقتضيات البحث بالذات . ومن هذه الزاوية لا يمكن للعلم الاستغناء عن علم العلم (الأصولية) ، وبالتالي عن الفلسفة . وتحديداً نشأت في أوساط علوم الطبيعة وبالأخص في صميم العلوم الدقيقة والرياضيات والفيزياء وأخيراً في البيولوجيا ، نشأت في الربع الأخير من القرن أشد المناقشات والسجلات حيوية (النزاعات بين الحدسيين واتباع هيمنة البناء المدركي ، بين الجبريّين واللأجبريين ، بين التواصليين والتفاصليين ، والآليين والحيويين) ؛ وهذا كله لم ينل إطلاقاً من « نضج » هذه العلوم .

بالواقع ، للفلسفة والعلم عتبة طرائقية مشتركة : التطهير الأولي الذي يستلزم إزالة كل اطار عملي موميائي . والغاء كل مفهوم جامد وحتى كل تجربة متوقفة . إن التجربة المرة للتجريبية الجدلية المفرطة ، تحرر العلم والفلسفة من كل مفهوم مسبق . وفي الوقت نفسه ، تقيم هذه الجدلية بين المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية علاقات متكاملة تارة ، وقطبية تارة ، علاقات ملتبسة تارة ومتداخلة تارة أخرى أو ذات آفاق متبادلة ، ان كل شيء يتوقف على المسألة المطروحة في اللحظة الخاصة من حركة العلم في علاقاته بالمعرفة الفلسفية .

هاكم الأمر الذي يشعنا مدى صعوبة سوسيولوجيا المعرفة الفلسفية بالمقارنة مع سوسيولوجيا العلم . وهذا الأمر صحيح على قدر ما ينبغي لتبلور العقائد والمدارس الفلسفية ، التي تنبثق أحياناً في مئات بل في ألوف السنين الفاصلة بينها وبين أنماطها الاجتماعية المختلفة عنها تماماً ، ان تدعو الى الحكمة والتعقل . إن إعادة تفسير هذه العقائد وتبديل معناها يمكن تصوورها بكل وضوح من خلال أفق سوسيولوجي . وهذا دليل على عدم نضج علم اجتماع المعرفة أكثر مما هو دليل على الصعوبة التي تعترضها بمواجهة تاريخ الفلسفة ؛ وهذا ما لفت انتباه الكتاب الماركسيين بوجه خاص ، بينما علم اجتماع الأنواع المعرفية الأخرى لم يلفت الأنظار حتى الآن إلا قليلاً .

ان تحليل تغيرات هرمية الأنواع المعرفية وفقاً لأنماط المجتمعات يقودنا الى الخلاصة التالية : لم تحتل المعرفة الفلسفية المكانة الأولى إلا في الخاضرة القديمة من جهة ، وفي مجتمعات بداية الرأسمالية من جهة ثانية ، حيث كانت في أساس عصر الأنوار . وفي عصرنا نراها مستبدلة بالمعرفة التقنية والمعرفة السياسية .

قبل التوصل الى مجابهة مباشرة للأنواع المعرفية والاطارات الاجتماعية ، يبقى علينا الشروع بتحليل أخير ، أكثر تجريداً ، والرد على انتقاد .

سبق لنا في مقدمتنا الإشارة الى أننا نستطيع أن نلاحظ داخل الأنواع المعرفية جملة تدقيقات وتنوعات في أشكال المعرفة ؛ وهذه تبدل أيضاً وبما للاتارات الاجتماعية ويمكنها أن تفيد عند اللزوم في تمييز المنظومات المتغيرة لأنواع المعارف ، كما يمكنها أن تفيد في تمييز كل من هذه الأنواع في علاقاته مع الأطر الاجتماعية .

اليكم الأزواج الخمسة للأشكال المعرفية التي نجدها بتدقيقات مختلفة داخل كل نوع من المعرفة :

- 1 . المعرفة الصوفية والمعرفة العقلية .
- 2 . المعرفة التجريبية والمعرفة المدركة .
- 3 . المعرفة الوضعية والمعرفة النظرية .
- 4 . المعرفة الرمزية والمعرفة المناسبة .
- 5 . المعرفة الجماعية والمعرفة الفردية .

وبما أن كل معرفة اقتران جدلي للتجارب والأحكام ، وبما أن هذا الاقتران ذاته يمكنه أن يرتدي سمات مختلفة (تنتسب تارة الى التكامل ، وتارة الى الالتباس ، تارة الى الاستقطاب وتارة الى التضمين المتبادل) فإن أشكال المعرفة لا تتأكد إلا استثنائياً في نقاوة نسبيته ؛ والمُراد بالأحرى هي نزعات أو تلوينات . ولكن لمجانبة كل سوء فهم ، فنلشرحُ كلاً من الأزواج المذكورة .

I - المعرفة الصوفية والمعرفة العقلية . - ان العنصر الصوفي أي ما فوق الطبيعي يمكنه الإنطلاق من الحكم ومن التجربة على السواء ، لكن التجربة هي التي تعاني أثره في أغلب الأحيان . وفي المجتمعات البدائية - حيث « العقلية البدائية » حسب عبارة ليفي - بريل Lévy-Bruhl - تترك العنصر العاطفي يسيطر على ما فوق الطبيعي - تنتصر المعرفة الصوفية ، المنطلقة من التجربة والحكم ، على كل الأشكال الأخرى . ويتناقص طابعها الصوفي بقدر ما تتشكل في أساطير إلهية - كونية اعتقادية ، ويتناقص أيضاً في المعرفة

السحرية : وغالباً ما يتعارض العنصر العقلي ، الرغبة في الهيمنة على الطبيعة والآخرين مع الصوفية أو أنه يقترب منها .

في كل المجتمعات الأخرى يتوقف الشكل الصوفي أو العقلي للمعرفة على أنواع المعارف مثلما يتوقف على الأطر الاجتماعية والظروف . ودون الكلام على علم اللاهوت ، حيث تندمج الصوفية والعقلانية باستمرار ، فإن المعرفة الفلسفية والمعرفة السياسي تستطيعان أن تنزعا بوعي نحو هذا الاتجاه أو ذاك . وفي المقابل ، فإن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر والنحن ، المعرفة التقنية ومعرفة الحس السليم ، في طريقها لتوحيد الصوفية والعقلانية ، انما تعاني من أثر المجتمع الذي تتطور فيه . ربما نستطيع أن نضع جانباً المعرفة العلمية ، بعيداً عن كل الأنواع الأخرى ، فهي بلا جدال المعرفة الأشد تعارضاً مع كل توجه صوفي . ومن البين تماماً أن هذه حالة استثنائية . كذلك لا بد من تسجيل بعض الاستثناءات : أليست صوفية الأعداد الفيثاغورية أحد مصادر الرياضيات ؟ وعلم الفلك أليس مهذا لعلم الكون ، والسيما مهذا للكيمياء ؟

II - المعرفة التجريبية والمعرفة المدركة . - ان هذا الزوج الجديد الذي لا يشمل بكل جلاء على الزوج الأول ، هو أكثر نسبة منه . وبالتالي ، فإن كل معرفة تفترض تجربة وصياغة للمفاهيم والمدارك ، وليس المقصود هنا إلا الدرجات . إن الأنواع المعرفية التي تنزع الى أرفع صياغة للمفاهيم هي المعرفة الفلسفية ، المعرفة العلمية ، والمعرفة التقنية في مستوى رفيع . بالمقابل ، تميل المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي الى التجريبية . ان معرفة الآخر والنحن ، المعرفة السياسية ومعرفة الحس السليم ، المتغايرة بشكل خاص في هذا الشأن ، هي أهم المعارف الواجب درسها من وجهة الاطارات الاجتماعية .

إلا أن الصراع في صميم المعرفة العلمية ذاتها بين المدركي والتجريبي لا يتطور وفقاً للمراحل التي تقطعها شتى العلوم وحسب ، بل وفقاً للأطر

الاجتماعية التي توضع فيها أيضاً . ومثال ذلك ان علماً تعلم الا . ما يشجع الشكل التجريبي أو الشكل المدركي اللذين يجب أن يتعادلا مبدئياً ، وفقاً للصراع الضروري لازدهاره ، وكذلك وفقاً للمجتمع الذي يكون فيه : في الولايات المتحدة (المبالغة في الشكل التجريبي) والاتحاد السوفياتي (الإفراط في الشكل المدركي) أو في فرنسا (محاولة للموازنة بين الشكلين) .

III - المعرفة الوضعية والمعرفة النظرية - يعتبر من الخطأ البالغ الخلط بين المعرفة الوضعية والمعرفة التجريبية ، وبين المعرفة النظرية والمعرفة المدركية . وبالتالي ، يمكن للمعرفة التجريبية ، في ظروف مؤقتة ، ان تصبح نظرية ، ويمكن كذلك للمعرفة المدركية أن تبدو وضعية . فكان لا بد من الفلسفة الوضعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لأجل الادعاء بأن المعرفة العلمية ، المدعوة للحلول محل كل نوع معرفي آخر ، لا يمكنها الا أن تكون وضعية . والحال ، فإن معرفة الحس السليم من جهة ، والمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي من جهة ثانية هما اللتان تتزعان نحو الوضعية ، بمعنى الإخلاص للتقاليد ، للقوالب أو للممارسة .

لنتفاهم : اذا كنا نعني بالوضعية رفض المغامرة بفرضيات جديدة ، والتوجه خارج سبل معروفة ، فإننا سنقول عندئذ إن المعرفة الحكيمة والتطابقية هي معرفة وضعية . وفي هذه الحالة ، قد تتحدد المعرفة النظرية ، خلافاً لذلك ، باستعدادها للقيام بمبادرات جديدة ، وللتقدم في اتجاهات مجهولة . فلندقق في تاريخ العلوم : لقد تمت كل الاكتشافات العلمية العظمى بفضل تنظيرات مخوفة بالخطر ، ومتحققة من ثم . ان ما يشجع الشكل التنظيري للمعرفة أكثر مما يشجع شكلها الوضعي ، ليس المعرفة الفلسفية وحسب ، بل المعرفة التقنية من جهة ، والمعرفة العلمية من جهة ثانية .

والحال ليس كذلك بالنسبة لأنواع المعرفية الأخرى (معرفة الآخر والنحن ، المعرفة السياسية ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، الخ .) : وتستلزم تغيراتها ، من حيث الشكل الوضعي أو التنظيري ، دراسة خاصة .

IV - المعرفة الرمزية والمعرفة المتناسبة . - إن هذا الزوج الجديد من أشكال المعرفة هو ذو نسبية خاصة ، لأنه لا شيء لا يدلُّ على أننا نستطيع بلوغ معرفة مناسبة إطلافاً . وفيما يتعلّق بشكل المعرفة هذا ، لا يمكن أن يكون المقصود إذن سوى مسألة درجات . مع ذلك لا يجوز الخلط بين الإشارات والرموز ، وفتح المجال الرمزي بدون حدود . فالإشارات هي عبارات تحل محل دلالة وتقوم بدور الوسيط بين هذه الدلالة والفعلّة الفرديين أو الجماعيين المدعوّين لمعرفتها . مثال ذلك أن سهماً يشير إلى الاتجاه الواجب اتخاذه لبلوغ هذه المحلّة أو تلك ، هو إشارة دلالتها هي التالية : هاكم الطريق الأقصر للوصول الى المكان المنشود . إلا أن مسألة تطرح ذاتها : هل يوجد نوعٌ خصوصي للمعرفة أو حتى منظومة أنواع معرفية تستطيع الإكفاء بالإشارات ؟ هذا الأمر يبدو لنا موضع شك كبير ، مهما تضاعف خلطنا بين الإشارات والرموز .

فالرموز (كما حدّدناها في كتاباتنا السابقة)⁽²⁵⁾ هي إشارات ، نعني بدائل تذكر بغيايات ، لا تفصح عنها الا افصاحاً جزئياً وتستخدم كوسائط بين المضامين الواقعية أو اللاواقعية المتخفية للوعي الجماعي والفردي على السواء ، التي تصوغها والتي تخاطبها . ويكمن هذا التوسط في الدفع الى اشتراك متبادل بين الفعلّة في المضامين المذكورة ، وبين هذه المضامين والفعلّة .

وتكمن إحدى السمات الأساسية للرموز في أنها تكشف وهي تغطّي . وأنها تغطّي وهي تكشف ، وحتى أنها تكمن في الدفع الى المشاركة ، مع الحؤول دون ذلك ، أو حتى بكبح المشاركة وبتشجيعها مع ذلك . . .

La Vocation actuelle de la sociologie, vol. I, 3^e éd. 1963, PP. 89- 98, et déterminismes sociaux et liberté humaine, 2^e éd., 1963, PP. 143- 151. (25)

إن كل الحياة الاجتماعية ملأى بالرموز من مختلف الأنواع ، وليس لما أن المعرفة كظاهرة اجتماعية هي التي تعنينا هنا ، فسوف نشدد أكثر على الرموز ذات السيطرة الفكرية : انها الرموز التي تكمن في التمثيلات ، المقاييس ، مدارك الأزمنة والأمكنة المختلفة في المقولات المنطقية ؛ المقادير الرياضية التي تذكر فكرة اللامتناهي (حساب اللامتناهي) ؛ الرموز المستخدمة كأساس للجهاز المدركي في شتى العلوم .

ونتكلم بوجه خاص على المعرفة الرمزية عندما تنزع الرموز الى استشارة المدارك أو الأفكار التصميمية للمضامين المدعوة للإفصاح عنها . في المقابل ، يمكننا أن نطلق صفة التناسب على المعرفة التي تهيمن مضامينها صراحة على الرموز . وعليه ، فإن المعرفة السياسية ، معرفة الآخر والنحن ، ومعرفة الحس السليم ذات نزعة ملحوظة الى الشكل الرمزي ، ويكون ذلك أكثر تشدداً في هذه الأنواع المعرفية كلما تدخل التلوين العاطفي للرموز بقوة أكبر ، وحداً كثيراً من تلوينها العقلي . ان المعرفة التقنية تنزع بالأحرى الى المعرفة المناسبة ، الا في المجتمعات البدائية حيث ترتبط التقنيات بالسحر . أخيراً ، تتأرجح المعرفة الادراكية للعالم الخارجي ، المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية ، حسب اتجاهاتها ، حسب الظروف الاجتماعية وأنماط المجتمعات ، بين قطبي الزوج الذي حللناه الأمر الذي يقودنا مجدداً الى هذا الاعتبار العام : لا بد لتدقيق أشكال المعرفة من أن يدرس دائماً من خلال أنواع المعرفة ومنظوماتها . وهكذا نجدنا مدفوعين الى البحث الأولي عن العلاقات الوظيفية بين الأطارات الاجتماعية والأنواع المعرفية .

هكذا صرنا حذرين مسبقاً من كل غواية للارتباطات، الوظيفية المباشرة جداً بين أنماط المجاميع الاجتماعية وأشكال المعرفة . فاذا حللنا ، مثلاً ، إطارات اجتماعية غنية مثل الطبقات الاجتماعية - طبقة الفلاحين .

البروجوازية ، البروليتارية ، أو التكنوقراط - سنلاحظ أن كلاً منها هو بؤرة لتقلبات عدة من حيث تدقيق أشكال المعرفة : معرفة صوفية أو عقلانية ، تجريبية أو مدركية ، وضعية أو نظيرية ، رمزية أو متناسبة ، جماعية أو فردية أخيراً ، تظهر فيها أو ظهرت فيها وفقاً للبنى وللظروف الشمولية المتنوعة ، ووفقاً للأنواع المعرفية السائدة التي سادت فيها .

اذن نستطيع إطلاق هذه القاعدة العامة الصحيحة أيضاً لكل مستويات الأطر الاجتماعية التي سنجابه المعرفة بها (اطارات ميكرواجتماعية ، جماعية ، طبقات اجتماعية ، وأخيراً مجتمعات شمولية) : إن اشكال المعرفة لا تفيدُ إلا في إبراز تقلبات الأنواع المعرفية والمنظومات المعرفية ؛ انها تشكل نقاط الاستدلال الضرورية لدراسة الترابطات الوظيفية بين المعرفة والواقع الاجتماعي ، لكن مجابهتها المباشرة بالأطر الاجتماعية غالباً ما يقودُ الى استنتاجات ضالّة .

صرنا الآن قادرين على إبراز التقسيمات الكبرى في هذا الكتاب .
ففي قسمه الأول سنتناول بالدرس أنواع المعرفة وفقاً لتجليات القابلية الاجتماعية ؛ بكلام آخر سنحاول وضع ميكرووسولوجيا المعرفة .

وفي قسم ثانٍ ، سنعالج أنواع المعرفة ، واذا لزم الأمر ، سنعالج المنظومات المعرفية بالمقارنة مع بعض التجمعات الخاصة التي تبدولنا أقدرَ من سواها على الصلاح كاطارات للمعرفة . وإننا سوف نحصرُ اختيارنا بالجماعات المتميزة حسب طريقة بلوغها ووظائفها ، مكتفين ببعض الأمثلة .

وفي قسم ثالث ، سندرس الأنواع والمنظومات المعرفية بالمقارنة مع الطبقات الاجتماعية .

أخيراً ، في قسم رابع ، الأخير والأهم بنظرنا - لهذا سنخصص له أوسع تطوير - سنسعى لمواجهة المنظومات المعرفية وأنماط المجتمعات

الشمولية . واذا بدا لنا هذا القسم هو الأغنى فذلك لأنه سيساعدنا على التحقق من نجاح أو فشل الأقسام السابقة . وبالتالي فإن مجاهدة المعرفة بتجليات الأجماعية Sociabilité ، وبيعض التجمعات الخاصة ، وأخيراً بيعض الطبقات الاجتماعية ، لن تبلغ معناها التّام الا إذا يسّرت درس العلاقات بين منظومات المعرفة والبنى الاجتماعية الشمولية .

ملحق

تاريخية علم اجتماع المعرفة *

تضطلع المعرفة بدور خطير جدا بين الأعمال الحضارية التي تقوم عليها البنى الاجتماعية الكلية والجزئية ، ولهذا فمن الطبيعي تماما أن نشير مسألة سوسيولوجيا المعرفة وأن ندرس متغيرات دورها في مختلف انماط البنى الاجتماعية . وعليه ، فإن سوسيولوجيا المعرفة ، في احد مجالها ، قديمة قدم علم الاجتماع ذاته ، ولكنها اذا كانت قد صادفت بعض المصاعب الكبرى في تطورها ، واذا كانت تتسم ، الآن ، بحالة من التوقف - على الرغم من الفائدة الاكيدة التي ما تزال تثيرها - فمرد ذلك الى اصطدامها بالعقبتين التاليتين :

الأولى : عقبة الاصطدام بمزاعم علماء الاجتماع المفرطة ، الذين كانوا يأملون في التمكن من تأسيس فلسفة المعرفة على علم الاجتماع ، أو أنهم كانوا ، على الأقل ، يعتقدون في التمكن ، بواسطة سوسيولوجيا المعرفة ، من « تحرير » المعرفة من كل رابط يربطها بالأطر الاجتماعية ، وبالتالي يعتقدون في امكان « الغناء ارتهاها » . (Désaliéner) .

الثانية : عقبة الاصطدام بالابتسارات (Préjugés) الحادة للفلاسفة الذين كانوا ينكرون امكان المعارف والاختبارات الجماعية ، ويعتبرون أن كل توجيه للمعرفة في أفق سوسيولوجي يلغي صلاحها ويحولها الى مجرد « مظهر ثانوي للواقع » .

ان مصير سوسيولوجيا المعرفة مرتبط بازالة هذه المزاعم وهذه

(*) نص مأخوذ من جورج غورفيتش La Sociologie de la connaissance, T. II, Problèmes de la connaissance, P. 103

الابتسارات الضاربة جذورها بقوة . ولهذا فان خطة هذه الدراسة ستتضمن مطالعة تاريخية - انتقادية لأهم تصورات علم اجتماع المعرفة ، وهي بالطبع مطالعة اختيارية واعية . ومن ثم سوف نبحت مسائل المعرفة ، ونختم بعرض سريع لعلاقة علم اجتماع المعرفة بالايستومولوجيا (Epistémologie) (مبحث علم العلوم) ، الأصولية .

مطالعة تاريخية انتقادية

انكب جميع مؤسسي علم الاجتماع على درس سوسيولوجيا المعرفة من أوغست كومت الى خصميه برودون وماركس (المتخاصمين بدورهما) ، ورائدهما وملهمهما المشترك سان سيمون (المتنازع في كوندورسيه) (Condorcet) . كذلك انكب الجيل الثاني من علماء الاجتماع على درس المعرفة ولكن بشكل مختلف عن الجيل الأول .

ولقد مثل هذا الجيل الثاني في فرنسا أميل دوركهيم ، ولفي بريل . وهكذا مهدوا الميدان تمهيداً واسعاً أمام ماكس شلر (Max sheler) - ، وكارل مانهايم (Karl mannheim) وبيتريم سوروكين (Pitrim sorokin) ، الذين نشروا أعمالاً جذبت الأنظار في الربع الثاني من القرن العشرين ، ولفتت بشكل خاص الى أهمية سوسيولوجيا المعرفة . ومن حيث المبدأ ، كان يفترض بصياغة النظرية الحديثة للرموز الاجتماعية ، ونظرية العلاقات والأواصر بين البنى الاجتماعية والأعمال الحضارية ، ان تسهم في توسيع المجال أمام هذا النوع من الاستقصاءات وفي جعله أكثر بروزاً وتمائزاً .

1 - كوندورسيه (Condorcet)

لا بد للتاريخ النقدي لسوسيولوجيا المعرفة من التركيز على عرض وتحليل كتابات كوندورسيه ، لا سيما كتابه الشهير (L'esquisse d'un tableau historique du progrès de l'esprit) المنشور سنة 1795 ، والذي

يوجز فيه الاعتقادات التفاؤلية والفكرانية (intellectualiste) السائدة في عصر الأنوار .

هذا ، ويؤكد كوندروسة على وجود توافق تام بين الواقع الاجتماعي والنسق المعرفي . فبنظره أن مثل هذا التوافق يفرض نفسه دون أن يثير أية مشكلة . ذلك أن تقدم الفكر البشري (العقل) ، وتقدم المعرفة ، تقدم العلوم ، (وليست التقنية سوى تطبيق للعلوم) ، وأخيراً تقدم المجتمع البشري ، لا تمثل سوى حركة واحدة . فلا مجال اذن للارتياح بصحة كون المعرفة ظاهرة اجتماعية ، لأن الاطارات الاجتماعية تقوم بكليتها على العقل ، وبالتالي يتأهى العقل والمجتمع عند كوندروسة . وهذا لا يمنعه من جهة ثانية أن يعطي الأولوية لتقدم المعرفة على التقدم الاجتماعي . . .

2 - سان سيمون (Saint-simon)

أما سان سيمون ، ذلك المعارض الشهير لمثالية كوندروسة العقلانية (L'édéolisme rationaliste) فانه يرفض مثل هذه الأولوية المذكورة . ولكنه يؤكد من جهته على وجود « توافق ثابت في كل العصور ولدى جميع الشعوب ما بين المؤسسات الاجتماعية والأفكار » (الصناعة ، l'industrie ج 3 ، Vol III 1818) ، ويوضح أن « قدرة الانسان والمجتمع - متساوية في الروحانية وفي المادية » .

Voir: (le catéchisme des industriels, 1823- 1824) كما أن المجهود الجماعي المدروس في « علم الانسان » أو « الفيزيولوجيا الاجتماعية » (أي علم الاجتماع) يكمن في انتاج المقتنيات المادية بواسطة العمل على شاكلات شتى ، مثلما يكمن في انتاج طرائق المعرفة والاعتبار (أي المعتقدات الأخلاقية : راجع علم الانسان (la science de l'homme- 1813) . إن الأنظمة العسكرية (غزو ، استرقاق ، قنافة ، زراعة السخ) تقابلها بوجه خاص المعرفة اللاهوتية (connaissance théologique) ، كما أن الأنظمة

الصناعية تقابلها المعرفة التقنية (connaissance technique) ، ولا تعتبر المعرفة العلمية سوى عنصر ثانوي واتباعي بالنسبة اليها .

وينبغي على « الفيزيولوجيا الاجتماعية » وهي دراسة « المجتمع الفعلي » ، ان تتابع دراسة التقابل والتداخل بين طرق الانتاج المادي والأنماط المعرفية ليست الا جوانب جزئية من « الأنظمة » أو مما نسميه حالياً بـ « أنماط البنى الاجتماعية » .

3 - أوغست كومت (August Comte)

مقابل تحفظ سان سيمون وواقعيته ، يبدي أوغست كومت نزوعاً محدوداً الى اعطاء المعرفة سلطان تكوين الاطارات الاجتماعية ، وبذلك يرجع بشكل مثير ، الى كوندروسه وعلمويته (Scientificisme) أي الى اقتناعه بأن المعرفة العلمية أرفع ، بجوهرها ، وأرقى من أي نوع معرفي آخر .

وفي الآن ذاته يكشف تصور كومت وجهي فكره : فمن جهة ثمة هدف واحد لعلم اجتماع المعرفة هو تبرير الوضعية (Positivisme) . وهذا موقف فلسفي مسبق ، ومن جهة ثانية ، هناك تماثل بين اجتماع المعرفة وبين علم الاجتماع (كما يحدده كومت) ، وتوجه الى القول بقدرة اجتماع المعرفة على الحلول محل الأبيستومولوجيا . يضاف الى ذلك أن كومت يعلن بأن كل « ركون اجتماعي » وكل « نشاط اجتماعي » يتمايزان بظواهر معرفية خاصة يتضمنها النظام (النسق) أو التقدم ، وبالتالي يكونان على اتصال عميق مع الوجود الاجتماعي ، غير أن كومت لا يتردد في التأكيد بعد ذلك بأن المعرفة حينها تتحقق (الحالة الوضعية L'état positif) ، تنفصل عن الاطارات الاجتماعية وتوجهها .. وهكذا نجد عند كومت معظم المصاعب والأخطاء التي ضغطت بثقلها ، مجتمعة أو منفردة ، على التطور اللاحق لعلم اجتماع المعرفة ، وذلك لزمن طويل بعد التخلي عن السوسيولوجيا والفلسفة الوضعيتين ..

4 - أميل دوركهيم (Emile Durkheim)

بعد أوغست كومت جاء علماء الاجتماع بالمعنى الدقيق للكلمة ،
وظهروا في بعض جوانب أعمالهم وكأنهم من تلاميذه ، لا سيما أميل
دوركهيم ، ولوسيان لفي - بريل ، والذين ساروا على نهجها . (Granet ,
Mauss, Halbwachs,) غرانيه ، موس ، هالفاكس) .

ولا يرقى الشك الى أن أعمال هؤلاء في ميدان علم الاجتماع المعرفي
كانت أئنيع ثماراً من أعمال سابقهم المذكورين . . مثال ذلك أن دوركهيم لا
يعتقد ، خلافاً لكومت ولسواه ، بأن تجذر المعرفة في الواقع الاجتماعي يفسد أو
يحط من صلاح المعرفة . فهو يقلع عن البحث عن قانون عام للتطور المعرفي
الاجتماعي ، وعن اعتبار الفلسفة الوضعية مرتكزاً وقواماً لعلم الاجتماع
المعرفي . اذ المهم بنظر دوركهيم هو ان « أفكاراً بالغة التجريد شيمة أفكار
الزمان والمكان هي ، في كل لحظة من لحظات تاريخها ، على صلة حميمة بالبنية
الاجتماعية المقابلة لها » . . .

(Voir: Quelques données primitives de classification: Année
sociologique, 1901- 1902)

واكثر من ذلك : أن المقولات المنطقية « تكون اجتماعية بالدرجة
الثانية » . . فليس فقط المجتمع هو الذي انشأها ، بل هي جوانب شتى
للوجود الاجتماعي الذي يشكل مضمونها . .

ان وتيرة الحياة الاجتماعية هي التي تشكل أصل مقولة الزمان ، وان
المكان الذي يشغله المجتمع هو الذي أعطى مادة لمقولة المكان ، وأن القوة
الجماعية هي التي انشأت النموذج الأول لمدرک القوة الضعالة ، العنصر
الجوهري في مقولة السببية . . وليس مدرک الكل سوى الشكل المجرد لمدرک
المجتمع » . . .

(Voir: les formes élémentaires de la vie religieuse, 1912- P. 628-
630)

ان التمايز بين الملموس والمعقول ، المادة والصورة ، الما بعد والما قبل ، معطيات الحس ومعطيات العقل ، من شأنها أن تتقابل ، بنظر دوركهيم ، مع التمايز بين الفرد والجماعة . يضاف الى ذلك أنه يهتم بخاصة ، بأصل المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية ، ويرى أنها مشتقان من الدين ، وبالتالي من الجماعة ، لأن الدين جماعي سواء بمعاملاته وعباداته (Culte) أو بمضمونه (تمجيد المجتمع الذي يعبد نفسه كآله) .

من السهل علينا أن نبرز عدة مصاعب ملازمة للتصو الديوركهامي:
ونكتفي بالإشارة الى أبرزها : كان دوركهيم يأمل في أن يساعد علم الاجتماع (الأبيستومولوجيا) على تطوير « نظرية سوسيولوجية ل معرفة » (les formes élémentaires, P. 18- 28) دون أن يلاحظ أنه كان ينطلق من فلسفة معرفية نصف كانطية- نصف هيكلية ، يستعيرها من صديقه الفيلسوف هاملين (Hamelin) . لقد وقع دوركهيم في (روحانية مفرطة « Hyper- spiritualisme) حسب تعبيره بالذات ، موحداً حتى التماهي ما بين العقل والمجتمع - المجتمع الذي كان يجعل توتراته وتعارضاته الداخلية ، ولا سيما صراع الطبقات ، وبذلك ذهب الى اعتبار السمة الجماعية للمعرفة كتبرير فلسفي لصحتها وصدقها ، فلم يميز بين مختلف أنواع المعارف (فلم ير سوى المعرفة العلمية والمعرفية الفلسفية وربما رأى أيضاً المعرفة الادراكية للعالم الخارجي) ، ويركز كثيراً على الجزء التولدي من علم الاجتماع المعرفي . . ومع ذلك فان دوركهيم هو في التصميم نسبي في تصوره لعلم الاجتماع المعرفي أكثر مما يبدو للوهلة الأولى . فهو اذ يعترف بأن التعالي والتلازم في المعرفة الجماعية يتضمنان درجات عدة - انما يقول ضمناً أنه بحسب أنماط المجتمعات يكون الرابط بين العنصر المدركي والعنصر الملموس في المعرفة - لتغيرات كثيرة . وهو في المقابل يذكر أن الرابط بالذات بين أنماط البنى الاجتماعية والمعارف متقلب ، متحول ، لأن عنصراً ثالثاً ، هو العنصر البشري ، يمكنه التدخل وتغيير هذه العلاقات .

5 - لوسيان لفي - بريل (Lucien lévy- Bryhl)

على الطرف النقيض لدوركهائم ، قام لوسيان لفي - بريل لدراسة العقلية البدائية طيلة 26 عاماً ، من 1912 حتى 1938 ، وركز على منظومة المعرفة المتطابقة مع ما يسمى النمط الاجتماعي البدائي ، القديم . لم يبحث لفي - بريل في هذه المنظومة عن أصل المعرفة الفلسفية ، ولا عن مبدأ المعرفة العلمية في المجتمعات المتحضرة . فقد سعى الى أن يبين في أعماله الكبرى أن « المعرفة الادراكية للعالم الخارجي » وكذلك « معرفة الأنا والآخر والنحن » عند البدائيين تختلف جوهرياً عن معارفنا . واستند لفي - بريل الى واقعة أن البدائيين كانوا يعيشون في عالم طبيعي وفي عالم اجتماعي لا تجوز مقارنته مع عوالم المتحضرين . وبرهن لفي - بريل على أن قوانين المنطق الشكلي التي نعترف بها نحن ، انما يقابلها في المجتمعات البدائية ، « قانون المشاركة الصوفية » المرتكز على مقولة ما فوق الطبيعة العاطفية ، وان استيعاء الزمان والمكان ومقولة السببية (العلية) ، ومدارك الأنا ، العالم الخارجي ، المجتمع ، وأخيراً مقومات الاختبارات المباشرة بالذات ، انما كانت مختلفة جوهرياً بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الحديثة . وبعد تردد ، اضطر لفي - بريل للاستنتاج بأن هناك مفارقات منطقية تتطابق مع مختلف الانماط الاجتماعية .

لقد امتازت أعمال لفي - بريل الأولى بهذا التوجه الحسي ، الاختباري ، في مجال علم اجتماع المعرفة ، بعيداً عن الأفكار المسبقة أو الخلفيات الأبيستمولوجية ، وتواصل هذا التوجه في أعماله اللاحقة بعمق ملحوظ . ففي كتابه « الوظائف العقلية للمجتمعات الدنيا » يتحدث عما يسميه « ما قبل المنطق » (La prélogique) ، ولكنه يستبدله بـ المنطق في كتابه « العقلية البدائية » الصادر عام 1922 ، الا أنه منطق يتعارض مع منطق آخر . بيد أن لفي - بريل بقي مقتنعاً بصلاحية التجربة التي أجرتها العلوم العقلية فقط ، وان هذه التجربة تهيمن على حياتنا اليومية تماماً . ولهذا يصف

عقلية ومنطق البدائيين بأنها مغلقان أمام تجربتنا واختبارنا الحديث .

وحاول لفي - بريل (1928) انطلاقاً من كتابه (الروح البدائية) اظهار المفارقة ما بين تجربة البدائيين القدامى وتجربة المتحضرين ، وهو يعني بالتجربة - إما التجربة المبنية علمياً - وإما التجربة المباشرة نسبياً

فيلاحظ أن ضوابط ومعايير التجربة المبنية ، شيمة مقومات التجربة المباشرة ، تختلف من غمط اجتماعي الى غمط آخر . يضاف الى ذلك أن لفي - بريل حين اكتشاف تبدل الشخص البشري وفقاً لاختلاف البنى الاجتماعية ، بين أن تجربة الأنا ، الغير ، النحن ، المجتمع ، ليست هي ذاتها في المجتمعين البدائي والمتحضر ، نظراً لتعارض نمطي البنى المدروسة . مثال ذلك أن شخصية البدائيين هي أقوى بكثير من شخصيتنا وذلك بسبب الانتفاءات الصوفية (الاتحادية) ، ولكنها أقل تميزاً وتدقيقاً من شخصيتنا . كذلك فإن الغير يشمل الحيوانات والنحن ، الأموات ، والأحياء . وفي أعماله المتوالية :

- ما فوق الطبيعي والطبيعة (1931)

- الأسطورية البدائية (1935)

- الاختبار الصوفي والرموز عند البدائيين (1938) .

يبين لفي - بريل من جهة أن اختبار البدائيين يتقبل درجات متفاوتة من الصوفية والعقلانية ، مما يسمح بملاحظة السمة المميزة لمنطقهم ، ويشدد من جهة ثانية على الغنى المميز لتجربتهم المباشرة بالمقارنة مع تجربتنا التي تعاني من اكراه عمليات التصور والادراك العقلانية .

ويخلص لفي - بريل الى التأكيد على أن التجربة البدائية المباشرة أن هي الا ادراك شعوري مباشر للوجود ، اذ أن المشاركة لم تكن قانوناً بل كانت طريقة سلوك ، طريقة فعل وانفعال بالوجود . وأما الرموز بنظره ، فهي أدوات نقل / أو ناقلات وحاملات المشاركة . وإذا كانت أعمال لفي بريل قد

توقفت عند العام 1938 ، فان دفاثره اللاحقة المنشورة عام 1949 ، ترشدنا الى تمييزه بين عدة أنواع من المشاركة :

- أ (المشاركة الصوفية
- ب (ثنائية الحضور - أو كثارية الحضور
- ج (الرموز
- د (اشتراك الفرد في جماعته وبالعكس
- هـ (مشاركة بين الجماعة وطوطمها
- و (مشاركة بين الجماعة وأجدادها
- ز (مشاركة بين الجماعة والأرض الخ .

من الواضح أن أنواع المشاركات هذه ليست كلها من ذات الدرجة الصوفية ، الأمر الذي يؤكد صحة الملاحظة بأن التجربة البدائية تمتاز بالتنوع وبالتبدل في مستوى التوتر ازاء مقولة الشعور بما فوق الطبيعة . والحقيقة أن أعمال لفي - بريل الغنية والمتنوعة ، لم يستخرج منها صاحبها الخلاصة الوافية ، وانما مهدت السبيل لمثل هذه الخلاصة القائلة بوجود أكثر من عقليتين جماعيتين ، وأكثر من منطقتين ، وأكثر من تجربتين مباشرتين أو علميتين . فهناك عقليات وتجارب بقدر ما يوجد أنماط للبنى الاجتماعية الكلية أو حتى للبنى الجزئية .

وفضلاً عن الأهمية السالفة لأعمال لفي - بريل في مجال علم اجتماع المعرفة ، هناك أهمية مميزة قوامها اظهار عدة أنواع من المعرفة في نفس النطاق الاجتماعي :

- المعرفة الحسية للعالم (الادراك الحسي)
- معرفة الغير
- معرفة النحن
- المعرفة التقنية
- المعرفة الأسطورية والكوسموجونية (الكونية) .

كما يبرز لفي - بريل تنوع ودقائق الأشكال في داخل النوع الواحد من المعرفة (الأكثر عقلانية أو الأكثر صوفية) . وبالنهاية يصل الى استنتاج استقلالية علم اجتماع المعرفة عن كل موقف فلسفي سابق . وهكذا رفض أن تستخلص من أعماله السوسيولوجية المعرفة خلاصات فلسفية ، واعترف بكثارية المنطقيات البشرية ، والاختبارات والأنواع المعرفية .

6 - ماركس واجتماع المعرفة

يمتاز علم الاجتماعي المعرفي عند ماركس والماركسية باختلافه الجذري المباشر والمداور ، مع علم الاجتماع الذي أنشأه أوغست كومت وسار في خطاه علماء الاجتماع البورجوازيون . وجوهر هذا الاختلاف يكمن في أن ماركس يربط المسائل المعرفية المطروحة بمسائل الوعي الطبقي والأيدولوجيات الطبقة المتنوعة . ويصحّ بمعنى من المعاني القول أن علم الاجتماع المعرفي الماركسي هو درس احدى ظواهر « ارتهان الانسان⁽²⁷⁾ l'aliénation de l'homme » ارتهان معرفته وعلمه الذي يفترض أن ينتهي أو يلغى في المجتمع اللاتبقي .

ان كارل ماركس يحدد في كتابه « مدخل النقد الاقتصاد السياسي » أن الوجود الاجتماعي هو الذي يقرر الوعي « و » البنية التحتية الاقتصادية « ، والبنية الفوقية الأيدولوجية « حيق تنضوي كل معرفة ويمكننا أن نقف عند أطروحة فريدريك انغلز في (l'anti-Duhring) التي تقول :
« ليس العقل ذاته سوى أيدولوجية البورجوازية المنتصرة » .

وعندها سنكون أمام اغراء يجعلنا لا نرى في علم الاجتماع الماركسي للمعرفة سوى محصلة للايستمولوجيا المادية التي تفترض أن المعرفة ليست أكثر من انعكاس الوجود ، ظاهرة ثانوية .

(27) دلالات الارتهان عند ماركس (1) الاستقلال عن الاجتماعي (2) التوضع (3) (التغير مكانا Transposition) (4) التشيؤ انعكاس الانسان وضياعه (5) التحقق الذي يلبس غالباً مع التضييل . والمعنى الأخير هو الذي يعطيه ماركس للارتهان المعرفي .

لكن هذا الطرح من شأنه أن يلغي استقلالية علم الاجتماع المعرفي الماركسي بالنسبة الى الأبيستمولوجيا أمانا مفهوم « البنية التحتية الاقتصادية » الذي يتضمن جدلا مركباً ما بين « القوى المنتجة » و « علاقات الانتاج » ، والحقيقة أنه يمكن أن تدخل في « القوى المنتجة » المعارف التقنية والمعارف العلمية بوصفها عناصر مكونة ، مؤسسة . وان هذه المعارف لتخرج عن نطاق الأيديولوجيا ، وذلك بقدر اقترانها وارتباطها بالعلوم الدقيقة (Sciences exactes) وبالاقتصاد السياسي العلمي ، وفي نهاية المطاف ليس « العقل » هو الذي يمكن تصوره كأيديولوجيا وإنما يصحّ مثل هذا التصور بشأن العقلانية الطوباوية (Le rationalisme utopique) والعلموية (Le scientisme) المرتبطتين ، بدورهما ، بالعقيدة الوضعية (La Doctrine positiviste) . وفي هذه الظروف يبدو مبرراً تساؤلنا عن حدود الأيديولوجيا وعن علاقاتها الصحيحة بالمعرفة . في بواكيره وكتابات شبابه ، يربط ماركس بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية من جهة ، وبين الأيديولوجيا والوعي الواقعي « أعماله » (كالمعرفة ، الحقوق ، الاخلاق ، الفن ، الدين ، الفلسفة) من جهة ثانية . اذن ، يعترف ماركس بوجود معرفة غير ايديولوجية . الأيديولوجيا ، التي يلتبس معناها الشائع مع التضييل الواعي أو اللاواعي (كالدين مثلاً) ، مع التحريف المغرض ، العقيدة المتحجرة القائمة على التبرير ، إنما تتعارض بذلك كله مع المعرفة الصحيحة ، الحقيقية . وبعد ذلك صار معنى الأيديولوجيا أكثر اتساعاً ، عند ماركس ، وذلك بقدر ما قدمت الماركسية نفسها وتأكدت بوصفها ايديولوجيا البروليتارية ، هذه الطبقة المدعوة الى انهاء كل انقسام طبقي ، وبالتالي كل انقسام أيديولوجي في المجتمع ، وكل أيديولوجيا . فالماركسية تعتبر في آن : أيديولوجيا ومعرفة واقعية يقينية . نشأ عن ذلك كله تعدد في دلالة كلمة « ايديولوجيا » :

- 1 (الأوهام الواعية واللاواعية
- 2 (تفسير الأوضاع الاجتماعية من وجهة تقويمية، وبشكل أعم باتخاذ مواقف منها.

- 3 (عقائد موضوعة لتبرير انتقادات الاجتماعية أو الأوهام السابقة الذكر (2,1).
- 4 (تطابق الأيديولوجيا مع كل عمل حضاري ، وذلك عندما يكون هذا العمل من نتاج طبقة ويكون مساعداً لها على تبرير ذاتها .
- 5 (الخلط بين الأيديولوجيا وبين العلوم الاجتماعية ، والعلوم الانسانية بشكل أعم ، ما عدا الاقتصاد السياسي الماركسي .
- 6 (المعرفة الفلسفية بسبب النقص في التحقيق المباشر .
- 7 (الدين بسبب بطلانه وزيفه .

ان هذه السلسلة من المعاني المتقلبة للأيديولوجيا جعلت من دراسة الأيديولوجيا - المبررة بحد ذاتها عقبة بدل أن تكون قاعدة متينة لتطوير علم الاجتماع المعرفي الماركسي . وما لم نحصر معنى الأيديولوجيا بنسوع خاص معرفي ، نقترح تسميتها « المعرفة السياسية » - التي تتبلور غالباً ، ولكن ليس الزاماً ، في عقائد وفلسفات اجتماعية وسياسية - ، فان علم الاجتماع المعرفي لن يكون بمستطاعه الافادة من مفهوم غني جداً كمفهوم الأيديولوجيا . واذا كان بمستطاعنا امتداح ماركس على اكتشافه نوعاً خاصاً من المعرفة اكثر تجذراً وتعمقاً ، من الأنواع المعرفية الأخرى ، في الواقع الاجتماعي ، فمما يؤسف له هو أن ماركس لم يضعها في مواجهة الأنواع الأخرى . . .

ما خلا المعرفة التقنية والمعرفة العلمية اللتين قارب ماركس بينهما كثيراً . بالرغم من عدائه الصريح للوضعية (Positivisme) .

وليس يمكننا هنا ، سوى الاشارة السريعة الى المصاعب المتنوعة التي تواجه علم الاجتماع المعرفي الماركسي : (1) مسألة زوال المشكل المعرفي في حال قيام المجتمع اللاطقي . (2) غياب دراسة العلاقة بين الأطر الاجتماعية (Cadres sociaux) والمعرفة في انماط المجتمعات الأخرى غير الصناعية ، على الرغم من الاختلاف في تصور وجود الطبقات في هذه المجتمعات . (3) الترابط الاكراهي ما بين علم الاجتماع المعرفي والواقعية الانسانية أولاً ، ثم

المادية الجدلية ، وكل ما ذكرناه يجعل علم الاجتماع المعرفي نوعاً من التأكيد على ما هو معروف مسبقاً . والحقيقة أنه لا يمكن فرض أي موقف فلسفي على علم الاجتماع : فالجدلية غير الدوغمائية ما هي الا تقنية أولية للفلسفة وللعلوم على السواء . ومن جهة ثانية أن معنى كلمة مادية يتوقف على تفسيرات المادة في الفيزياء والكيمياء (المقصود الآن هو الفيزياء الكوانتية وتفكيك المادة بواسطة الطاقة الذرية) . وختاماً ، فإن علم الاجتماع المعرفي الماركسي يولي ثقة ساذجة لازالة الارتهان المعرفي في المجتمع اللاتبقي ، أي لزوال المعامل الاجتماعي للمعرفة . (Caefficient social de la connaissance) فهل هذا يعيدنا ، مرة أخرى ، الى الطوبى العقلانية ، طوبى سيطرة المعرفة على الواقع الاجتماعي الذي تفقده؟ . .

يعتبر جورج غورفيتش أن علم الاجتماع المعرفي لدى ماكس شلر (Max Cheler) وسوروكين (Sorokin) ومانهايم (Mannheim) ، هي ردود فعل مختلفة تجاه مصاعب علم الاجتماع المعرفي الماركسي . فماذا يقدم هؤلاء من تجاوز للمصاعب التي يفترضها غورفيتش ؟

7 - شلر - سوروكين - مانهايم - زنانيسكي

ألف : ماكس شلر : تبدو مساهمته أصيلة وغنية ، بالرغم من كونه فيلسوفاً أكثر مما هو عالم اجتماع ، لأن شاغله الأكبر والأول هو البرهان على (أن تنوع آفاق المعرفة ، بسبب اختلاف الاطارات الاجتماعية ، لا يعرض للخطر أسبقية القيم الشعورية والأفكار ، ولا نظام الحقائق الثابت ، فبدا شلر بذلك وكأنه يدمج الظواهرية (الفينومينولوجيا) مع عقيدة القديس أوغسطين) . وموقف شلر يؤدي ، في النهاية ، الى القول بضرورة تعاون كافة الاطارات الاجتماعية وكل الأفراد بغية الوصول الى اكتناه اجمالي .

وهكذا ، توصل ماكس شلر الى تحقيق كشفين رئيسيين في علم الاجتماع المعرفي :

الأول : هو كثرة الانواع المعرفية التي تتغير خصوصياتها وفقاً لوظيفة الواقع الاجتماعي

الثاني : هو التوتر المتباين في الترابط بين هذه الأنواع المعرفية وبين الاطارات الاجتماعية .

هاتان هما الفرضيتان اللتان ينبغي أن يقف عندهما علم الاجتماع المعرفي بوصفه فرعاً من علم الاجتماع العلمي .

وعليه يمكن تحديد المعرفة (النازعة بوجه خاص لأن تكون معرفة جماعية) ، عند ماكس شلر ، على أنها : مساهمة واقع في واقع آخر ، دون أن يطرأ أي تغير في هذا الواقع الأخير » .

وخلافاً لذلك ، تعاني الذات العارفة المتغيرات الناجمة من جراء المعرفة . وفي هذا السياق يمكننا أن نلاحظ ثلاث سلاسل من الأنواع المعرفية :

السلسلة الأولى : المعرفة المهيمنة والفاعلة

هي التي تسمح للذات باحداث متغيرات في البيئة ، لا سيما البيئة الطبيعية ، والتي تتجسد في معرفة العالم الخارجي ، وفي المعرفة التقنية وفي تساميتها الى معرفة علمية .

السلسلة الثانية : المعرفة الثقافية

هي التي يمكن بواسطتها أن تحدث متغيرات في الأشخاص الجمعيين والأفراد ، والتي تتجسد في معرفة الغير وفي المعرفة الفلسفية .

السلسلة الثالثة : المعرفة المحررة

هي التي تقود الى السعادة (الخلاص) أو الى الحكمة ، والتي تتجسد في المعرفة الالهية (La Connaissance théologique) .

والحال ، نجد عند ماكس شلر ستة أنواع معرفية ، تتراتب وفقاً

لجوهرها ولمواقعها ، على النحو التالي :

- 1 - المعرفة الالهية
- 2 - المعرفة الفلسفية
- 3 - المعرفة الغيرية (الفردية والجماعية)
- 4 - معرفة العالم الخارجي الحي والجامد
- 5 - المعرفة التقنية
- 6 - المعرفة العملية

باء - بيترين سوروكين (Pitrem sorokein) .

هو واضع عمل سوسيولوجي خطير يقع في أربعة أجزاء صدر في نيويورك ما بين 1937 و 1941 بعنوان « الفعاليات الاجتماعية والثقافية (Social and cultural dynames) » .

وفي هذا المؤلف يحاول سوروكين تطوير سوسيولوجيا معرفية قوامها نظرية الحركات الدورية . فقد عرض نظريته في الجزء الثاني من مؤلفه المخصص لدراسة «متغيرات منظومات الحقيقة» وفقا لتغاير انماط الذهنيات الثقافية المكونة للواقع الاجتماعي . ولقد استند في مبحثه الى تراكم كبير من المعلومات المستخلصة من تاريخ الفلسفة والعلوم ، والمدعومة باحصائيات شتى ذات صلة بشيوع العقائد وانتشارها ، واستخلص منها إنه بعد مراحل المنظومات الفكرية (Idéate) (الالهية- الحدسية)، تأتي مراحل المنظومات المثالية Idéalistic (العقلانية) التي تصب بدورها في مراحل المنظومات العينية (الحسية او الملموسة)، وهذه الحركة تتكرر بدون انتهاء .

ان ابرز المصاعب التي تواجه نظرية سوروكين هي التالية :

(1) انه يمحصر علم الاجتماع المعرفي في دراسة المعرفة الفلسفية فلا يرى في المعرفتين العلمية والتقنية سوى تطبيق لها .

(2) ان تمييزه بين المراحل الثلاث (الفكرية، المثالية، العينية) تذكرنا بكل وضوح، بما اسماه اوغست كومت المراحل الالهية والغيبية والوضعية للضرورة الاجتماعية (Le Devenir Social).

(3) وجود تداخل مثير في فكر سوروكين بين أفكار كومت وافكار شلر.
جيم : كارل مانهايم (Karl Mannheim)

تمثل تصورات كارل مانهايم ومفاهيمه محاولة للتوفيق بين علم الاجتماع المعرفي الماركسي وعلم الاجتماع عند شلر وعلم الاجتماع عند الراغماتيكى الاميركي / ديوي (Dewey). تتميز اعمال مانهايم بطابع الانتقالية الحديثة التي وجدت جمهورها الخاص في بريطانيا وبشكل خاص في الولايات المتحدة الاميركية وضع مانهايم سنة 1929 كتابه «الايدولوجيا والطوبى» بالالمانية ثم اعاد النظر فيه تحقيقا وتدقيقا وتوسيعا، ونشره سنة 1936 في الولايات المتحدة.

-نشر سنة 1943 كتاب (Diagnosis of our time).

-وبعد وفاته (1947)، نشر له سنة 1951 كتاب :

(Liberty, Pourer Democratic Planification).

يميز كارل مانهايم بين «الايدولوجية الجزئية» و«الايدولوجية الكلية»، كما يميز بين «العلائقة» (Relationnisme)، وبين «النسبية» (Relativisme)، ويشدد على الدور الايجابي المعطى لكثرة المنظورات السوسيولوجية المعرفية، وعلى السمة التحريرية للعقل الذي يخلق بكل حرية ويتجسد في النخبة المثقفة.

وما يؤخذ على نظريته المعرفية ما يلي:

(1) بقيت نظريته اسيرة ابتسارات زعم ان كل افق سوسيولوجي من شأنه ان ينال من صلاحية المعرفة ذاتها.

(2) تتسم نظريته بهيمنة المسألة الايديولوجية.

(3) يعتبر ان النخبة المثقفة خليقة بالغاء المفاعل الاجتماعي للمعرفة».

(4) حصره الانواع المعرفية بالمعرفة السياسية المشدودة بدورها الى المعرفة الفلسفية.

دال : فلوريان زنانيسكي : (Florian Znaniecki).

نختم هذه الاطلالة لتاريخية على علم الاجتماع المعرفي، بكلمة عن نظرية عالم الاجتماع الاميركي المعاصر فلوريان زنانيسكي. صدر له سنة 1940 كتاب (The Role of The man of Knoarledage) يقول فيه: «يدرس علم الاجتماع المعرفي اثر الاطارات الاجتماعية على قبول ونقل واشاعة المعارف المكتسبة وتبرز الادوار الاجتماعية المتنوعة التي يلعبها العلماء والمثقفون في شتى نماذج المجتمعات». ويحصر زنانيسكي العلاقة المعرفية المتبادلة بجماعات الحكماء والتقنيين والمثقفين، ويستبعد الجماعات الاخرى ولا سيما الطبقات الاجتماعية ومراتبها المتباينة وفقا لانماط البنى الاجتماعية الكلية التي تنتمي اليها الطبقات.

الباب الأول

ميكروسوسولوجيا المعرفة

الفصل الأول

إيضاحات أولية

حين نتناول ميكروسوسيولوجيا المعرفة ، سنبدأ بالردّ على اعتراض يُثار غالباً ، وقد تجنّبناه في المقدّمة على نحو ضمني : هل ميكروسوسيولوجيا المعرفة ممكنة ومفيدة ؟

سبق أن لاحظنا أن مجابهة المنظومات المعرفية مع أنماط البنى السكلية للمجتمع كانت تبدو لنا بمثابة المهمة الأكثر اجتذاباً وخصوصية في علم اجتماع المعرفة . والحال ، فمن الممكن إدّاؤها دون الاستعانة بالميكروسوسيولوجيا وبعلم اجتماع التجمّعات المنظور إليها كإطارات للمعرفة ؟ لنذكر أنه يبدو لنا ، بوجه عام ، امتناع الماكروسوسيولوجيا بدون الميكروسوسيولوجيا . وإذا سار التحليل سيراً حسناً ، فلا بد لنا من بلوغ الماكروسوسيولوجيا بطريق الميكروسوسيولوجيا ، والعكس صحيح ؛ كذلك حين ننطلق من علم اجتماع التجمّعات ، نصل بالضرورة الى الميكروسوسيولوجيا من جهة ، والى علم الاجتماع الشامل والطبقات الاجتماعية من جهة ثانية . وهذا صحيح أيضاً في الاطارات الاجتماعية الحقيقية كما هو صحيح بالنسبة الى صياغتها المدركة في الأنماط الاجتماعية المختلفة المقاييس . ان تجليات الجماعية ، الجماعات ، الطبقات الاجتماعية ، تتبدل سماتها بتبدل المجتمعات الشمولية التي تندرج فيها ؛ وبالعكس ، تتبدل هذه الأخيرة رأساً على عقب تحت تأثير تبدل الأولى مرتبياً واتجاهياً . اذن المراد هو الجدل بين الجزئي والكلي ، الذي يرتدي طابع التكامل تارة ، والتضمين المتبادل تارة أخرى ، طابع الاستقطاب تارة وأخيراً

طابع المنظورات المتبادلة تارة أخرى ، وهو جدل مميز لمجمل الحياة الاجتماعية⁽¹⁾. لكن ، حين يتعلّق الأمرُ بأعمالٍ حضارية وخاصة بأنواع المعارف وأشكالها ، انما يستند الاعتراض الذي نرد عليه ، الى مُفترَضٍ ضمني وعقيديٍّ تماماً : فليس بمكنة المعارف والعقلية الجماعية التي تتركز المعارف عليها ، أن توضع موضع علاقة إلاّ مع المجتمعات الشمولية والطبقات الاجتماعية ، نظراً لأن هذه الإطارات الاجتماعية من شأنها التأثير على المعرفة الخاصة بالتجمعات وعلى المعرفة المتطابقة مع تجليات الجماعية بقوة كبيرة بحيث أنها قد تعدّل كلياً من الاتجاهات المعرفية للإطارات الاجتماعية المذكورة .

ويتضمن هذا الاعتراض ابتساراً رائجاً جداً ينسب الى المعرفة (والى كل الأعمال الحضارية عموماً) استقلالاً وفعاليةً أعظم بكثير مما تتضمنُ فعلاً خلال الدوامة المعقدة للواقع الاجتماعي . وأنا حين نسقط من حسابنا كلياً « الثقافة المجردة » Le culturalisme abstrait⁽²⁾ (وهي ليست إلاّ قناعاً للروحانية) فإننا لا نرغب في إنكار ولا في تضخيم أهمية الميكروسوسولوجيا المعرفية (كما أننا لا نرغب في إضفاء ذلك على ميكروسوسولوجيا دراسة العلاقات بين التجمعات الخاصة والمعرفة) . ونعترف ، كما سبق لنا القول والتكرار ، ان الفائدة الكبرى لهذه الدراسات لن يجري ابرازها بشكل نهائي الا بمجابهة منظومات المعرفة مع المجتمعات الشمولية - هذه العوالم الكبرى من الطبقات والجماعات وتجليات الجماعية .

* * *

لنستذكر الآن تعريفاتنا للإطارات الميكرو اجتماعية التي سنجاهاها مع انواع المعرفة وأشكالها .

Cf. *Dialectique et sociologie*, op. cit., PP. 189- 220

(1)

(2) راجع حول موضوع « الثقافة المجردة » اشارات غورفيتش في. I.1. 2e éd. *Traité de sociologie*, vol.I.

ويمكن مراجعة المنظرين الألمان مثل رودلف ستاينولر وماكس فيبر ، وعلماء

الأنام والاجتماع الأميركيين مثل تالكوت بارسونس .

إن تجليات الاجتماعية هي عبارة عن شتى أنواع الترابط في الكل أو بالكل . وهي موجودة في مختلف درجات الحضور والإمكان لكي تتقارع وتتكامل أو تندمج في كل وحدة اجتماعية حقيقية . إنها ظواهر اجتماعية كلية ، لكنها ذات طابع متقلب ، متردد ، وهي ظواهر فطرية غالباً ، وحتى أنها بنوية ؛ ومع ذلك تستخدمها الوحدات الاجتماعية الفعلية الماكرو وسوسولوجية في سيرورتها الانبثائية - Processus de structuration .

لقد أتاحت لنا الفرصة في شتى أعمالنا للالحاح على التمييز بين « الاجتماعية بواسطة الانصهار الجزئي » و « الاجتماعية بالتعارض الجزئي » ؛ تظهر الأولى من خلال الاشتراك في النحن (الجماعات) ، والثانية من خلال العلاقات مع الآخر ، هؤلاء الآخرين يمكن أن يكونوا بين الأشخاص (أنا ، أنت ، هو) والجماعات على حد سواء .

سيكفينا ، لبلوغ غايتنا ، الإحاطة بالاجتماعية من خلال المشاركة الجزئية في الجماعات (Les Nous) وتصنيف معالمها وفقاً لمعيار كثافتها . ذلك أن الجماعات ، من وجهة الأعمال الحضارية عامة ، والمعرفية خاصة ، هي إطارات اجتماعية باللغة الغنى ، بل هي أغنى من « العلاقات مع الآخر » . وبالتالي ، فإن الانصهار في الجماعات ليس وعياً لوحدها النسبية وحسب لكنه أيضاً وعي لعالم بكامله من الدلالات التي لا يمكن بلوغها بوجه آخر ، في حين أن « العلاقات مع الآخر » حتى أوثق العلاقات ، هي من هذه الوجهة مخفوضة الى آفاق « الأطراف » المحدودة ، وتكتفي باعادة انتاج الأحكام الأفكار ، الرموز ، الإشارات الاجتماعية التي مركزها النحن ، الجماعة ، الطبقة ، المجتمع الشامل .

إن درجات كثافة الجماعات الثلاث هي الجمهور ، الجماعة المتحد⁽³⁾

(3) في سبيل تحليل أكثر تفصيلاً ، راجع — la vocation actuelle .. , vol ' I , 3e éd , pp . 119

يشكل الجمهور Masseur الدرجة الدنيا من الاشتراك في النحن ، ويمارس المجموع على المشاركين ضغطاً أشد وجذباً أضعف . عندئذ يتقبل حجمه إمكان توسع لا متناه تقريباً . وبالجماعية يجب أن نفهم الدرجة الوسطى من كثافة المشاركة في النحن ، المتبوعة بضغط متوسط وبجاذبية وسطى يمارسها المجموع على المشاركين ؛ وحجم هذا المجموع لا يتقبل حينئذ سوى إنتشار محدود . وأخيراً ، من المناسب أن نرى في المتحد Communion الدرجة القصوى لكثافة المشاركة في النحن ؛ وهو متبوع بالضغط الأضعف وبالجاذبية الأشد التي يمارسها المجموع على المشاركين ؛ وينزع حجمه إلى الضمور للحفاظ على قوة الانصهار وعمقه .

الفصل الثاني

الجماهير كأطر اجتماعية للمعرفة

إن الجماهير كأطر اجتماعية للمعرفة يمكن رصدُها بشكلٍ خاص عندما تتجسّدُ في الطبقات الاجتماعية وفي المجتمعات الشمولية ، أو على الأقل في جماعات واسعة النطاق مثل الدولة ، الكنيسة ، الأحزاب السياسية ، النقابات . ويمكن رصدُها بشكلٍ أقلّ عندما تتجسد في الأسر ، في الجماعات المحلية ، في المصانع ، الخ .

وبالترايط مع الجماهير تتأكد في المقام الأول المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي من جهة ، والمعرفة السياسية من جهة ثانية . ويمكن أحياناً لحظ المعرفة العلمية والمعرفة التقنية فيها ، لكن في مستوى منخفض جد من الشيع والتعميم . أما أنواع المعرفة الأخرى فهي بكل وضوح غير مشجّعة لا سيما المعرفة الفلسفية ، وكذلك معرفة الآخر والنحن ، وحتى معرفة الحس السليم . وإذا لوحظ حضورها أحياناً في الجماهير فذلك يتم أساساً من خلال المعرفة السياسية بقدر ما تستسلم هذه المعرفة لقيادة الشعارات ، الطوباويات والأساطير .

لنبدأ بالمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . بالنسبة الى الجماهير السلبية⁽⁴⁾ يقع العالم الخارجي المعلوم في ميادين غيريّة وأنويّة ، شائعة غالباً ، محدودة

(4) بخصوص التمييز بين الاجتماعية السلبية والاجتماعية الفاعلة ، يمكن الرجوع الى G. G. Vocation actuelle de la sociologie, vol. I., op. cit., PP. 178- 1866

أحياناً بصلاحيّة النماذج الرائجة في الأطر الاجتماعية التي تتدامج الجماهير فيها . ومثال ذلك ان جمهور العاطلين عن العمل يضع العالم الخارجي في ميادين متصلة بأكثر الحاجات إلحاحاً : البحث عن عمل ، النجدة ، الجوع المهدّد . ان جمهرة الناس الذين يتكلمون ويكتبون اللغة نفسها خارج الحدود القومية ، يقسمون العالم الخارجي حسب صلاحية نماذج اللغة التي هي لغتهم . ومن جهة ثانية ، ان العالم الذي تعرفه الجماهير السلبية يقع في الزمان الشائع وغير المنتظم ، ذي التقلّبات غير المتوقّعة ، والنازع مع ذلك الى الزمن البعيد الأمد أو « المتأخر عن ذاته » أو أيضاً ويشكل نادر « الماروح مكانه » أي الدوري . من البين أن الميدان المكاني يهيمن على الزمان ، شبه المحسوس هنا .

يتغير الوضع تغيراً كبيراً عندما تصبح الجماهير فاعلة . وعندئذ تكون معرفتها متجهة بقوة وفقاً لعملها ، لنفاد صبرها ولبادراتها . هذا هو حال جماهير المستائنين ، الجماهير الثورية ، أو أيضاً الجماهير الراجعة . عندها يبدأ الزمان وبالأخص يبدأ المستقبل وانقطاع التعاقب بالهيمنة على الميادين التي يقع فيها العالم الخارجي . في هذه المعرفة للجماهير الفاعلة يمكن « للزمن المتقدم على نفسه » أن يسود ، الأمر الذي يؤدي الى تشطير العالم الخارجي الى مناطق معادية أو صديقة ، مؤاتية أو غير مؤاتية لهذا الزمن .

أما أشكال المعرفة ، فإن معرفة الجماهير للعالم الخارجي تشجع الأشكال الرمزية ، النظرية والجماعية . وعندما تصبح الجماهير فاعلة يحل الشكل المدركي للمعرفة محلّ الشكل التجريبي .

لنتصور الآن المعرفة السياسية للجماهير ؛ يتأكد فيها كل ما تقدّم ذكره . فهذه المعرفة الضمنية في الجماهير السلبية تغدو صريحة منذ تدخل الجماهير الفاعلة

ان الجماهير السلبية لا تفصح عنها إلا سلباً اي باللامبالاة - مهما بدا

الأمر هذا متناقضاً - وحتى بالتغيب في بعض الظروف ، وبانتظار فترة أنسب . وعندئذ لا يكون تغيب الجماهير السلبية الا تغيباً ظاهرياً . وهو ناجم عن معرفة منحازة ، ملتزمة ، تكتيكية ، وان تكن نصف واعية غالباً ، أو ضمنية في أحسن الحالات .

وترتدي المعرفة السياسية شكلاً مدركياً لدى الجماهير الفاعلة . فمن جهة تجري الصياغة المدركة للرموز السياسية ، الموضوعة كأساطير تدعو الى الفعل ، ومن جهة ثانية للوسائل وللطريقة الأفعال والأسرع لبلوغ الأهداف المتضمنة في الرموز والأساطير . ان هذه الصياغة المدركة المضاعفة تشكل ما نسميه « برنامج » الحزب السياسي تارة ، و « بياناته » أو حتى « مقرراته » تارة أخرى . وبعد صياغة هذه المعرفة على هذا النحو ، لا تكون نتاجاً للجماهير بقدر ما تكون نتاجاً للإطارات الميكر إجتماعية (احزاب وطبقات اجتماعية) التي تتجسد فيها . بيد أن نجاح أو فشل البرامج غالباً ما يكون متوقفاً على تطابقها أو عدم تطابقها ليس فقط مع الفعل ، بل أيضاً مع معرفة الجماهير السياسية المباشرة .

أخيراً ، فلنلاحظ سمة أخيرة للجماهير الفاعلة بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة السياسية : سمة نزوعها الى فرضها على كل نوع معرفي آخر . هكذا تتحول معرفة الآخر والنحن معرفة للمتخاصمين والمتحالفين ، وتنقلب المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي الى استقصاء لحقول منصوبة مقابل بعضها البعض . كذلك فان التسييس يطول معرفة الحس السليم ، المعرفة التقنية والمعرفة العلمية عندما تستند إلى الجماهير الفاعلة كإطارات مرجعية . بيد أنه لا يجوز النسيان بأن نزعة الجماهير هذه يمكن تعديلها جذرياً وذلك من خلال الجماعات ، الطبقات والمجتمعات ، سواء تداخمت فيها أم تجسدت ؛ كذلك من الممكن موازنتها بالتجليات الأخرى للجماعات Les Nous : الجماعات والمتحدثات .

الفصل الثالث

الجماعيات كأطر اجتماعية للمعرفة

تتميّز الجماعياتُ ، سواء عن الجماهير أم عن المتحدثات ، بكونها مؤاتية للمعرفة بشكل خاص ، ربما يكون هذا السبب هو الذي جعل بعض علماء الاجتماع ، ومنهم الشخصانيون الفرنسيون يعتقدون ، في خطى المرحوم عمانويل مونييه E. Mounier إنه بالإمكان عزو قيمة للجماعيات أكبر مما يُعزى للجماهير والمتحدثات. لكن من البين أن معيار المعرفة ليس هو الوحيد، ويبقى من الممتع إقامة هرمية مجردة وقبليّة بين الجمهور ، الجماعية والمتحدّد. كذلك يتوقف الأمرُ كلّهُ على البنى الماكرواجتماعيّة حيث تتحدّد الجماعيات مثلما يتوقّفُ على مضامينها المعرفية (أنواع المعرفة وأشكالها) ، الأخلاقية ، الجماليّة ، الخ .

إن الجماعيات هي التجلياتُ الأكثر اتزاناً ، وبذلك الأشد ديمومةً في الأفصاح عن الجماعة Sociabilité ؛ فهي التي تتجسد عادة وبشكل مألوف داخل الجماعات والطبقات والمجتمعات الشمولية . لهذا ، اذا وضعنا جانباً كل شرط آخر ، فإنها تنزعُ الى تشجيع المسالك المنتظمة والأدوار شبه الجاهزة والمقولة التي تؤدّيها النماذج والإشارات والرموز . وفي معظم الأحوال ، يخلق هذا الأمرُ هالةً من العقلانية حول الجماعيات ، وجواً مؤاتياً لكل أنواع المعرفة ، ربما باستثناء المعرفة الفلسفيّة . وهذه عندما ترتدي طابع مدرسة أو تيار فلسفي ، تكون أوفر حظاً في المتحدّد منها في الجماعة . وليس الأمر كذلك بخصوص الأنواع المعرفية الأخرى ، لا سيما المعرفة الإدراكية للعالم

الخارجي ، ومعرفة الآخر ، ومعرفة الحس السليم ، والمعرفة السياسية والمعرفة التقنية . لكن العلم وحده شهد ميلاد فرق العلماء والباحثين ، المتحدرة من الجماعيات مباشرة .

إن الجماعيات على الرغم من كونها الظواهر الميكرو اجتماعية الأشد ديمومة والتي تتجسد مبدئياً على الأقل ، أكثر من سواها ، فإنها حتى عندما تؤكد نفسها كجماعيات فاعلة (وهذا الأمر لا يتأكد دائماً) لا يمكن تجاهها وتوحيدها مع التجمعات⁽⁵⁾ أي مع الوحدات الاجتماعية الماكرو اجتماعية الجزئية التي سندرس في القسم الثاني من هذا الكتاب علاقاتها بالمعرفة . وعليه ، فإن الجماعيات مثل كل تجليات التكوّن الاجتماعي تبقى عفوية ومتقلّبة ، على الرغم من نزوعها نحو الأتزان ، لهذا ، لا تتقبل الانبناء كجماعيات ولا يمكنها إلا أن تشجع إنبناء الجماعات حيث تنجح في الهيمنة على الجمهور والمُتحد . لهذا أيضاً ليس بالإمكان أن تكون المسألة مسألة بحث عن منظومات معرفية متوافقة مع الجماعيات . انما المطلوب فقط هو التدليل على أنواع المعارف التي يمكن رصدها في التحدات الاجتماعية دون ترتيبها في هرمية دقيقة ومستقرة نسبياً .

وفيما يختص بالمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، تعتبر الجماعيات أظهر من سواها بكثير . ففي هذه المعرفة تبرز الميادين المستقبلية المقترنة بالميادين الإيرازية بروزاً شديداً ، في حين أن الميادين الغيرية والأنوية تتلاشى . كذلك فإن الميادين تنبسط وتنقبض دون صعوبة حين تفقد طابعها المركزي .

(5) هناك عدة أعمال سوسيولوجية تناولت هذه المسألة وارتكزت عليها ، نذكر منها :

- R. M. Mac Iver, Community
- R. D. Makensie, the Metropolitan community, 1937
- Dwight Sanderson, The rural community, 1938
- C. Zimmerman, The Changing community, 1938
- W. L. Warner and P. s. lunt, the social life of a modern community, 1941.
- P. Sorokin, Society, Culture and personality, 1947

فالعالم الخارجي موضوعٌ في زمن متواصل حيث ينزع الى التوازن الحاضر ، الماضي والمستقبل ، التقدم والتأخر . لهذا فإن الزمان والمكان يتقبلان ، في معرفة العالم الخارجي التي تكون الجماعياتُ مواطنَ لها ، لصياغات المدركة وتطبيق المعايير ، وحتى التكميم ، اذ كل هذه العناصر صادرة إما عن جماعات واسعة النطاق (الكنائس ، الدول) وأما عن مجتمعات شاملة حيث تكون الجماعيات متداخلة وتستثير هذه النزعة . هكذا نستطيع الملاحظة أنه في صميم المجتمعات التي سادتها الجماعيات : المدن - الدول القديمة ، المدن الحرة في القرون الوسطى ، مجتمعات النهضة ، المجتمعات المتوافقة مع الرأسمالية التنافسية ، كانت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي تحظى بتشجيع ملحوظ وارتدت طابعاً عقلانياً ، متناسباً ، يوازن بين التنظيري والوضعي .

وتشغل معرفة الآخر ، هي أيضاً ، مكانة متميزة في الجماعيات ؛ فلا مناص أيضاً من ايضاح ما نعنيه بـ الآخر في الجماعات والمجتمعات الشاملة حيث تتجسّدُ الجماعيات . فاذا اكتفينَا بـمثَلنا ، يكون الآخر في المدن القديمة هو المواطن وليس « الدخيل » Méteque ، ولا حتى العبد . وحتى الآن لم تلعب معرفة الآخر دوراً كبيراً إلا في المجتمعات ذات النمط الإقطاعي والأبوي . وعليه ، كانت الانماط الأخرى في المجتمعات الشاملة قد حرّفت باستمرار اتجاه الجماعيات لتشجيع هذا النوع من المعرفة . ومما لا شك فيه أن الأمر سيتغيّر في مجتمعٍ جماعي لا مركزي ، قائم على التسيير الذاتي العمالي .

ومن جهة ثانية ، تشجّع الجماعيات من حيث المبدأ معرفة الحس السليم ، لأنها بهذه الصفة تشجع النماذج والقواعد وتضفي عليها لوناً عقلانياً . فالجماعياتُ هي التي تحمي معرفة الحس السليم في مجتمعاتنا المعادي لهذا النوع المعرفي ، وذلك بقدر ما تستمر هذه الجماعيات في الأسر والتجمعات المحلية الضيقة النطاق ، الخ . . وهذا يظهر مرة أخرى مدى ضعف مقاومة نحن كجماعيات أمام البنى الشاملة أو الجزئية التي تتجسّد فيها .

إن الجماعيات حينما تكون مزدهرة في جماعة ، في طبقة أو في مجتمع شامل ، تعقلنُ المعرفة السياسية الى حدٍ ما . فتحررها من رمزية مفردة ، وأساطير وطوباويات . وتحت تأثيرها ، تنزعُ الى أن تصبح معرفة وضعية أكثر منها نظرية . لقد رأينا كيف أثرت الجماهير تأثيراً معاكساً على هذا النوع المعرفي ، وسنرى أن الحال كذلك بخصوص المتحدات .

وإن الجماعيات بوصفها اطراراً للمعرفة التقنية ، مشجعة للنماذج والقوالب ، تساعد على أن تبقى المعارف التقنية المكتسبة عند مستوى معين ، ومن جهة ثانية عندما تولد من العمل في فريق (مصنع ، مكتب ، مختبر ، الخ .) تستطيع الجماعيات الإسهام في تحسين وحتى في اكتشاف معارف تقنية جديدة . وغالباً ما حصل هذا الأمر ، لا سيما في بدايات التصنيع . لكن ، في المرحلة الراهنة للمجتمع الصناعي ، صار متدنياً الدور الإيداعي للجماعيات الشغيلة ، وذلك بسبب التعقّد التقني المفرط .

الفصل الرابع

المتحدات كإطارات اجتماعية للمعرفة

تعتبر المتحدات ، ما خلا بعض الاستثناءات ، أقل تشجيعاً للمعرفة من الجماعيات وحتى من الجماهير أحياناً . وهي سواء كانت فاعلة أو سلبية ، تنزعُ الى الانكماش على ذاتها ، في نوع من الأناثة Solipsisme الجماعية . واننا اذ نميّز المتحدات على هذا النحو ، فأنا لا نستند إلى طابعها الصوفي ، وهو ليس ضرورياً على الإطلاق ، فالمتحدات يمكنها أن تكون عقلانية (كما هو الحال مثلاً بين فلاسفة أو اتباع مذهب سياسي) ويمكنها أيضاً الارتكاز على الفعل الاجتماعي - السياسي . ان ما يتبدى لناظرنا هي نزعة المتحدات من كل نوع الى الانكماش والتحدّد : وبالتالي ليس في متناول المتحداية وسيلة للكفاح ضد التهديد بالقطع بين كثافتها واتساعها ، اللهم الا اذا تمت التضحية بهذه الأخيرة لصالح الانقسامات .

في عداد الأنواع المعرفية ، لا تشجّع المتحدات عادةً الا معرفة ذاتها أي معرفة الجماعة (نحن) التي تكونُها ، المعرفة السياسية والمعرفة الكونية - الإلهية ؛ وهي تتقبل المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، لكن مع تحويرها . ولا نجد فيها أبداً الأنواع المعرفية الأخرى ، اللهم الا في بعض الحالات الاستثنائية جداً ، مثلاً في متحد للباحثين خلال اكتشاف علمي كبير ، أو متحد متعلمين متأثر بكشف فلسفي عالمي المدى .

إن معرفتهم للنحن Nous تعتبر أنويةً ، وذلك بمعنيين . « أولئك الذين يبقون خارج المتحد » ، سواء تعلّق الأمر بجماعات (نحن) أخرى أو

بأفراد غير مساهمين ، هم أشخاص متجاهلون أو حتى محترقون . والحال ، فإن المتحد يجعل هؤلاء المتجاهلين ، المبعدين أو اللامبالين ، الذين لا يؤثر فيهم الإيداع ، يعانون الحد الأقصى من الضغوط وليس الحد الأدنى كما هو الحال بالنسبة الى أفرادهم .

من جهة ثانية ، تنزعُ المتحدات الى التحرك في زمن متقدّم على ذاته ، زمن دافعٍ قُدماً . لكنْ ، نظراً لطابعها المتميز بالانكماش على الذات ، فإن « مواجيد المستقبل » تنقلب بسهولة الى حركة دورية ، الى النوع من المرواحة لا يفتح التقدم أمامها أية نافذة . فلا بد من ظروف استثنائية ، كالاضرابات ، الواسعة النطاق ، والثورات المظفرة أو بدايات الحركات الدينية العظمية ، لاستخراج المتحدات من عزلتها .

إن المعرفة السياسية التي تحظى بتشجيع المتحدات ، تنتسب الى المثال اكثر مما تنتسب الى التكتيك ؛ وتتميّز بتشديد كبير على الشكل الرمزي ، المتكثّف إما بفعل هيمنة الأسطورة وأما بفعل هيمنة الطوبى ، وأما الاثنتين معاً .

ربما تكون المتحدات في المجتمعات البدائية هي التي شكّلت مواطن للتجارب الصوفية المتعلّقة في أساطير كونية - إلهية . ولكن في المجتمعات التاريخية ، من الصعب أن نقيم علاقات مباشرة بين متحدات المؤمنين والعقيدة التي وضعها علماء اللاهوت⁽⁶⁾ .

اما المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي الممكن لحظّها في المتحدات ، فلا بد أن نلاحظ أن المكان الذي يوضع فيه هذا العالم يختلط ، في نظرها ، مع أعضائها ومع الطقوس والنماذج والإشارات والرموز التي يستخدمونها معاً . إذن الأمر يتعلق أساساً بمكان غيري ، انويّ ومركزي الذات . والزمان

(6) على سبيل الاستثناء نذكر مذهب « الكواكرز » Quakers الذي يثق بالتحّد التسلم للعصمت .

الخاص بالمتحدات ، الذي سبق لنا الكلام فيه ، هو عينُ الزّمان الذي تضع فيه العالم الخارجي : وهذا من زاوية تسرّع ظاهري ، هو الزمان الدوري للعود الأبدي .

يمكنُ لهذه التأمّلات الوجيزة في بعض معالم ميكروسوسولوجيا المعرفة أن تظهر تصميميّة جدّاً ، وأنْ تبدو ، انطلاقاً من ذلك ، غنيّة للأمال . بيد أنّه لا يجوزُ أن ننسى من جهة أن المقصود هو ميدان بور ، وأن هذه الميكروسوسولوجيا من جهة ثانية ستزداد تجسّداً عندما نتخذُ الإطارات الاجتماعية المعرفية الجزئية كمرجع : أي التجمّعات الخاصة ، الطبقات ، وبالأخص المجتمعات الشاملة . وأنها ستجد في ذلك مبرّر وجودها وفعاليتها التامة .

الباب الثاني

التجمعات الخاصة كأطر اجتماعية للمعرفة

الفصل الأول

اعتبارات تمهيدية

نرمي الآن الى دراسة التجليات الأولى للإطارات الاجتماعية الجزئية :
التجمعات الخاصة بوصفها مواطن للمعرفة .

وحتى نستطيع الكلام على جماعة ينبغي في إطار اجتماعي جزئي ان
تهيمن القوى الجاذبة *Forces centripetes* الى حد ما على القوى النابذة
Forces centrifuges ؛ كما ينبغي للجماعات *Nous* المؤتلفة أن تنصرف على
الجماعات المختلفة . وبالتالي فإن وحدة الجماعة لا تقبل الخفض الى تعدد
ظواهر الحياة الاجتماعية . وافترضياً على الأقل يعتبر كل تجمع خاص بمثابة
عالم صغير من ظواهر الحياة الاجتماعية ، كما تعتبر الطبقات والمجموعات
الشاملة ، بدورها ، بمثابة عوالم كبرى للتجمعات .

كنا في أعمالنا السابقة قد حددنا التجمعات الخاصة كما يلي : « الجماعة
هي وحدة جماعية فعلية لكنها جزئية ، ملحوظة مباشرة ، قائمة على مواقف
جماعية متواصلة وفاعلة ، ذات عمل تؤديه معاً ، وذات وحدة في المواقف
والأعمال والمسالك تشكل إطاراً اجتماعياً قابلاً للبناء ، نازعاً الى تناغم نسبي
بين تجليات الحياة الاجتماعية » (1) .

لن نأخذ سوى ميزة واحدة من هذه الميزات : ميزة « الاطار القابل

Cf. *La Vocation actuelle de la sociologie*, vol. I, 3^e éd., 1963, P. 305 et plus (1)
généralement, chap. V, PP 284- 357

للبناء ، ان لم يكن مبنياً » . فالبنية هي دائماً توازنٌ عارضٌ لمراتب شتى . فالطابع الانبثائي للجماعة يتأتى أولاً من كون وحدتها تتحقق من خلال نوع من التناغم الخاص بين تجليات الحياة الاجتماعية من جهة ؛ وبين المواقف الجماعية ، الأفعال ، الأعمال ، الأمور المشتركة وتجسيداتِها في مسالك جماعية شبه منتظمة ، من جهة ثانية . وهومتأت ، ثانياً وإلى حدٍ بعيد ، من بداية توازن بين هرمية متنوعة للمراتب العميقة والانتظامات الاجتماعية ، والزمانيات ، وتلونات الذهن ، الخ . وأخيراً يتأتى هذا الطابع الانبثائي للجماعة بالذات من كون تداوجها في طبقة اجتماعية أو في مجتمع شامل ، ينزع الى الظهور من خلال توافق علاقاتها مع الجماعات الأخرى ، ويتأتى كذلك من الدور والمكانة التي تحتلها في الهرمية الخاصة للتجمعات المميّزة لمجتمع شاملٍ معين .

باختصار أن عبارة « قابل للبناء » المطبقة على التجمعات تدلّ من جهة على نزوعها الى أن تقيم في داخلها تنظيمًا افتراضياً للهرميات المتنوعة ؛ وتدل من جهة ثانية على نزوعها الى ابراز موقع الجماعة « خارج ذاتها » ودورها وعلاقاتها . فاذا نجحت هذه النزعة وتحققت هذه التوازنات العارضة ، تكون الجماعة مبنيةً ، الأمر الذي لا يعني مع ذلك أنها منتظمة . مثال ذلك المستون ، تجمّعات الفتيان ، بعض المهن ، هم الآن جماعات مبنية لكنها عادة جماعات غير منتظمة ، على الرغم من قدرتها أحياناً على الإفصاح الجزئي عن نفسها في تنظيمات شتى . وبالعكس ، تعتبر الجماهير المتنوعة ، الأقليات الأثنية ، المنتجون والمستهلكون ، الصناعات ، الجماعات العمرية (ما عدا أولئك الذين ذكرناهم) و « الأجيال » بشكل أوسع ، تعتبر كلها جماعات قابلة للبناء لكنها نادراً ما تكون مبنية .

من البين أن كل جماعة منتظمة هي في الآن نفسه جماعة مبنية . إلا أن جماعة ما يمكنها أن تكون قابلة للبناء كما يمكنها أن تكون مبنية أيضاً ، دون أن تكون منتظمة مع ذلك ، ولا حتى مفصحة عن ذاتها في تنظيم واحد

(الطبقات الاجتماعية ، هذه الجماعات العليا ، هي مثال على ذلك) . كذلك فإن التنظيم ، حينما يدخل في توازن البنية ، لا يتضمن من ذلك سوى عنصر ، غير محتوم من جهة ثانية .

تقدم التجمعات المبنية ، بكل جلاء ، نقاط استدلال أدق وأيسر استعمالاً في دراسة أنواع المعرفة وأشكالها ، مما تقدمه التجمعات غير المبنية . وعليه ، في الأولى تكون المعرفة ، على غرار الأعمال الحضارية الأخرى ، فاعلة كعنصر موطن للبنية .

وبالتالي سنكتفي بتناول التجمعات المبنية ، تفضيلاً ، وقد كان المخطط العام لتصنيف التجمعات الذي اقترحه في أعمالنا السابقة يتضمن 15 مؤشراً⁽²⁾ متداخلة غالباً ؛ وسنكتفي هنا بالتجمعات المتميزة فقط :

- 1 - وفقاً لطريقة بلوغها⁽³⁾
- 2 - وفقاً لوظائفها⁽⁴⁾
- 3 - أخيراً وفقاً لكتل التجمعات المتعددة الوظائف ، كالدول من جهة ، والكنايس من جهة ثانية ، التي تدعي غالباً أنها ذات « وظائف عليا » أو أنها « ما فوق الوظيفة » ، أي أنها تجسد المجتمع الشامل ، وهي كتل تنخدع بذلك دائماً⁽⁵⁾ .

وسنكتفي ، بخصوص كل من هذه الحالات الثلاث ، ببعض الأمثلة في الفصول التالية .

La Vocation actuelle de la Sociologie, 3e éd., vol I., PP. 308- 357 (2)

Ibid., PP. 327 et suiv. (3)

Ibid., PP. 333 et suiv. (4)

Ibid., PP. 338 et suiv. (5)

الفصل الثاني

التجمعات المتمايزة وفقاً لطريقة البلوغ والمعرفة

حسب معيار طريقة البلوغ والتوصل إلى تجمع يمكن أن نميز :

- أ - التجمعات المفتوحة .
- ب - التجمعات المشروطة البلوغ .
- ج - التجمعات المغلقة .

وفي عداد تجمعات الأمر الواقع مثل الجماهير المختلفة ، التجمعات العمرية ، الخ . ، يجب أن نذكر التجمهرات ، التظاهرات ، الاجتماعات ، فرق الإنقاذ ، بعض التجمعات الخيرية ، الخ . من البين أن التجمعات المفتوحة لا تمثل عموماً مواطن خاصة للمعرفة ، ما خلا جماعات الفتیان والمسنين ، وذلك بمقدار ما تشكل وحدات جماعية فعلية . وهكذا يمكن للجماعة من الناس المسنين ، في بعض أنماط البنى الاجتماعية الشمولية ، أن تفرض منظومتها المعرفية على كل معرفة أخرى في المجتمعات المقابلة . عندئذٍ تعتبر هذه الجماعة مثل جماعة « الحكماء » - الحاملين الوحيدين للمعرفة الباطنية وللمعرفة المسلّم بنشرها - وهذا هو حال المجتمعات الأبوية أو السلفية . وأطرف ما في الأمر ، هنا ، كون « تجمعات الكهول المفتوحة » تتحوّل بشكل خفي الى تجمعات مغلقة .

من هذه الوجهة ، من الأيسر درس التجمعات المغلقة بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة . وقد انتشرت التجمعات المغلقة انتشاراً شديداً في أنماط أخرى من المجتمعات ، وهذه لم تعد اليوم سوى استثناءات : مثال ذلك

بعض التروستات والكارتلات ، و « المائتة أسرة » الشهيرة قبل الحرب ،
وجامعات مثل النبلاء أو البورجوازية العليا ، التي لا نتعين إلا بالولادة أو
بالإرث ، والمقصود ، هنا ، إطارات اجتماعية مؤاتية للمعارف معمقة .

فبقدر ما تنبثق المنظومات المعرفية هنا ، تنخفضُ إلى بعض المعارف
السياسية ، التقنية ، والحسية السليمة ، المقترنة اقتراناً متبايناً وفقاً لطابع
الجماعات المغلقة وللظروف التي وضعت مقابلها . يضافُ الى ذلك أن اضاءة
هذه المعرفة يتباين وفقاً لأنماط المجتمع الشامل حيث تندامج الجماعات
المغلقة . ولكن حين يتعلّق الأمر بطبقة مغلقة من الرهبان ، بجماعة من
الاقطاعيين ، من نبلاء السيف أو نبلاء الثوب ، بفئة عليا من البورجوازية ،
باحتركات قومية أو عالمية ، فإن معرفتها الخاصة ، المتعارضة مع معرفة
المجتمع الشامل ، تكون رقيقة وتظهرُ ميلاً إلى الهرمية والباطنية ، حتى
عندما ينتصر الشكل العقلاني انتصاراً كاملاً ويقود إلى الحساب المتقن
للجداول المالية المعقدة .

في عداد التجمعات ، المتمايزة وفقاً لطريقة بلوغها ، تعتبر التجمعات
التي تعِدُ في الوضع الراهن لعلم اجتماع المعرفة بأوفر حصاد هي ، التجمعات
المشروطة البلوغ ، وحتى التجمعات الصعبة البلوغ . لنذكر على سبيل المثال
الجماعات المهنية المتميزة التي تستلزمُ من أفرادها ألقاباً غالباً ما يتم الحصولُ
عليها بالمباريات (تبريزُ للاستدّة ، اجازة في الحقوق للمحاماة والقضاء ،
شهادات من مدرسة العلوم السياسية أو المدرسة القومية للإدارة ، لإجل المهن
الدبلوماسية أو الإدارية من الدرجة الأولى) . ويخضع بعض هذه التجمعات
المهنية لرقابة منتظمة . مثال ذلك نقابة الأطباء أو نقابة المحامين التي يحق لها أن
تمنع أعضائها غير الكفوئين من ممارسة مهنتهم .

كذلك هو الحال بالنسبة لمهنة أساتذة الكليات والمدارس التقنية العليا
(بما في ذلك مدرسة البوليتيكنيك ، مدرسة المناجم ، مدرسة الجسور ،
الخ . .) . ومن حيث المبدأ تختارُ مؤسسات التعليم العليا أفرادها بواسطة

اختيار مقترن أو غير مقترن بالشهادات ، واصطفاء بالمباريات (دكتوراه بامتياز ، ورود الاسم على لائحة الشرف ، لأجل كليات الآداب ، والتبريز بعد شهادتي دكتوراه لكليات الحقوق ، الخ .) . الا أن هناك مؤسسات للتعليم العالي تقوم فقط على اختيار الزميل ، مثل الكوليج دي فرانس ، والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا . الخ .

سوف نتوقف عند مثل الكليات (الآداب ، الحقوق ، الطب ، الخ) . وسواها من المعاهد المماثلة . ان كل هذه المؤسسات ، بحكم اختصاصاتها وكراسيها ، هي مواطن للمعارف العلمية التقنية أو الفلسفية . وهي ترمي إلى تطويرها ، وتدريسها ، وتعميمها . الا أن بعضاً منها يلعب دوراً في سير هذه المعاهد ؛ وبالأخص « المعرفة السياسية » بوصفها « معرفة ادارية » ، وكذلك معرفة الحس السليم ، وفي بعض الأحيان معرفة الآخر والنحن . في هذه المنظومة المعرفية ، تأتي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي في المؤخرة ، لأنها محدودة جداً .

لكن ، قبل أن نواصل هذا التحليل لتدخل الأنواع المعرفية التي لا تشكل مادة بحث وتعليم في الجامعات والمؤسسات المماثلة ، من المفيد أن نلاحظ أن المعارف الجامعية العلمية ، التقنية والفلسفية تمتاز جميعها بتشدّد أشكال المعرفة عينها . فالأشكال المدركية ، الرمزية ، الوضعية ، الجماعية والعقلانية تسود فيها ، وذلك على الرغم من كون المعرفة المدروكة والمدروسة في الجامعات لا تزال في جزء منها معرفة باطنية ، هرمسية وسلفية ، ان لم نقل متحجرة .

هنا يكشف علم اجتماع المعرفة وضعاً معقّداً . في الحقيقة ، ان الجماعات المدعوة الى استقدام واحياء هذه الأنواع المهمة جداً من المعرفة ، هي التي تقدّم دون قصد صريح ولكن بطبيعة عملها بالذات ، على وقف شروقها وحتى على تأخيرها أو الحد من انتشارها . بيد أن هذا العيب في التعليم الجامعي يصحّحه في بعض الأحيان روح التنافس الذي يسود بين الجامعات ،

الكليات ، تيارات الأفكار المختلفة . فمن المسلّم به أن كل ابتكار ينشأ ببطء ولا يفترض نفسه الا من خلال تحفظات كبرى .

وإذا اعتبرنا ، الآن ، الأنواع المعرفية الأخرى التي تتدخل في الحياة الداخلية لمؤسسات التعليم العالي ، واعتبرنا سيرها الوظيفي : المعرفة الاستراتيجية (أو السياسية أو معرفة الحس السليم) سنلاحظ ليس دون اندهاش انها نادراً ما تتوافق مع مستوى المعارف المدرّسة . ان هذا المظهر ، المتناقض في الظاهر ، لا يصعب تفسيره : ففي الواقع ، ليس الأساتذة المشهورون حقاً بوصفهم أشهر العلماء ، هم بالضرورة أولئك الذين تكون سلطتهم قائمة في مجامع الكليات والمؤسسات الأخرى المماثلة ، عندما يتعلّق الأمر بالوقوف على قضايا ادارية ، تستلزم مزايا ومعارف من نوع آخر تماماً . أخيراً ، لا تتجسّد معرفة الآخر والنحن (أي الزملاء والطلاب) داخل الجامعة الا اذا نجحت الجماعة في السيادة على الجمهور والمتحد ، الأمر الذي يفترض ، فيما يفترض ، جامعات صغيرة تزداد نُدرّة في أيامنا .

لنتنقل الآن الى التجمعات ذات البلوغ المحصور نسبياً بالتجمعات المتمايزة وفقاً لوظائفها ، بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة .

هنا أيضاً ، سنكتفي بأمثلة ثلاثة : الأسرة (الفصل 3) ، التجمعات المحلية الصغيرة النطاق (الفصل 4) ، وأخيراً المصانع (الفصل 5) . وفي الأحوال الثلاثة ، المقصود هي تجمعات متعددة الوظائف ، لكن أهميتها بخصوص المعرفة هي بما لا يقارن أقل من معرفة الدول (كتل التجمعات المحلية) من جهة ، والكنائس من جهة ثانية التي سنخصص لها الفصلين السادس والسابع .

الفصل الثالث

الأسرُ والمعرفة (6)

من المتفق عليه أن الأسرة ، كجماعة ، يتبدل طابعها وفقاً لنمط المجتمع الشامل الذي تندرج فيه ، وكذلك وفقاً للطبقة التي تنتمي إليها . ولكي نتوصل إلى بعض المعطيات الدقيقة الخاصة بالأسرة كبؤرة للمعارف ، لا بد إذن أن ننطلق من تجلياتها العينية جداً .

لنأخذ أسرة فرنسية حالية ، حيث نمكث المرأة في المنزل وتربي بضعة أولاد . فإذا سادها التفاهم فسوف نرى هيمنة معرفة الآخر والنحن على كل الأنواع المعرفية الأخرى ؛ التعارف بين الرجل والمرأة ، بين الأهل والأبناء ، والتعارف بين الأبناء . ولكن كم يطرأ على الأسرة من خلافات واضطرابات مختلفة الطبيعة ، فينقطع أعضاؤها عن التفاهم . وعندئذ ينقسمون إلى معسكرات متخاصمة : آباء مقابل الأبناء ، أو أحد الأبوين متحالفاً مع أحد الأولاد ضد الآخرين . ومن البين أن وضعاً كهذا من شأنه أن يعتم على معرفة الآخر . وهكذا يبقى بعض الأولاد غير مفهومين ومجهولين في أسرهم بالذات . ويمكن لهذا الأمر من جهة ثانية أن يحدث بين الأهل .

ثمة نوع معرفي آخر ينزع إلى أداء دور في صميم الأسرة ، طالما أنها

(6) ربما يكون تعبير *famille menage* الأسرة المنزلية هو الأدق من الوجهة العلمية . ولكن في هذا الفصل حيث نعالج الأسرة الراهنة ، الفرنسية مثلاً ، اعتقدنا أنه من الممكن استعمال التعبير الأكثر رواجاً ، « الأسرة » *Famille* .

تعمل بشكل طبيعي ، إنه نوع معرفة المحس السليم : ويفترض بالأباء نقله إلى أولادهم ، وتطبيقهم له في سبيل عمل الأسرة دون صدمات . لكن هذا النوع المعرفي يظهر في ظروف المعيشة الحالية بشكل يزداد أنحصاراً في المجتمعات الشاملة والطبقات الاجتماعية : ولهذا السبب ، فإن تأثيرات معاكسة لأسلوب العيش السائد في الأسرة يمكن أن تمارس على الأهل من الخارج ، (أماكن العمل ، اشتراك في النقابات ، الخ .) وعلى الأبناء (مؤسسات التعليم والزلاء الذين يتلاقون فيها) . وتستمر أسرُ بعض الأوساط فقط (من الطبقات الوسطى من جهة ، والفلاحين من جهة ثانية) في تثقيف هذا النوع المعرفي .

عما لا ينكر أن سير الأسرة يستوجب إدخال المعرفة السياسية ، إذا عني بذلك من جهة الأقارب والأهل ، معرفة الاستراتيجية التي ينبغي الاعتماد عليها في تربية أبنائهم وتأهيلهم ، وعني بها من جهة الأبناء معرفة وسائل حصولهم من أهلهم على أقصى حدٍّ من الحرية .

في المقابل إذا أخذنا المعرفة السياسية بمعناها الأعم والأشمل ، التي تتضمن بوجه خاص اتخاذ مواقف سياسية محضة ، ومعرفة القواعد الاستراتيجية الواجب اعتمادها بخصوص المجتمع الشامل ، فليس من المؤكد أنها تحتل ، حالياً في تجمع الأسرة مكانة هامة كالتي كانت تشغلها في الماضي ، حينما كان التجمع خاضعاً لتقاليد بعيدة وبالتالي متواصلة . ولا ريب في أن ذلك كان حصيلة لحركية محدودة جداً في الوضع الطبقي للأسر . ومن المعروف اليوم أن الحركية صارت أعظم من جهة ، وأن تواصل المعارف السياسية ، في مستوى اجتماعي متساوٍ وفي المعنى الواسع للكلمة صار منقطعاً . من جهة ثانية . ولم يكن من النادر في نهاية القرن التاسع عشر وفي مستهل القرن العشرين أن نرى أبناء أشهر الأسر المحافظة في بريطانيا العظمى ينتقلون إلى الحزب العمالي وحتى أنهم يصبحون أحياناً من زعمائه . كذلك رأينا في فرنسا أبناء أسر بورجوازية واعية جداً يصبحون مناضلين اشتراكيين وعلمانيين مثلما رأينا في

المقابل أبناء أسرى اشتراكية ينتمون للعمل الفرنسي L'Action Française

نشهد إذن ، كما يبدو ، انخفاضاً متدرجاً في أثر الأسرة على المعرفة السياسية (بالمعنى الواسع) لدى أفرادها وأحفادها ؛ إلا أن هذا المسار الذي تصاعد بوجه خاص في القرن العشرين ، قد بقي محدوداً على الرغم من كل شيء .

يمكن أخيراً أن نلاحظ الأهمية المتزايدة لبعض المعارف التقنية في سير الأسرة . ولو على مستوى أولي . . مثال ذلك أن استعمال الأدوات المنزلية والآلات ذات المحركات يستلزم حداً أدنى من المعلومات .

من الواضح أن الأنواع المعرفية الأخرى ، لا سيما المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية لا تحظى بتشجيع ملحوظ في الإطارات الاجتماعية الأسرية . أما المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، فهي لا تدخل إلا في بعض الإعتبارات من النمط العملي ، المتعلقة بوضع الحي وبالأخص بمساحة المنزل وتدبيره ، وبالمسافة التي يجب على أفراد الأسرة قطعها حتى يصلوا إلى أماكن العمل .

إن الأنواع المعرفية الأكثر رواجاً في الأسر الحالية تشدد بوجه خاص على الأشكال التجريبية والوضعية ، في حين أن الأشكال الأخرى تكون وسيطة بين الرمزي والمتناسب ، وتتقبل اقترانات شتى بين الجمعي والفردى ، وكذلك بين الصوفي والعقلي .

الخلاصة أن الأسرة بوصفها بؤرة للمعارف ، لا تبدو ذات غنى كبير : وعليه فهي غير جذابة كثيراً لإجراء دراسة اجتماعية للمعرفة . ومرد ذلك إلى واقع أن هذه الجماعة نجدها اليوم على الأقل ، خاضعة ومنفتحة جداً على التأثير المعرفي للطبقات والمجتمعات الشاملة التي تندرج فيها .

الفصل الرابع

التجمعات المحلية الصغيرة النطاق ومعرفتها

يتبدل الوضع قليلاً مع « التجمعات المحلية الصغيرة النطاق » (دساكر ، قرى ، الخ .) . فمهامها ليست متعددة الوظائف دائماً وحسب لكنها تمتنع على التحديد بوضوح . وبالتالي فإن تأمين النظام وشرطة الجوار الحسن يعني تأمين نشاطات اقتصادية وإدارية شتى وتنظيم العلاقات مع تجمعات محلية أخرى من النوع نفسه ، الخ ، هما من « المهام الواجب إتمامها » والتي تتقبل مفارقة واضحة . ومن جهة ثانية تنزع هذه التجمعات ، عادة ، إلى تشجيع تحقق الجماعيات في داخلها على حساب الجماهير والمتحدات . من هنا نشأ ، جزئياً ، خطأ معظم علماء الاجتماع الأميركيين ، السالف الذكر ، العلماء الذين يخلطون بين التجمعات المحلية الصغيرة النطاق وبين الجماعيات ، في حين أن هذه التجمعات لا تستطيع في بعض فترات التاريخ ، وحسب الظروف (حروب ، ثورات ، حركات تحرير ، الخ .) أن تقاوم انبثاق المتحدات أو انحلال المتحد إلى جمهور . والحال . من الضلال أن نطبق مباشرة على التجمعات المحلية استنتاجاتنا المتعلقة بالجماعيات ، مثل انفتاحها على المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . وهناك عوامل أخرى تتدخل بدءاً من بنيتها وتنظيمها .

وإذا وضعنا جانباً تأثير الطبقات الاجتماعية والمجتمعات الشاملة ، فإن التجمعات المحلية الصغيرة النطاق تظل بؤراً ومواطن لمعرفة أداركية خصوصية للعالم الخارجي . إن الميادين التي يقع فيها العالم هذا ، هي أولاً

ميادين أنوية مركزية : ميادين الحداثق ، الجنائن ، الحقول ، الغابات ، الطرقات ووسائل الإتصال مع الأماكن المجاورة والمدن الصغرى حيث تقام الأسواق . إن العالم الخارجي ينزع إلى التراخي والإتساع . لكنه في الوقت نفسه يخشى عليه الإنتقال إلى ميادين شاسعة عندما يكون الأمر متعلقاً بالأواصر مع المدن الكبرى ، مع الدولة وعاصمتها (حيث توجد مراكز التنظيم الإداري والسياسي) .

إن الزمان الذي يتحرك فيه العالم الخارجي ، الذي تعرفه التجمعات المحلية الصغيرة النطاق ، هو الزمن الموسمي أولاً (وبالتالي هو الزمن الدوري) وهو الزمن الطويل الأمد ، وهذان الزمان يتداخلان هنا . بيد أنه لا بد من الاعتراف بأن التجمعات المحلية تطبق على هذه الأزمنة ، مثلما تطبق على الأماكن الخاصة بها والتي تعرفها في المقام الأول ، الضياعات المنهزمة والمقاييس التي تأتيها من الدول والكنائس ، أو بوجه أعظم من للتجمعات الشاملة حيثما تكون مندرجة . حيث ترى نفسها مرغمة على كبت مياديينها وأزممنتها الملموسة والتنوعية التي تظل ، مع ذلك ، متعلقة بها .

كذلك فإن هذه التجمعات المحلية الضيقة النطاق هي مواطن لمعرفة الحس السليم المتكيفة مع طريقة عيشها وحياتها . ففي عاصفة الحياة الحالية حيث تعتبر معرفة الحس السليم في طريقها إلى التضاؤل أن لم نقل في طريقها إلى الزوال ، فإنها غالباً ما تجد في هذه التجمعات ملاذها الأخير ، ذلك لأن الأسر انقطعت تدريجياً عن الإضطلاع بهذا الدور .

من الممكن الافتراض أن الدساكر الصغيرة والقسرى ، حيث تكون علاقات الجوار وطيدة جداً ، هي مواطن معرفة معمقة للآخر والجماعات . والحال ، فإن أبحاثاً حديثة تنفي هذا الافتراض . فالآخرون يظهرون كأنداد للشخص الذي يعرفهم ؛ والمعرفة المزعومة التي يملكها عنهم تتركز على تماثلهم معه وتطابقهم مع القوالب المتأتية من المجتمع الشامل في أغلب

الأحيان ٥ . من البين تماماً أنه من الصعب جداً الحكم على ما إذا كان المقصود بذلك هو تفكك الحياة الداخلية الفكرية والخلقية في الدساكر والقرى (حيث يلعب التلفزيون والراديو دورهما بين أمور أخرى) أم إذا كانت علاقات التجاور البسيط ، المميز لهذه الجماعات ، مؤاتية نسبياً لمعرفة الآخر بوجه خاص . *

إن الدساكر والقرى تعمل أيضاً كمواطن للمعارف التقنية . والمقصود هنا بوجه خاص هو تكيف المعارف التقنية ، المتعلقة بالزراعة ، بالحاجات الخاصة بالتجمعات المحلية . وإن إدخال تقنية أخرى ، مثل الأسمدة والجرارات بالطبع ، التي بدأ استعمالها بالانتشار ، لا بد أن يعزى إلى تأثير المجتمع الشامل .

أما المعرفة السياسية ، سواء تعلق الأمر بالتكتيك الخاص بالحفاظ على علاقات حسنة مع الجيران أم بالمشاركة في حياة البلد السياسية (من الانتخابات البلدية حتى الانتخابات التشريعية ، الخ .) فإنها تشرع في الظهور إنطلاقاً من الجماعات المحلية ، ويمكن لهذا الأمر أن يشكل نقطة انطلاق لما يسمى « الجغرافية الانتخابية » والتي ينظر بها نظرة ضيقة في الغالب .

من نافل القول التشديد على كون التجمعات المحلية الصغيرة النطاق لا تشكل مواطن للمعرفة العلمية ولا للمعرفة الفلسفية .

وأما الأشكال المتحققة في الأنواع المعرفية التي ولدتها الجماعات الريفية ، فإنها تمتاز بهيمنة العقلاني والتجريبي والوضعي ؛ وإن تحقيق هذه الأشكال يقربها من الأسر ، لكن توطيد الرمزي والجماعي يميزها عنها .

(7) استطلاع اجتماعي حول معرفة الآخر ، قام به جان كازينيث وموكور والبيريمي ، راجع الملحق في آخر الكتاب .

الفصل الخامس

المصانعُ والمعرفة

لن نتوقف إلا قليلاً جداً عند المصانع والمشاغل (في بعض الأحيان يتألف المصنع من عدة مشاغل) بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة⁽⁸⁾ . ومن جهة ثانية ، لن نتناولها إلا من إحدى زواياها ، نعني زاوية جماعات الشغيلة ، الماهرين أو غير الماهرين ، زاوية الأيدي العاملة التي تسير آلات أوتوماتيكية أو غير أوتوماتيكية ، وأخيراً من زاوية الفِرَق التي تنفذ أعمالاً بالسلسلة أو بالتعاون في نفس المهمة .

وفي هذه الجماعات تكون المعرفة التقنية - مهما بلغ دنو مستواها - متكيّفة مع العمل المرتبط بالآلات ، مثلما تكون متكيّفة مع المجهود المبذول لاجتناب كل حادث عمل وكل صعوبة في التعاون بين رفاق الفرق . إن هذا النوع من المعرفة ينزع هنا إلى الهيمنة .

بعد ذلك مباشرة تأتي المعرفة السياسية ، المفهومة أولاً بوصفها تكتيكاً

(8) على الرغم من وفرة الأدبيات ، المتفاوتة النوعية ، المخصصة (علم الاجتماع الصناعي) ، وهاكم جانباً من هذا « الفرع الجديد » في علم الاجتماع لم يتعمق أبداً . ذلك أن معظم ممثلي الأميركيين ، شيمة زملائهم الفرنسيين ، متهمون بوجه خاص بتبيان أن النزاعات التي تطرأ في ظل النظام الرأسمالي في المصانع والمشاغل تنحل من تلقاء ذاتها . . . بفضل سياسة حكيمة لأرباب العمل تقوم بتحسين شروط العمل . أنظر بهذا الصدد :

— Alain Touraine , De l'ambiguïté de la Sociologie industrielle americaine , In cahiers Internationaux de Sociologie , vol . XII , 1952.

ولكن في هذه الدراسة ، ولا في سواها ، لم يطرح موضوع بوصفه إطاراً اجتماعياً للمعرفة .

للتكيف مع مزاج المتعاونين في الفرقة والمعلمين أو المهندسين . من هذه الزاوية ، تتصل بنوع من معرفة الحس السليم متصلة ، ليس بالتراث ، وإنما بجو المصنع الخاص . ويمكن لهذه المعرفة السياسية المتخصصة أن تدخل أحياناً في نزاع مع المعرفة السياسية ، على المستوى البروليتاري والقومي ، وانطلاقاً من ذلك مع موقف النقابات واجهزة التمثيل العمالي . لكن بين هذين المعلمين للمعرفة السياسية يتدخل معلم ثالث : طريقة التعبير عن الإستياء ، التعب والمعارضة الفطرية للنظام الإستبدادي في المصانع . إن هذه الكيفية الخاصة بالمعرفة السياسية تساهم في التوفيق والدمج بين المعلمين الآخرين .

هنا أيضاً تكون المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي خصوصية . فهي تتعلق بالعالم الخارجي المميز للمشغل ، للمصنع وللمنشأة أخيراً . وأغراضه هي الأماكن ، الآلات ، المكاتب ، - بما فيها مكاتب المدراء والمهندسين - القريبة والبعيدة جداً في آنٍ عن العمال والميادين الملموسة والأزمة الخاصة حيث تجري أعمالٌ وحياةُ العمال المشاركين في الفرق ، الذين يعملون بالسلسلة أم لا ، وأخيراً المسافات التي يجب على العمال اجتيازها للإلتحاق برؤسائهم ، والآلات اللازم استعمالها ، والزمن الواجب بذله ليصلوا من مكان إقامتهم إلى مكان عملهم .

إن مكانية الميادين وكمية الزمان ، المجتلبتين من المجتمع الشامل المقابل ، إنما تتدخلان بكثافة خاصة في هذا المعلم الأخير للمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، الخاص بجامعات العمال العاملين في المصنع .

في هذه المنظومة المعرفية . تأتي معرفة الآخر والنحن في المقام الأخير ، نظراً لاستعباد العمال تجاه الآلات ، ولإدارة التقنيين المتخصصين ، وأخيراً لمدراء المصانع . أنها جوهرها معرفة لسلوك الرفاق في العمل ، ولسلوكلهم تجاه النقابة أحياناً - أو النقابات إذا كان هناك عدة نقابات - أو حتى عند اللزوم معرفة لسلوكلهم خلال اضطراب ما . ومن البين أنه في ظل نظام للتسيير الذاتي

العمالي والجماعية اللامركزية ، يمكن لمعرفة الآخر هذه من خلال شخص المشاركين في الفرق العاملين لنفس الغاية ، أن ترتدي أهمية كبيرة جداً . ولا يكون لها أهمية نسبية جداً في ظل الرأسمالية المنظمة .

وفي أنواع المعارف التي يكون المصنع موطناً لها ، يكون التشديد بوجه خاص على الأشكال المناسبة ، العقلانية ، التجريبية ، الوضعية والجماعية . يشذ عن ذلك المعرفة السياسية ، في مستوى المعارضة العفوية للتسيير الاستبدادي في المشغل أو في المصنع . وكذلك في المستوى النقابي والبروليتاري للكفاح ضد البنية الشاملة للمجتمع ، في ظل النظام الرأسمالي في أي مرحلة من مراحلها . ويمكن للأشكال الخاصة بهذه المعرفة السياسية أن تتميز بتشديد هام نسبياً على التنظير ، الرموز ، والأسطورة بالذات ، دون أن تضع مع ذلك المعالم العقلانية ، الحسابية ، والمناسبة .

الفصل السادس

الدولُ ومنظوماتها المعرفية

إن الدول بوصفها كتل تجمعات محلية ليست مع ذلك ذات وظائف عليا ، وإنما تبقى ، مثل التجمعات ، متعددة الوظائف . فهي تمثل بكل أنواع المعرفة وأشكالها إطارات إجتماعية أكثر غنى وتنوعاً من الإطارات التي اهتمت بها حتى الآن . غير أنها لا تستطيع ، في أية حالة ، أن تنهض مع المجتمعات الشاملة التي تشكل الأمم في الأزمنة الحديثة . فالدول ، من حيث هي ظواهر اجتماعية كلية جزئية ، هي مجتمعات سياسية تفصح عن نفسها في بنى خاصة ، وتتراكب فوقها أجهزة منظمة تمارس قسراً غير مشروط ، معروف بإسم السيادة السياسية . ولا تملك المجتمعات السياسية ولا بنائها ولا أجهزتها المنظمة كفاءة عالمية ، حتى عندما تدعي ذلك . فكفاءتها مهما بلغت ، تأتيها نسبتها من المجتمع الشامل ، الذي يمثل وحده السيادة الحقيقية ويسعى للحفاظ على سيادته الاجتماعية .

من جهة ثانية كانت الدول ، منذ نشوء التصنيع ، تنزع إلى أن تصبح أدوات هيمنة في أيدي الطبقات . لهذا فإنها تعيش دائماً (بمعزل عن العلاقات الدولية ودون الكلام على إسهامها أو عدم إسهامها في تحالفات حقوقية أو واقعية بحيث صار من المألوف التدليل عليها بعبارة التكتلات الدولية⁽⁹⁾) ، في جو متوتر جداً ، مليء بالنزاعات الداخلية ، مثلما يدل على ذلك دلالة جزئية

(9) كنا نفضل استعمال عبارة «المجتمعات الدولية» . نظراً لأنه كان عدة مجتمعات دولية على مر العصور .

تنازع الدولة مع التجمعات المحلية المختلفة النطاقات (بما في ذلك المدن الكبرى والمناطق) والتوترات بين الأجهزة العامة ، أو بين مجموعها وبين الجيش ، والتعارضات بين الأجهزة التشريعية الإدارية والقضائية ، والتي يكمن جانب آخر منها في المصاعب التي تنبثق بين الدولة والتجمعات الاقتصادية والنقابات والكنائس ، دون الكلام على التعارضات التي تثيرها للدولة الطبقات الاجتماعية خارج السلطة .

يضاف إلى هذا الوضع المعقد متغيرات الدولة ، وفقاً للأنظمة السياسية المختلفة . فهذه الأنظمة تكون ديمقراطية بقدر ما تكون أجهزتها المنظمة منفتحة أمام تفاضل بنى المجتمعات السياسية ، ومن خلالها ، تكون منفتحة أمام المجتمعات الشاملة الكامنة وراءها . إن الملكية الوراثية ، الملكية المطلقة ، الملكية الدستورية والبرلمانية ، الديمقراطية الليبرالية ، الديمقراطية الشعبية ، التكنوقراطية البيروقراطية (المرتبطة غالباً بالفاشية) . الجماعة المركزية ، الجماعة اللامركزية القائمة على التسيير الذاتي العمالي ، إن هذه كلها توجه المنظومة المعرفية التي تتطابق مع الدولة ، أي تلك التي تكون الدولة موطناً لها ، في اتجاهات مختلفة . وإننا في القسم الرابع من هذا الكتاب ، المخصص لانمط المجتمعات الشاملة وللمنظومات المعرفية المتطابقة معها ، سنرى تجدد ظهور مسألة الدور الذي تضطلع به شتى الأنظمة السياسية في المعرفة . إلا أنه يبدو لنا ، نظراً لأن الدولة التي نعتبرها تجمعاً خاصاً بين تجمعات أخرى ، من الضروري أن نعطي ، منذ الآن ، بعض مميزات المنظومات المعرفية المتطابقة مع الإطارات الاجتماعية المعروفة بإسم « الدول » .

فالدولة ، بوصفها مجموعة تجمعات اقليمية ، متعارضة مع دول أخرى وتحافظ بغيرة على حدودها ، تعطي أهمية أولية للمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، وبما أن مرتكزها هو الأقليم الذي تشغله ، فإنها تضعه في ميدان غيري (وهذا أمر يشدد عليه بوجه خاص في حالة « الإنعزالية ») . وهي بقدر

ما تتعارضُ مع دول أخرى ، تضعُ العالم الخارجي في مدان مركزي الذات . وأخيراً . عندما تتحالفُ مع دول أخرى ، وعندما تدخل في « تكتلاتها » أو عندما تتعارض معها ، فإن العالم الخارجي الذي تعرفه نجده موضوعاً في آن واحد في ميدانٍ اسقاطي ومراكز Concentrique . وهذا يتحقق أيضاً من حيث نشاطها العسكري الذي كان يتضمن ، في الماضي ، إنشاء حصون وخطوط محصنة ، ويشتمل اليوم على بناء الطائرات ونتاج القنابل الذرية وإطلاق الصواريخ العابرة للقارات أو للكواكب .

وبالطبع ، تزداد الدولة في معرفة العالم الخارجي أيضاً من الزاوية الاقتصادية ، زاوية المواد الأولية المتوفرة ، والمناطق الخصبة أو المؤاتية بخاصة للصناعة (من هنا نشأت مسألة « إصلاح الأرض ») ، أول للسباحة . والشيء نفسه يصحُّ بالنسبة الى المبادلات التجارية ، « للتنافس السلمي » أو بالنسبة الى « السوق المشتركة » (اذا تحققت ذات يوم)⁽¹⁰⁾ . ان الميدان ، المنظور اليه من هذه الزوايا الأخيرة ، والذي يقع العالم الخارجي فيه ، يتراخى الى أن يصبح مستقبلياً .

إن الدولة ، بوصفها بذرة اجتماعية ، تفسح المجال إذن أمام معرفة إدراكية خاصة للعالم الخارجي وللميادين التي يوضع هذا العالم فيها ، وهي معرفة معقدة بوجه خاص ، وتزداد تعقداً من جراء الكثرة والتنوع في وسائل الإتصال التقنية التي تملكها الدولة وتستخدمها فوق أراضيها . تضاف إلى

(10) يعتقد واضح هذا الكتاب أن « السوق المشتركة » لا يمكن تحقيقها إلا في ظل نظام الجماعة اللامركزية ، إذا تمكنت من القيام في كل البلدان الأوروبية غرباً وشرقاً أي في فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والدانمارك وبريطانيا والسويد والنرويج وفنلندا وألمانيا الديمقراطية والائحادية ، كما في الإتحاد السوفييتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا . ومن الواضح أن هذا الأفق ليس للغد القريب . ولكن قبل تحقيقه يبدو الكلام في موضوع « أوروبا » و « السوق المشتركة » أما طوباويات خالصة وأما أقنعة تخفي وراءها أشكال جديدة من الإمبرالية الاقتصادية لبعض أعضاء « السوق المشتركة » المزعومة .

ذلك تقلبات الأزمنة الاجتماعية التي تسود في داخلها وانعكاسها على العالم الخارجي المعروف .

وبقدر ما يتعلق الأمر بمعرفة الدولة المدركة للعالم الخارجي يكون الزمان المتعلق بالحاضر والمستقبل القريب ، هو السائد عادة . ومن جهة ثانية تلجأ الدولة إلى تكميم الأماكن والأزمنة التي تقاوم لأجلها ، وذلك لضمان انتظام سيرها ولمعالجة تعقد معرفتها للعالم الخارجي . وبذلك تضع عدة معايير ومقاييس ، تؤدي إلى « مراجع مكانية - زمانية » وإلى التفاويز .

إن الأشكال المشددة في هذا النوع المعرفي هي بوجه خاص : الأشكال الرمزية المدركة . الجماعية ، الوضعية والعقلية ، ما خلا النوع السائد في الثيوقراطيات الزعائمية الباهرة ، حيث يستبدل الشكلا الأخران بالشكلين النظري والصوفي .

إن النوع المعرفي الثاني الذي يلعب دوراً أساسياً في المنظمة المعرفية التي تكون الدولة إطارها ، هو المعرفة السياسية بكل وضوح . إن حيابة السلطة السياسية وممارستها تستلزمان استعمال وسائل تكتيكية لتدبير الإحتمالات وإشباع المتطلبات في شتى المناطق ، والأجهزة العامة والتجمعات ، دون الكلام على مختلف الطبقات الاجتماعية (في حال تكونها) والأحزاب السياسية عندما تستطيع الإفصاح عن ذاتها . ولا بد للقادة ، حتى في الأنظمة الاستبدادية والديكتاتورية ، من « معرفة سياسية » لكي يبقوا في السلطة ويحافظوا عليها . والأشكال المنشودة داخل هذه المعرفة تتغير بتغير النظام .

يمكن لمعرفة الحسن السليم أن تلعب أو ألا تلعب دورها في المنظومة المعرفية التي تكون الدولة موطناً لها . ويمكنها تارة أن تندمج مع المعرفة السياسية لدى القادة . وتارة أخرى أن تعزز معرفة المعارضة لنظام سياسي معين . إن معرفة الحسن السليم ، وهي اليوم في تراجع سواء في المجتمع

الشامل أم في جزء كبير من التجمعات الخاصة ، تلتجى ، فيما يختصُ بآلة الدولة إلى بعض الأجهزة العامة الخاصة وإلى « الأجسام المتكونة » . هناك مثلاً حسُ سليم في مقررات مجلس الدولة - المجلس الإداري الأعلى في فرنسا ، أو المجلس القضائي الأعلى في الولايات المتحدة (الذي له صلاحيات أوسع بكثير من صلاحيات مجلس الدولة الفرنسي) - أكثر مما يوجد في القرارات الإدارية الحكومية . لكن ، عندما تتجلى معرفة الحس السليم في الأجهزة العامة ذات الصلاحيات المحدودة جداً (مثل البريد والبرق والهاتف ، المؤسسة الوطنية لسكك الحديد ، الخ) ، فإنها غالباً ما تتبدل من جراء الرتابة والعقلية البيروقراطية .

عادة تلعب المعرفة التقنية دوراً هاماً في الدولة . فالأمر لا يتعلق فقط باستخدام المادة (لا سيما القوي المنتجة) ، بل يتعلق أيضاً بقيادة الناس والمجتمعات . فللدول منذ نشأتها اليد العليا على أدوات الدمار والجيش التي تلم بها . ولقد أنضاف إلى ذلك استخدام الملاحة التجارية (المدن القديمة) والزراعة (في الدول الشيوعية - الباهرة ، والدول المالكة والإقطاعية) والمانيفاكتورات الصناعية (دول بداية الرأسمالية) واليوم « تخطيطات وإصلاحات الأراضي » (دول متطابقة مع الرأسمالية التوجيهية المنظمة) . وفي الوقت نفسه . تدخل استعمال جهاز الدولة التقني - البيروقراطي الضخم ، الأشد اتساعاً وقوةً من أي وقت مضى . وبالطبع ، متنوعة جداً هي دقائق اشكال المعرفة التقنية التي تكون الدولة موطناً لها .

للهولة الأولى . لا تبدو جميع الأنواع المعرفية الأخرى ، حتى معرفة الآخر والجماعات ، دون الكلام على المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية ، لا تبدو ذات صلة مباشرة بالدولة ، إلا أن هذه الرؤية الأولى خادعة . .

ومثال ذلك أن المعرفة السياسية ومعرفة الحس السليم تتضمنان معرفة الآخرين والجماعات (بما في ذلك التجمعات والطبقات الاجتماعية ، عندما

تكون موجودة) . وأكثر من ذلك ؛ إن المعرفة الفلسفية ، دون أن تتقابل إلزاماً مع الدولة والنظام السياسي السائد مؤقتاً ، يمكنها أن تعاني من تأثير الدولة تارة ، وإن تؤثر عليها تارة أخرى . وهكذا يمكن لفلسفات اجتماعية - سياسية أن تستخدم كمبرر للأنظمة السياسية أو بالعكس يمكن أن تسهم في القضاء عليها . ومما لا شك فيه أن فلسفات ليبرالية ، ديمقراطية ، اشتراكية ، شيوعية أو فاشية ، يمكنها التأثير على الأنظمة السياسية الأكثر تعارضاً معها ، وذلك باستثارة ردات فعلها العنيفة أو أزماتها وحتى انهيارها في الظروف المناسبة . هنا يمكن للمعرفة أن تثار لنفسها من الإطار الاجتماعي حيث تثبت أركانها : وأن الترابط الوظيفي بين المعرفة والإطار الاجتماعي المقابل لها ، ينقطع لصالح المعرفة .

كذلك لا يجوز أن ننسى أنه يمكن للدولة التدخل الواعي في تطور المعرفة العلمية والفلسفية (كما يمكنها ذلك في مجال المعرفة التقنية أو بالحري ، المعرفة « التكنولوجية » في هذه الحالة) ، وذلك بقيامها بمبادرات تتعلق بسير مؤسسات التعليم ونشر المعرفة وتنظيم البحوث العلمية المبكرة ، وأخيراً بإنشاء مؤسسات تربوية جديدة ، موسومة بعقلية أكثر حداثة . هذا هو ما حدث منذ بداية الرأسمالية في أواخر القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ، حيث كان يجب على الدولة لكي تكافح هيمنة الكنيسة الكاثوليكية على درجات التعليم الثلاث - وهي كلها خاضعة للبيان والتعليم المدرسي اللذين تم تجاوزهما في الحياة الاجتماعية منذ أمد بعيد - أن تقدم على إجراءات هامة ، وكان تدخل الدولة لتحديث التعليم قد بدأ منذ القرن السادس عشر مع إنشاء « الكوليج دي فرانس » ، المكلف بإدخال روح النهضة في الأوساط الجامعية ، متنافساً في ذلك مع السوربون ، الغافية تحت أوزار التعليم المدرسي La Scolastiques وحدث هذا الحذو الأكاديمية الفرنسية التي انشئت عام 1634 في عهد لويس الثالث عشر ، وبمبادرة من ريشليو . وبفضل إلحاق كولبير ، نشأت في عهد لويس الرابع عشر : « أكاديمية الخطوط والفنون الجميلة » عام

1663 ، و«أكاديمية العلوم» عام 1666-1669 . ولقد استخدمت هاتان الأكاديميتان الأخيرتان موطناً لنشر فلسفة ديكرات أولاً ، وفلسفة «عصر الأنوار» ثانياً ، وتعميمهما في أوساط الأنثليجنسيا الفرنسية . « في الوقت نفسه » جرى تأسيس مدارس التعليم التقني العالي : « مدرسة المناجم . . . مدرسة الجسور والطرق » ، « المدرسة البحرية » ، « مدرسة الرماية » الخ . وأن علمنة كل التعليم العام ، وفصل الدولة عن الكنيسة ، لا سيما في مجال المعرفة وتعميمها وفي التعليم ، اللذين اعلنتهما الثورة الفرنسية ، إنما جاءا متممين لعمل كان قد بدأ في ظل العهد القديم . ومن جهة ثانية قامت الدولة الثورية ذاتها بإنشاء فرع هام ، عام 1795 ، من المعهد الحالي : « أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية » . وفي العام نفسه ، أبصرت النور « أكاديمية الفنون الجميلة » ؛ وهذا أيضاً من إبداع الثورة .

من اليين في الحالات الأخيرة التي أتينا على ذكرها ، أن الدولة لا تتدخل بوصفها إطاراً للمعرفة السلفية ، بل كمنشيء لمواطن مبتكرة غايتها الحضر على ترقى منظومة معرفية جديدة .

إن هذه الإشارات إلى دور الدولة في المعرفة لا يمكنها إلا أن تكون وجيزة ؛ وسوف نرى متجسدة في القسم الرابع من هذا الكتاب ، حينما سنتناول المجتمعات الشاملة من مختلف الأنماط بوصفها إطارات للمعرفة ، المجتمعات والبنى التي تعمل الدول في داخلها ، وهي دول مختلفة التنظيم متنوعة الأنظمة ، تلعب أدواراً خاصة بوصفها إطارات اجتماعية للمنظومات المعرفية .

الفصل السابع

الكنائسُ ومنظوماتها المعرفية

لا يمكننا أن نختم هذا القسم من كتابنا دون التوقف عند هذه الكتل لتجمعات متعددة الوظائف التي ترتدي في المجتمعات التاريخية رداءً أوسع بكثير من الدول في أغلب الأحيان . إنها الكنائس ، الممثلة للديانات العالمية ، ومنها النصرانية والإسلام والبوذية واليهودية (m) . وإننا إذ نعتبر الكنائس كمواطن للمنظومات المعرفية ، فسوف نترك جانباً كل ما يختص بالعلاقات بين الكنيسة أو الكنائس والدولة (وهي علاقات يمكنها أن تنطلق من التاهي ، كما هو الحال في الشيوقراطيات ، إلى الفصل الكامل في الديمقراطية الليبرالية أو التوجيهية والأنظمة الجماعية المركزية أو اللامركزية) .

إن الكنائس بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة تتوقف في المقام الأول على طابع معتقداتها المنزلة ، وعقائدها والمنتسبين اليها والطقوس المفروضة على المؤمنين ، وعلى ممارسات هذه الطقوس ؛ وهي تتوقف في المقام الثاني على اتساع المتحدات الصوفية التي تتجسد فيها ؛ وهي تتوقف أخيراً على البنى والتنظيمات المناسبة مع هذه المعتقدات والعقائد والطقوس والممارسات . وسوف نكتفي بمثال ثلاث كنائس مسيحية ، الكنيسة الكاثوليكية ، الكنيسة

(11) ليست البرهمانية ديناً عالمياً حتى الآن لأنها لا تتخطى الهند في الواقع . وهذا ما يصح أيضاً على الكونفوشيوسية أو على نقيضها ، الطاوية (ومؤسسها لاوتسي) فهذان الدينان لا يتعديان الصين والمناطق الواقعة تحت نفوذها ، في حين أن البوذية منتشرة في الجزء الأكبر من آسيا .

الأرثوذكسية والكنيسة البروتستانتية ، وسوف نوجزُ كثيراً لأن هذا المجال لا يدخل في اختصاصنا بوجه خاص .

إن المنظومات المعرفية المتوافقة مع هذه الأطارات الاجتماعية الثلاثة هي أبعد ما تكون عن التماهي ، كما سنسعى لتبيان ذلك في تحليلنا التالي :

أ) الكنيسة الكاثوليكية ونظامها المعرفي

إن المعرفة اللاهوتية - الفلسفية هي السائدة في المنظومة المعرفية المتوافقة مع الكنيسة الكاثوليكية حيث تبلغ درجتها العليا من الإرصان والثبات . ومرد ذلك إلى كونها تؤكد معتقدات تكمن خصوصيتها بالنسبة إلى الفرعين المسيحيين الآخرين في التشديد على التسامي المطلق للثالوث المقدس ، حيث تبرز بدقة الأشكال العقلية ، المدركية ، والجماعية للمعرفة ، في حين تكون أشكال المعرفة الصوفية ، النظرية والرمزية مخفوضة فيها قليلاً . ويقترن هذا الميلُ مع بنية مستقرة بوجه خاص ومع تنظيم صلب جداً ، متميز بمجهود كبير في سبيل العالمية . ومن جهة ثانية ، تبقى هذه المعرفة وقفاً خاصاً على الأكليروس وهرميته المعقدة ، ففي القرون الوسطى ، مثلاً ، كانت وقفاً على الجامعات وهي آنذاك من المؤسسات الكنسية ، واليوم أيضاً لا تكاد تطول المؤمنين العاديين . وهذه الملاحظة يؤكدُها كون الكنيسة الكاثوليكية تشدد من ميلها إلى العالمية ، كلما ضعفت المتحدات التي تثيرها لكي تتلاشى في جماعيات ، وحتى في جماهير المؤمنين .

أما النوع المعرفي الثاني الذي نراه يضطلع بدور كبير في منظومة المعرفة التي تكون الكنيسة مركزاً لها ، فهو نوع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي التي يكون مركزها في الفاتيكان . إن القول الشائع في القرون الوسطى : « كل الدروب تؤدي إلى روما » ، يعبر عن واقعة لا تزال صالحة اليوم : فالكنيسة الكاثوليكية تضع العالم في ميادين اسقاطية ومستقبلية تتوجه إلى الفاتيكان . إنه الميدان المتوافق مع اتساع الكنيسة ، ومع صلاح معتقداتها

وطقوسها ورموزها وممارساتها ، وكذلك مع منظوراتها المستقبلية : منظور تحول الكافرين بالأمس ؛ ومنظور إعادة دمج الأرثوذكس والإصلاحيين اليوم . هنا ، لا تتدخل معرفة الزمان إلا تدخلاً نسبياً جداً ، لأن هذا الزمان الدوري للطقوس والتقاويم الدينية ، هو السائد .. في المقام الثالث ، تلعب المعرفة السياسية هي أيضاً دوراً كبيراً في هذا النطاق ، ذلك أن سير الكنيسة الكاثوليكية ، من حيث تنظيمها الواسع والرتبية المعقدة للأكليروس وكل العلاقات المعقدة القائمة بين مختلف المراتب الكنسية ، يفترض معارف تكتيكية مناسبة ، التي تكون غالباً ضمنية أكثر مما تكون صريحة . علاوة على ذلك فإن هذه المعرفة التي أصبحت ضرورية بحكم النزاعات الكثيرة على مرّ العصور التي وضعت الكنيسة الكاثوليكية مقابل الدولة والتجمعات العلمانية الأخرى ، دون الكلام على علاقاتها المتوترة نسبياً أو المتوجهة حالياً نحو الوفاق والتفاهم مع الفروع المسيحية الأخرى .

جرى في المجتمعات الإقطاعية وضع بعض معالم هذه المعرفة السياسية في عقائد سياسية شهيرة⁽¹²⁾ . لا يجوز أن ننسى في هذا الصدد أيضاً أنه في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تأثرت عدة تيارات عقيدية بالمعرفة السياسية الكنسية : سواء تعلق الأمر بالعقائد المضادة للثورة لدى دي بونالد De Bonald ودي مستر De Maistre ، أم بالعقائد الاشتراكية الموسومة بالسان سيمونية كما في معتقد بوشي⁽¹³⁾ وليرو ، أم تعلق بمفاهيم أشدّ محافظة مثل مفاهيم ف . ليلاي⁽¹⁴⁾ ، وصولاً إلى الكاثوليكية الإجتماعية المتقدمة والحديثة

(12) انطلاقاً من مارسيل بادو ، أول من أعلن مبدأ « سيادة الشعب » كمصدر للسلطة العلمانية ، وذلك بهدف واضح لاختضاع الشعب لسلطات البابا .

(13) راجع حول Buchez أطروحة فرانسوا ايزامبر التي نشر بعضها في مجلة : Les cahiers Internationaux de la Sociologie

(14) راجع حول فريدريك ليلاي Le play مقال السيدة اندريه ميشال ، الأطارات الإجتماعية لعقيدة ليلاي الأخلاقية ، في العدد 34 من مجلة ، Les cahiers Internationaux de la Sociologie 1963 , PP. 47- 48.

من « ثلم » مارك سانجنيه حتى الحركة الحديثة لـ « الرهبان العمال » . هذه كلها مجهوداتٌ للحفاظ على صلة بين المعتقد السياسي الاجتماعي الحديث والمعرفة السياسية الفطرية في الكنيسة الكاثوليكية .

ومما يفاجؤنا هنا أن نلاحظ المعرفة التكتيكية المحض ومختلف العقائد السياسية المستلهمة من الكنيسة الكاثوليكية لا تشدد على شكل صوفي أو نظري ، وإنما بخلاف ذلك تظل بكل جلاء عقلية ، مدركية وحتى وضعية . والأمر لن يكون كذلك بخصوص الكنيسة الأرثوذكسية .

إن معرفة الآخر والجماعات (النحن) لا يمكن رصدها مباشرة في الكنيسة الكاثوليكية بمجملها ؛ فهي محصورة بالأديرة ، واستطراداً بشتى المراتب الكهنوتية . كذلك هو الحال بالنسبة إلى المعرفة التقنية، المأخوذة بمعنى استعمال المادة التي كانت الأديرة والمراتب الدينية في القرون الوسطى رواداً لها . لكن إذا دخل تدبير الناس في نطاق المعرفة التقنية - وهذا هو أحد معالم المعرفة السياسية - ، فإن الكنيسة الكاثوليكية تقدم على ذلك مثلاً مثيراً جداً من خلال سيرها بالذات .

وتتحلّ الأنواع المعرفية الأخرى (معرفة الحس السليم ، المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية حقاً) إنحلالاً تاماً داخل الأنواع السابقة .

ب) الكنيسة الأرثوذكسية ونظامها المعرفي

حين نتنقل من إطار الكنيسة الكاثوليكية الاجتماعي إلى إطار الكنيسة الأرثوذكسية ، يتغير النظام المعرفي تغيراً كبيراً .

فالمعرفة اللاهوتية - الفلسفية لا تزال تشغل المكانة الأولى ، لكنها متجهة في اتجاه مختلف تماماً ، فهي تنزع إلى التوكيد أن خلق الله للعالم لم ينته ، لكنه يتواصل في رعاية الروح القدس : وهذا الروح « يرفع الإنسانية والمجتمع نحو مشاركة في الإيداع الإلهي للعالم ولذاتها » . إن هذه النزعة ،

الوسيلة بين القول بتعالى الله وتلازمه بالنسبة إلى العالم والمجتمع أي بين الربوبية والشرك ، تمنع كل جهود عن البنية وحتى عن التنظيم في الكنيسة الأرثوذكسية .

وهي تتقبل صوراً متنوعة ، يمكنها أن تتراوح بين الإدارة الديمقراطية لكل المؤمنين المجتمعين ، أو على الأقل لكل رجال الكنيسة ، وبين الأبوية أو حتى القيصرية - البابوية البيزنطية ، مروراً بالمجامع مع المنتخبة أو المعينة .

على كل حال ، يمكن للمعرفة اللاهوتية - الفلسفية الخاصة بالكنيسة الأرثوذكسية - وهي معرفة تمتاز بتشديد الشكل الصوفي - أن تمارس أثرها على المؤمنين العاديين وعلى رجال الأكليروس من كل مرتبة . هذا ، مثلاً ، هو شأن الاعتقاد الشائع جداً لدى الفلاحين الروس بأن الأرض التي يفلحونها « لا تعود ملكيتها إلا لله » ، ولكن « يجب أن يشرف على إدارتها أولئك الذين يعملون فيها » . وكان هذا الاعتقاد يؤدي في العهد السابق ، إلى إنكار شرعية حق المالكين ، ويمكنه في ظل النظام السوفياتي الراهن أن يؤدي إلى رفض نسبة الملكية الزراعية للدولة الجماعية المركزية ، وإلى تأييد نزعات التدمير الذاتي « للكونخوزات » إلى الجماعية اللامركزية .

وتأتي المعرفة السياسية ، في المقام الثاني ، في نطاق الكنيسة الأرثوذكسية ، سواء من الزاوية التكتيكية أم من زاوية المثل الاجتماعية - السياسية المتحققة . وهي لا تدخل فقط في العلاقات المعقدة بين الكنيسة والدولة ، وفي السير المتنوع والمتقلب للسلطات الكنسية أو بين مختلف الكنائس الأرثوذكسية ، وإنما تدخل أيضاً في الاتجاه السياسي للمؤمنين ، مهما تكن دقته وشدته .

ومثال ذلك أنه في نظر الكنيسة الأرثوذكسية لا يتعارض المعتقد اللاهوتي إطلاقاً مع مواقف يسارية منطرفة ، وذلك بمقدار ما يكون المجتمع ، برعاية الروح القدس ، مدعواً لمساعدة الله في خلقه الإبداعي

التواصل للعالم ، وللعالم الاجتماعي على وجه الخصوص . وربما يكون هذا الأمر هو الذي يفسر استمرار الأرثوذكسية داخل فئات عريضة من السكان في البلدان الشيوعية . إلا أنه لا مناص من الاعتراف أن ذلك لم يحل أبداً دون اتحاد الكنيسة الأرثوذكسية والمؤمنين فيها ، في بلدان شتى من العالم ، إما مواقف يمنية أو يمينية متطرفة ، وإما الإفصاح عن لا مبالاة سياسية اجتماعية كلية ، وذلك وفقاً للظروف المتبدلة .

ولا تحتل المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، في النظام المعرفي المتوافق مع الإطارات الاجتماعية للكنيسة الأرثوذكسية ، سوى المكانة الثالثة والأخيرة . وبالتالي ، فإن هذه الكنيسة ، خلافاً للكنيسة الكاثوليكية لا تظهر أي نزوع نحو اكتساب الإتياع بحماسة Prosélytisme . يضاف إلى ذلك أن الميادين التي يقع فيها العالم الخارجي يجب عليها أن تُحمي أمام الإيمان ، حسب المعتقدات الأرثوذكسية . ولا مبرر لمعرفة العالم الخارجي إلا بقدر ما يتمكن المجتمع والإنسانية ، برعاية الروح القدس ، من المشاركة في مواصلة إبداء الله لهذا العالم .

من جهة ثانية ، أن التشتت الأكبر للأرثوذكس عبر العالم ، وللكنائس المستقلة التي ينشئونها ، يسهم في وضع العالم الخارجي في مواضع ملتبسة . يضاف إلى ذلك ، أن معرفة الأزمنة التي يتحرك خلالها العالم والمجتمعات البشرية ، تلعب هنا دوراً أهم من معرفة الأماكن والميادين ، نظراً لأن عقيدة الروح القدس تستثير اهتماماً خاصاً جداً بالنسبية إلى زمن المشاركة في إبداء العالم والمجتمع وكذلك بالنسبة إلى الزمن المتقدم على نفسه .

أما الأنواع المعرفية الأخرى ، فنجدها هنا في نفس الوضع التي وجدناها عليه في الكنيسة الكاثوليكية ، وإنما هناك مقارنة كبرى بينهما على صعيد التشديد على الأشكال : فتسود فيها ، بالتالي ، أشكال المعرفة الصوفية والنظرية والرمزية .

ج) الكنائس المستصلحة وأنظمتها المعرفية

يؤدي النظرُ في شتى الكنائس البروتستانتية بوصفها إطارات إجتماعية للمعرفة ، نتائج بالغة الاختلاف عن النتائج التي قادتنا إليها دراسة الكنيستين المسيحيتين الآخرين ، فالمعتقد البروتستانتي لا يرمي ، أولاً ، إلى تكوين منظومة إيمان ، وإن بعض الجماعات من الفرع البروتستانتي ، مثل الكواكرز (Quakers) المنتشرين جداً في الولايات المتحدة ، ينكرون مبدئياً جدوى كل لاهوت . يضاف إلى ذلك أن طقس الإيمان الذاتي الصرف ، والإعتقاد أن الله لا يدركه سوى الوعي الفردي ، أو أنه ملازم له في بعض الأحيان ، مثلما يتلائم مع هذا الوعي النعيمُ والجحيم ، يجعلان من الكنائس البروتستانتية مراكز قليلة التشجيع لنظام خاص من الأنواع المعرفية .

ويبدو في هذا الإطار الإجتماعي ، إنه يتوجب وضع المعرفة السياسية في المقام الأول ، وذلك على الأقل من حيث مظهرها التكتيكي ، كما تتجلى في عدد معين من العلاقات : علاقات الرعاة والمؤمنين ، والرعاة فيما بينهم ومع المجالس الإدارية التي ينتخبها المؤمنون ، وعلاقات الكنائس البروتستانتية المتنوعة فيما بينها ومع الدولة ، وكذلك مع الكنائس المسيحية الأخرى ، وأخيراً العلاقات مع الأحزاب السياسية .

وتحل المعرفة التفسيرية للأناجيل محل المعرفة اللاهوتية - الفلسفية ، وذلك لا يعني أنها لا تتضمن مواقف فلسفية خاصة . وهي تقعُ في المقام الثاني من مقامات هذا النظام المعرفي .

إن الكنائس البروتستانتية لا تؤدي إلى أية معرفة خاصة بالعالم الخارجي ، فهذا العالم ، العلماني والديني ، لا تعترف به كموضوع حقيقي بالمعرفة ؛ وفي المقابل ، إن هذا الرفض الواعي للنظر في العالم الخارجي يؤدي ، داخل الكنيسة ذاتها ، إلى هيمنة معرفة للعالم الخارجي قائمة على إجراءات وتدابير تفرضها الدولة والمجتمع الشامل .

في المقابل ، تبدو المعرفة الفلسفية تحظى بتشجيع الكنائس البروتستانتية بوصفها مواطن للمعرفة ، وكذلك المعرفة العلمية ، والمعرفة التقنية ، التي سجل ماركس من جهة ، وماكس فيبر من جهة ثانية ، ملاحظات متائلة حولها ، وهي بكل أسف ملاحظات تُخصص مكانة كبيرة جداً للإستيحاءات اللاهوتية ذات الأصل البورجوازي ، المؤيدة لتطور الرأسمالية ، ولا تشدد كفاية على بنية ولا حتى على تنظيم الكنائس المستصلحة .

أما فيما يختص بمواقفها الفلسفية ، فإن هذه الكنائس شجعت بوجه خاص الذاتية المثالية وتعابيرها المختلفة (كانط ، شليرماشير ، كيركجارد) . إن الوعي المنغلق والمنكمش على نفسه ، الذي تضعه هذه الكنائس في المقدمة ، لم يشجع أبداً معرفة الآخر ، من هذه الوجهة ، تعتبر أفكار كيركجارد مميزة : فالأفراد لا يستطيعون التواصل ولا التفاهم المتبادل دون المرور بوساطة المسيح .

وفي هذا الإطار ، ليس لمعرفة الحس السليم أية خصوصية ، فهي تختلط مع معرفة الطبقة البورجوازية التي سنعالجها في القسم الثالث ، الفصل الثالث من هذا الكتاب .

وإننا لن نلح على كون الأشكال المتشددة في الأنواع المعرفية المشكلة للنظام المعرفي الخاص بالكنائس المستصلحة ، هي عادة الأشكال العقلية ، المدركة ، الرمزية (قليلاً جداً) ، والفردية أخيراً ، وأن المعرفة الفلسفية ، عند كيركي رد بوجه خاص ، هي التي تفسح المجال أمام ظهور صوفية معينة .

الباب الثالث

الطبقات الاجتماعية ومنظوماتها المعرفية

الفصل الأول

ملاحظات تمهيدية

حين نتنقل من التجمعات الخاصة - حتى من تجمعات ، واسعة النطاق وشديدة البنيان والنظام مثل الدول والكنائس - إلى الطبقات الاجتماعية بوصفها إطارات للمعرفة ، نجد أنفسنا أمام مراكز معرفية تتصف غالباً بالتعدد والتنوع والحدة المفرطة . وذلك أن الطبقات الاجتماعية الصاعدة هي عوالم اجتماعية جزئية تطمح إلى أن تصبح عوالم اجتماعية تامة . ليست المجتمعات الشاملة سوى مثل من أمثلتها . وغالباً ما تنهاى الطبقات الاجتماعية الحاكمة مع هذه الأخيرة ؛ وأما تلك التي انحدرت أو سقطت فإنها تمثليء بذكرى ماضٍ مجيد ، وترفض التسليم بمنظور زوالها الذاتي .

ولا ريب في أن الطبقات الاجتماعية ، على قدر ما تكون موجودة ، تكون في حالة صراع فيما بينها : والحال ، فإن هذه الصراعات ، المختلفة الوتيرة باختلاف انماط البنى وظروف المجتمعات التي تتطور فيها الطبقات ، إنما تؤثر بشدة على الدول والكنائس ، دون الكلام على التجمعات الخاصة الأخرى . وهذا ما يبدو أنه يضع الحق في جانب الأطروحة الماركسية القائلة إن الطبقات الاجتماعية تمثل في مجال علم اجتماع المعرفة مواطن ومراكز أكثر أهمية من التجمعات الخاصة . لكن لا بد هنا من الإحتراز والتحفظ إزاء كل غواية معتقدية .

فالطبقات الاجتماعية بالمعنى الدقيق (وهذا ما يسلم به ماركس على ما يبدو في أعماله التاريخية خاصة) لم تظهر إلا مع المجتمعات الرأسمالية ، أو

بوجه أعم ، مع المجتمعات الصناعية . وإن « الوعي الطبقي » الذي يرى فيه ماركس أحد العناصر اللازمة لتكوين طبقة ، جنباً إلى جنب مع المساهمة في الإنتاج والتوزيع ، لا يمكن دمجها ، كما يدعي ذلك ، مع « أيولوجية » هذه الطبقة . وهذا التعبير الأخير له عنده معاني بالغة الثقل (انطلاقاً من معنى الوهم أو التحريف . وصولاً إلى معنى « الأعمال الحضارية للطبقة الاجتماعية » ومن معنى التبرير لموقف سياسي حتى معنى الميزة لكل علم إنساني لم تخرقه الماركسية) .

ومهما يكن الوعي الطبقي ، فهو أولاً تجسيد لحياة الطبقة النفسية الجماعية ؛ والحال ، فإن هذه الحياة تتجاوز كثيراً مجالاها المعرفي المحض . يضاف إلى ذلك أن النظام المعرفي الذي يتوافق مع طبقة ما لا تستوعبه إطلاقاً أيديولوجيتها التي لا تعبر إلا عن جانب واحد من جوانبه . والمميزات التي يقدمها الماركسيون تتسم بالميل إلى خفض تعقد الطبقات الاجتماعية بوصفها مراكز للمعرفة ؛ وإن معظم ممثلي الماركسية لا يعتبرونها - دون قصد معلن ، على كل حال - إلا من الوجهة الخاصة بـ « معرفتهم السياسية » الضمنية أو الصريحة . علاوة على ما تقدم ، فإن التفسير الماركسي للطبقات الاجتماعية لا يكشف بشكل كافٍ عن غناها كعوالم كبرى للتجمعات (التي يعتبر من المناسب أن تدرج فيها « المراتب الاجتماعية » وسواها) ، وكعوالم صغرى لتجليات الحياة الاجتماعية ؛ وهي لا تسلط نوراً كافياً على تنوع العلاقات بين الطبقات ، ولا على تباين أهميتها في المجتمع العام .

وإننا حين حاولنا أن نعطي لمفهوم الطبقة الاجتماعية تعريفاً واسعاً ومرناً كفاية حتى نحيط بكثرة أشكالها التاريخية الملموسة ، توصلنا خلال أبحاثنا إلى عدة صياغات ، بعضها مكثف وبعضها الآخر أكثر تفصيلاً ، ومن عداد هذه التعريفات ، اليكم أحد التعريفات الذي يبدو لنا أنه التعريف الأكثر قبولاً : « إن الطبقات الاجتماعية هي تجمعات عليا ذات نطاق واسع ، تمثل عوالم كبرى من التجمعات الخاصة ، وهي عوالم تقوم وحدثها على النزوع نحو

أداء وظيفة عليا ، نحو بنیان مرصوص ، ونحو مقاومة لاختراق المجتمع العام ونحو التمايز والتعاكس مع الطبقات الأخرى ، . وأن كل هذه الإشارات والدلالات لا تؤدي إلا لبروز المزايا النزوعية للطبقات التي تحتل وتتضمن عدة درجات من الكثافة : وعليه ، فإن الوظيفة العليا والطابع المميز بالنسبة إلى المجتمع العام ، وأن التمايز المتعارض مع الطبقات الأخرى ، ليست عناصر معطاة بشكل ثابت وأبدي . فهي تتقبل كثرة لا متناهية من الدقائق والتمايزات .

كذلك فإننا لا نفهم جيداً كيف استطاع بعض النقاد اتهامنا بأننا أردنا « حل المسألة مسبقاً » بدلاً من اختيار صيغة « لا تستبق الإجابات » (١) . ومما لا شك فيه أن الأمر هنا يتعلق بسوء تفاهم حول العبارات ، غير الدقيقة بشكل كاف ربما ، لأننا حين نشدد على التنوع البالغ في درجات توتر الوظيفة العليا ، ومقاومة اختراق المجتمع العام والتعاكس ، إنما نعتقد أننا توصلنا إلى التعريف الأنسب الذي أعطي ، حتى الآن ، للطبقات الاجتماعية ، فضلاً عن كوننا اشرنا أيضاً إلى أن عدد وهرم المراتب يختلفان في كل طبقة (٢) .

ومن جهة ثانية ، نود التشديد على أننا حين نتناول الطبقات الاجتماعية كإطارات اجتماعية للمعرفة إنما ندرك تماماً أن الأنظمة المعرفية التي سنكتشفها فيها ستكون ضمنية وفطرية على الأرجح والأغلب ، أكثر مما ستكون صريحة ومبنية . وبالتالي يتعقد الترابط بين الطبقات الاجتماعية والمعرفة نظراً لأنها ليست مباشرة دائماً ، ولكنها أحياناً غير مباشرة ، الأمر الذي لا يقلل من أهمية المسألة . أخيراً ، فلنلاحظ أن الطبقات الاجتماعية يمكنها التأثير على التجمعات المنظمة . أخيراً ، فلنلاحظ أن الطبقات الاجتماعية يمكنها التأثير على التجمعات المنظمة مثل الدول والكنائس ، ومن خلالها ، على أنظمة معارفها .

R. Aron la lutte des classes, Paris 1964, PP. 64 et suiv.. PP. 91. et suiv. 1)

G . G . cahiers Internationaux de sociologie , vol XXXVIII , 1965 , PP 4 — 9 2)

إن مختلف المجتمعات الصناعية الحالية والسابقة أظهرت ، بمقتضى أنماطها وظروفها ، عدداً من الطبقات الاجتماعية أكبر بكثير من الطبقات التي جرت العادة على التحدث عنها⁽³⁾ . ولقد لاحظ ماركس ذلك بنفسه : فكل مؤلف من مؤلفاته التاريخية يحلل من ست إلى ثماني طبقات ، وبعضها يطلق عليه أحياناً إسم « شرائح » طبقية ، ولكي نيسر مهمتنا ، سنكتفي مع ذلك بثلاث طبقات هي الأكثر تمايزاً وإبرازاً في الواقع : الطبقة الفلاحية ، الطبقة البورجوازية والطبقة البروليتارية ، التي سنضيف إليها « الطبقة التكنو-بيروقراطية » الناشئة ، التي يدور الكلام كثيراً حولها اليوم .

الفصل الثاني

الطبقة الفلاحية ونظامها المعرفي

لنذكر فيما يتعلق بالطبقة الفلاحية أنها لا تختلط بأي شكلٍ مع سكان الريف . فإذا كانت هذه الطبقة منقسمة اليوم ، في فرنسا ، إلى عدة طبقات ناشئة ، وإذا كانت هذه الطبقة قد زالت كلياً في بريطانيا والولايات المتحدة ، فإن الطبقة الفلاحية في بعض البلدان الجماعية - المشهورة بإلغاء الطبقات الاجتماعية - مثل الاتحاد السوفياتي ، الصين ، يوغسلافيا وبولونيا ، تظهر من الحيوية ما يكفي لمنع تجاهل دورها في تطور هذه الأنظمة . أما في بلدان أميركا اللاتينية ، لا سيما في البرازيل ، حيث تنقسم الطبقة الفلاحية إلى عدة شرائح متميزة جداً ، فإنها تدل على إحياء لا لبس فيه ، على الرغم من ميل بعض عناصرها لمغادرة الريف إلى المدن الكبرى .

ليس الشكل الخاص للملكية الزراعية بصالح دائماً لإجلاء المزايا الملموسة للطبقة الفلاحية . فهذه تتعين بالعمل المباشر في الأرض وبالمساحة المحدودة من الأراضي المتوفرة للزراعة ، كما تتعين بالوسائل التقنية المناسبة ، التي تنضاف إليها أيديولوجية خاصة⁽⁴⁾ . وغالباً ما تقدم هذه الأيديولوجيا على تحفظ تجاه المدن الكبرى واضطراباتهما ، وعلى شك تجاه الدولة ، التي يحكم على الجزء الأكبر من موازنتها بأنه غير منتج ، وتقوم على شعورٍ بالعداء تجاه الطبقات الأخرى ؛ لا سيما البورجوازية بسبب الأسعار

(4) بعض الأحيان تتنوع هذه « الأيديولوجيا » كما هو الحال في البرازيل ، وفقاً لشرائح الطبقة الفلاحية . إذ أن جزءاً من هذه الطبقة يظل بدوياً أو منجذباً إلى مناطق غير مستصلحة بعد .

الفاحشة للمنتوجات الصناعية ، والوسطاء العديدين ، تجار المواد الغذائية وتجار الماشية الذين ينظر اليهم نظرة سيئة جداً . وفي البلدان الجماعية ، أفسحت البورجوازية المجال ، في وعسي الطبقة الفلاحية ، أمام التكنوبيروقراطية . وبالأخص أمام المخططيين وسواهم من الرسميين في النظام ، أو حتى ممثلي إدارة المدينة الأقرب ، الذين يمارسون وظيفة الرقيب على واردات المحاصيل الزراعية المباعة في الأسواق ، والأسعار التي تباع بها .

أ) في النظام المعرفي المتطابق مع الطبقة الفلاحية، يجب وضع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي في المقام الأول . فالمليادين المكانية والأزمنة التي يوضع هذا العالم فيها . يجري إدراكها وتلمسها وفهمها والسيطرة عليها بنفس الطريقة التي تجري تقريباً في معرفة التجمعات الصغيرة النطاق . ان المليادين أنوية مركزية وغامضة ، وان الأزمنة بخاصة هي أزمنة فصلية طويلة المدى وبطيئة . والتمسك بالنماذج التقنية والرموز السلفية يكبح الحداثة . إن « الجماعة » التي تتجسد من داخل الطبقة الفلاحية أو في شرائحها ، تكون محمولة لارتداء طابع سلبي وحتى لا واعٍ ، الأمر الذي يؤدي إلى تقريب الجماعة المعنية من عنصر « الجمهور » .

إن إحدى السمات التي تميز معرفة الطبقة الفلاحية هذه ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، عن معرفة التجمعات المحلية الصغيرة النطاق ، هو أنها بوجه عام اشد اتساماً بالطابع الانفعالي . وأشد حذراً تجاه الوحدات والتنظيمات الجماعية الأخرى ، وأكثر تشجيعاً للمليادين الملتبسة وللزمان المتأخر على نفسه ، وأقل اقتداراً أخيراً من حيث السيطرة على الأماكن والأزمنة الفعلية ، والإجتماعية بوجه خاص ، ما خلا تلك التي يسودها العمل الزراعي ، وتدور فيها حياة الفلاحين (أو شرائحهم) .

ويمكن للحروب الدينية أو الأهلية ، للثمرات السياسية والإجتماعية ،

للحروب القومية ، للأوبئة ، للمحاصيل المنكوبة ، الخ . (ما عدا التغلغل البطيء عادة للتقنيات الجديدة . مثل الجرارات أو الاكتشافات الكيميائية ، المساعدة على إخصاب التربة) يمكن لهذه وحدها أن تهز اتجاه الطبقة الفلاحية إلى أن يبدل صورها المعرفية للعالم الخارجي وللعالم الاجتماعي . لكن حين تجتاز الطبقة الفلاحية الآلام الكبرى أو الصغرى ، وبقدر ما تبقى طبقة ، فإنها تظهر في معرفتها للعالم ، كما في طرائق معرفتها وحياتها ، ميلاً للإنكماش على ذاتها ولتأمين تواصل تراثها الخاص .

ب) معرفة الحس السليم . في النظام المعرفي المتطابق مع الطبقة الفلاحية ، تحتل المكانة الثانية . وهي بالتالي تستطيع ، عندما تصمد ، أن تبلغ فيها عمقاً واختراقاً ، بحيث تظهر علامة فلسفية تسمى أحياناً « حكمة فلاحية » في الوقت الذي تظهر فيه نزعة سياسية « للدفاع عن الذات » و « حيلة فلاحية » معينة . إلا أن معرفة الحس السليم لا تغدو ملحوظة اليوم في معرفة الطبقة الفلاحية إلا بقدر ما تندفع هذه الطبقة للدفاع عن نفسها بمواجهة تهديد التفكك الضاغط عليها ، وهو تهديد يظهر بشكل خاص في بلدان الشيوعية المركزية .

ج) إن المعرفة السياسية ، المتصلة بمعرفة الحس السليم ، تلعب في النظام المعرفي الخاص بالطبقة الفلاحية أعظم مما يظن عادة . ذلك أن هذا النوع المعرفي لا يتبلور : بوصفه استراتيجية وكذلك بوصفه تثبيتاً لمثال ، إلا تبلوراً نادراً (في بلدان الغرب على الأقل) في عقيدة وحتى في شعارات أو في برنامج . وهذا هو السبب الذي يجعل الطبقة الفلاحية لا تتمثل إلا نادراً بحزب سياسي ناطق مباشرة بإسمها . غير أننا نستطيع أن نذكر بعض الاستثناءات . ففي فرنسا ، كان الحزب الراديكالي الاشتراكي في ظل الجمهورية الثالثة هو الذي يجسد أفضل تجسيد المثال السياسي العفوي للطبقة الفلاحية : جد فلاح ، أب معلم وسكرتير العمدة أو استاذ مبرز ، حفيد وزير أو رئيس مجلس . لكن حين توصلت الطبقة الفلاحية إلى السلطة

نهائياً . بدأت في الوقت نفسه تتفكك كطبقة ، مؤدية من خلال هذا المسار إلى تفكيك الجمهورية الثالثة ذاتها .

ويبدو الوضع مختلفاً في أوروبا الشرقية . ويمكننا أن نذكر حالة الحزب الشيوعي (Narodniki) في روسيا ، المسمى لاحقاً بالحزب « الاشتراكي - الثوري » الذي كان يدعي ، ليس دون وجه حق ، أنه يمثل الطبقة الفلاحية الروسية . وبالواقع ، تبين نتائج الاقتراح في انتخابات المجلس التأسيسي عام 1918 إن أكثرية السكان كانت مؤيدة لهذا الحزب ، حتى في ظل النظام الشيوعي . وعلى الرغم من الحل شبه الفوري للمجلس التأسيسي ، الذي استجاب استجابة تامة لمطالب الطبقة الفلاحية الوسطى ، المطالب المتعلقة بمصادرة كل الأملاك الزراعية الخاصة ، و«إعادة توزيع الأراضي» وإحياء نظام « mir » الروسي القديم في شكل « الكولخوزات » السوفياتية الجديد . على الرغم من ذلك ، ظهرت الطبقة الفلاحية الوسطى متحفظة تجاه النظام . أما اليوم فإن تطلعاتها السياسية لا تزال غير واضحة : فهي لا تتأكد بوضوح إلا من خلال الولاء للنظام السوفياتي ، وللكنيسة الأرثوذكسية في الوقت نفسه ، وكذلك من خلال التأثير المتعاضم الذي تمارسه هذه الطبقة على الجيش الأحمر .

إن المعرفة السياسية للطبقة الفلاحية تتميز إذن بحكمتها وتحفظها ونزوع إلى الغموض ، باستثناء بعض الظروف ؛ وأنها تظهر ، خلافاً لما كان يمكن افتراضه ، نزوعاً قليلاً نحو العنصر الميثولوجي المميز للمعرفة السياسية لدى الطبقات الاجتماعية الأخرى .

د) معرفة الآخر . تحتل المقام ما قبل الأخير في هذا النظام المعرفي ، وترتدي هنا سمتين . فهي من جهة تبدو مليئة بالشكوك ليس تجاه مثلي الطبقات الأخرى وحسب ، بل تجاه جيران ينتمون إلى الطبقة نفسها ، وتجاه كل الناس بطريقة معينة . وأما صياغة مفاهيم الآخر فهي تستند إلى قوالب جاهزة ، وهذه حادثة مدهشة جداً ، نظراً لسرية الحياة الفلاحية اليومية . ومن جهة ثانية ، تغدو معرفة الآخر تجريبيية - حدسية منذ أن يصبح الأمر

متعلقاً بأفراد الأسرة ، العمال الزراعيين الذين تشغلهم الأسرة للعيش معها والعمل فيها . وبشكل خاص المساهمين في تعاونيات الإنتاج الزراعي الجماعي (كوخوز) . والمقصود في هذه التعاونيات هي المعرفة الفردية الملموسة لكل رفيق مشارك في الفريق التعاوني .

هكذا يتأكد تعقد كبير ، بل التباس معين ، يصل أحياناً إلى حد التناقض ، في معرفة الآخر الخاصة بالطبقة الفلاحية . . .

هـ) إذا ذكرنا في المقام الأخير المعرفة التقنية للطبقة الفلاحية ، وذلك لا يعني أنها تكون دائماً في المقام الأخير لدى هذه الطبقة ، إلا أن فعاليتها وسمتها تتباينان تبايناً كبيراً . فهي عندما تنتهى مع معرفة سلفية ، إنما تندرج عموماً في المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي وفي معرفة الحس السليم . لكن عندما يتعلق الأمر بتقنيات جديدة وحديثة ، فإنها غالباً ما تصطدم بمقاومات . ولا بد لأجل النجاح في إدخالها ، من ضغط المجتمع الشامل بأسره ، بالإعتماد أودون الإعتماد على إعادة تنظيم الملكية والإنتاج الزراعيين ، والنظام الذي يخضع له الإنتاج والملكية . والخلاصة أن المعرفة التقنية تضطلع ، في كل حال ، بدور محدود جداً في « الوعي الطبقي » المساهم في بناء الطبقة الفلاحية .

أما تشديد الأشكال داخل الأنواع المعرفية الخاصة بهذا النظام المعرفي ، فلا بد من الملاحظة بشأنها أن الشكل الصوفي والشكل العقلي ، الشكل المدركي والشكل التجريبي ، والشكل الوضعي والشكل التنظيري تقترون جميعها في معظم الأنواع المعرفية ، غير أن الأشكال الرمزية من جهة ، والجماعية من جهة ثانية ، تسود بكل وضوح وتهيمن على الأشكال المناسبة والفردية .

الفصل الثالث

الطبقة البورجوازية ونظامها المعرفي

إن تحديد الطبقة البورجوازية ودرسها أسهل من تحديد ودرس الطبقة الفلاحية ، على الرغم من كونها قد لعبت ، بمقتضى العصور والظروف الخاصة ، دور الطليعة الثورية أولاً ، لتغدو فيما بعد وعلى مراحل ، طبقة معتدلة وتوفيقية ، ثم أخيراً طبقة محافظة أو رجعية ، وفي الوقت الحاضر الموسوم بالرعب الكبير للثورات الاجتماعية ، أصبحت طبقة فاشية بأساليب مختلفة .

وبالطبع لم تنقطع ملكية وسائل الإنتاج ، موارد المواد الأولية والرساميل المالية ، لم تنقطع عن التدخل هنا ، مع ميل إلى هيمنة الأسواق الداخلية ، الإستعمارية ، أو « المشتركة » بوضعها عنصراً مكوناً للطبقة البورجوازية . إلا أن هذه الطبقة انفتحت انفتاحاً واسعاً أمام كل التجمعات المزدهرة ويجب أن ندخل فيها من جهة أرباب العدل ، طغمة كبار الأثرياء من الممولين والتجار ، وأرباب المهن الحرة ، والموظفين الكبار والبيروقراطية الإدارية والتقنية في المنشآت الصناعية وأخيراً أرباب المصارف والتروستات والكارتلات . أن كل هذه « الشرائح » تلعب دوراً كبيراً في حياة البورجوازية في زمن الرأسمالية المنظمة والتوجيهية .

كذلك في عصر ازدهار الطبقة البورجوازية ، في القرن التاسع عشر ، كان « أرباب العمل الكبار » ، من خيرة المنظمين والمحاسبين ، والمقاولين المتنورين ، الكرماء وأصحاب الأعمال الخيرية ، هم الممثلين للشرعية الأكثر

غنىً في البرجوازية . وقبل انحلالها الحالي ، كانت البرجوازية تملك وعياً طبقياً متفائلاً ، موسوماً بالثقة في « تقدم تقني واقتصادي » لا محدود ، وفي سجم مصالح الجميع ، في شمولية محاسن الرأسمالية والحضارة المدنية . ففي مقابل الوعي الطبقي الفلاحي ، المنكمش على نفسه ، كان الوعي الطبقي البرجوازي يزعم الإستعداد للإنتشار العالمي . ولقد انجذب مطولاً صوب الايديولوجية الأكثر « تعقلاً » والأقل « انفعالاً » بين ايديولوجيات الطبقات .

أ) إن الطبقة البرجوازية ، المنظور اليها من هذه الزاوية ، تبرز كمركزٍ خصب بوجه خاص للمعرفة عموماً ولعظم أنواعها على وجه الخصوص . فالنظام المعرفي المتطابق مع هذه الطبقة ، هو أولاً نظام موسوم بالميل إلى التداخل والتعادل مع الأنواع المعرفية الثلاثة : المعرفة العلمية ، المعرفة التقنية ، والمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . إن حلول البرجوازية هو الذي جعل العلوم تتقدم ، علوم الطبيعة والعلوم الدقيقة في المقام الأول ، مباشرة أم بواسطة الدولة ومؤسساتها التعليمية . فالبرجوازية حين سيطرت على الدولة ، فرضت التكميم الأقوى والأفعل على الأمكنة والأزمنة (الوقت مال Time is money) ، وهو تكميم لعب دور الوصل بين المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي والمعرفة العلمية ، مع التوجه إلى توحيدهما . وكذلك فإن الطبقة البرجوازية هي التي أنشأت الظروف المؤاتية لربط أوثق بين المعرفة العملية للطبيعة والمعرفة التقنية . وقبل وصول الطبقة البرجوازية الى السلطة ، في بداية المجتمع الصناعي ، كان هذا المجتمع محمولاً للتطور خارج العلوم ، مباشرة في المانيفاكتورات وممارسات العمل الناجمة عنها .

لنمثل على هذا التداخل وهذا النزوع إلى التوحيد المعلن عنهما من خلال الأنواع المعرفية الثلاثة التي تقدم ذكرها ، بكون الطبقة البرجوازية مركزاً لها ، ولنتوقف عند المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . فنلاحظ فوراً أن العالم الخارجي موضوع فيها في أماكن وميادين مستقبلية تفضيلاً ، وهي

ميادين تحظى بالتشجيع لأنها متطابقة مع المصالح المباشرة للمقاولين : التوسع الإقتصادي وتطور التقنية ، والحال ، فإن الإستكشاف ممتنع دون تدخل الأدوات التقنية ، وهذه لا يمكن تطويرها بسرعة كافية إلا بمؤازرة المعرفة العلمية ، وهكذا ، فإن الميادين المستقبلية والإسقاطية حيث تحدد المعرفة البورجوازية موقع العالم الخارجي ، جرى ربطها بشكل خاص مع غزو الأسواق الجديدة ، لا سيما أسواق البلدان المستعمرة أو المرشحة للإستعمار ، ومع البحث عن اليد العاملة والثروات الطبيعية (معادن ، نفط ، فحم ، الخ) ، وأخيراً مع التوظيفات الجديدة للرساميل ومع المنظمات الصناعية الوطنية والعالمية (بما في ذلك التروستات والكارتلات) .

إن الميادين حين تنبسط وتنقبض دون صعوبة ، بفضل تدخل وسائل الإتصال المتزايدة الإتقان ، تقترن هنا مع أزمنة محورها دوران الرساميل والإستثمارات ، دورة انتاجية المنشآت ، وأمد العمل والمبادلات . في هذه المعرفة للعالم الخارجي ، الخاصة بالطبقة البرجوازية تتوجه الأمكنة والأزمنة في نفس الإتجاه إذن ، وتميل إلى الإقتران والخضوع لنفس المقاييس الكمية .

فكان لا مناص من المقاومة المتعاضمة من جانب الطبقة البروليتارية ، ولا مناص من حركتها النقابية وحركتها السياسية ، وكذلك المصاعب الناجمة عن الأزمات الإقتصادية المتزايدة التفاقم ، وأخيراً حروب تصفية الإستعمار ؛ وكان لا بد من جهة ثانية ، من حلول أنظمة جماعية متأتية من ثورات اجتماعية ، لكي تبدأ الطبقة البورجوازية ، المضطربة والخائفة جداً من زوالها ، بوضع العالم الخارجي الذي عرفته ، في أمكنة وأزمنة أكثر تركيزاً على الأنا وأشد اضطراباً : إنها أمكنة وأزمنة لا تخضع لمقاييس كمية وتستعصي على الدراسات العلمية كما تستعصي على الحلول التقنية الصرف .

وهكذا فإن العالم الخارجي المعروف اليوم بالطبقة البورجوازية ، يبدو موضوعاً في ميادين ملتبسة من جهة ، متحدة المركز وإسقاطية من جهة ثانية .

والمباشرين الأولى ناجمة عن ارتباطات مرتبطة بمصير البنى الاجتماعية من النمط الرأسمالي ، والثانية متعلقة بالإنشاء إلى « الكتل » المتصارعة أو الداخلة في « تنافس سلمي » . كذلك ، فإن زمن الصراع الحاد بين التقدم والتأخر وزمن النبضات غير المنتظمة ، الخاصين بالمجتمعات الرأسمالية ، نجدهما معكوسين على المعرفة الخاصة بالعالم الخارجي المنقسم إلى كتل . وهل ثمة حاجة إلى الإضافة أن معايير الزمان تبدو هنا عاجزة مثل مقاييس الأمكنة .

ب) تقودنا هذه الملاحظات الى المعرفة السياسية الخاصة بالطبقة البورجوازية . أنها تحتل لديها ، مبدئياً ، مرتبة أدنى من الأنواع المعرفية الثلاثة المتداخلة التي تكلمنا عليها سابقاً .

لقد شهدت الطبقة البورجوازية - منذ تكونها في السابع عشر حتى أيامنا - معرفة سياسية نافذة جداً ، على صعيد التكتيك أم على صعيد التمسك بمثال . ومن جهة ثانية تبلورت هذه المعرفة السياسية الخاصة بالبورجوازية ، مراراً عديدة ، في عقائد منتظمة (منذ هوبس ، سبينوزا وروسو ، حتى الليبرالية الجديدة والتضامنية في نهاية القرن التاسع عشر) .

أن ما يثير الدهشة في المعرفة السياسية البورجوازية ، سواء كانت فطرية أم منتظمة ، أنها مكثت حتى العقود الأولى من القرن العشرين ، معرفة معتدلة⁽⁵⁾ تستند إلى أساطير السلام و « تكافؤ الفرص » والتقدم التقني اللامحدود ومساواة مصالح الجميع ، وأخيراً « الإزدهار » : ولقد جرى إنجاز هذه الدعوة بحذر وتحفظ . ذلك أنه على الرغم من الثورات والثورات المضادة التي كانت لصالحها ولحسابها ، وعلى الرغم من الدور الذي تمكنت من أدائه في الحروب الإستعمارية ، الدولية وحتى الأهلية أحياناً ، سعت البورجوازية دائماً إلى اجتناب الإلتزام . فقد ظلت ، طيلة قرون ، فاعلاً سياسياً متحفظاً ،

(5) أحد الاستثناءات يتمثل في الرد العنفي على كومونة باريس ، 1871 .

حتى في اللحظات التاريخية الحاسمة . ذلك انه كان عليها في نهاية الأمر أن تخسر أكثر مما تربح من كل أزمة أو ثورة ؛ فكانت تخاف أولاً من فقدان ثرواتها ، وثانياً من خسران وجودها بالذات . فهي دائماً مستعدة للتسوية وللتنازلات في حدود الممكن ، فصارت بسهولة طبقة متحفظة ومحافضة وذلك حينما لا تكون مصالحها الاقتصادية غير مهددة بشكل خطير ، ولا يكون وجودها موضوعاً على المشرحة . ولم يتبدل الوضع إلا بعد الثورات الاجتماعية في البلدان الشرقية ؛ فأدى الخوف الكبير من الخطر الشيوعي ، عشية وعداة الحرب العالمية الثانية ، إلى تلوين المعرفة السياسية البورجوازية بألوان فاشية ، تعززت اليوم من جراء الأثر الذي تمارسه الشرعية التكنوقراطية وقرابية في داخلها .

ج (من بين الأنواع المعرفية الأخرى ، يمكننا إزالة معرفة المحس السليم التي لا تلعب أو التي لم تلعب دوراً إلا في داخل الحياة العائلية البورجوازية . كذلك ليس لمعرفة الآخر أهمية كبيرة جداً . فهي تنخفض في النظام المعرفي البورجوازي ، إلى المدرك النوعي للشخص البشري ، المتائل لدى الجميع (الذي كان التأويل الكانطي بمثابة التعبير الأنسب عنه) .

د (وحدها المعرفة الفلسفية ، المؤيدة جداً من قبل الطبقة البورجوازية ، هي التي تستحق ذكراً خاصاً هنا . أنها خليط من عقلانية وإرادية لدى ديكرت ، خليط من عقلانية وتجريبية لدى باكون ؛ ولقد تركت الطبقة البورجوازية بصماتها بشكل قاطع على فلسفات « عصر الأنوار » (وبشكل مختلف على فكر كانط والكانطيين الجدد ، كما قلنا آنفاً) .

إننا لن ندخل في التفاصيل ، لأننا نعتبر أنه لم يَأْزَفْ بعد زمنُ الشروع المفيد بالدراسة المعمقة لعلم اجتماع العقائد الفلسفية . إلا أننا نصر مع ذلك على التشديد ، هنا ، وبغية اجتناب كل سوء تفاهم محتمل ، نصر على القول إن معظم العقائد الفلسفية الموضوعة منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وفي القرن العشرين . لم تعد تحمل أي أثر لعلاقة مباشرة بالطبقة البورجوازية .

أما الأشكال المعرفية البارزة في أنواع المعرفة المتطابقة مع الطبقة البورجوازية ، فإنها تميل بمجملها إلى العقلاني والتجريبي أكثر مما تميل إلى المدركي ، تميل إلى الأنسب أكثر مما تميل إلى الرمزي ، وتميل أخيراً إلى الفردي أكثر مما تميل إلى الجماعي . وتبدو الأشكال النظرية والوضعية وحدها بمثابة الأشكال المتعادلة والمتكافئة نسبياً . وبالطبع ليس المقصود هنا سوى نزعات ، لأن هناك مجالاً لتنوعات وتغايرات عديدة داخل الرأسمالية التنافسية ، وفقاً لمراحل الرأسمالية وحتى وفقاً للظروف .

الفصل الرابع

الطبقة البروليتارية ونظامها المعرفي

إن الطبقة العاملة أو البروليتارية ، التي تشغل في الصناعة الرأسمالية مكانة غير مناسبة لأنها لا تملك وسائل الإنتاج ولا تعيش إلا من عملها ، الماهر أو غير الماهر ، كانت بطيئة في تكوينها وفي وعيها لذاتها ، ومرد ذلك إلى اختلاف مشارب هذه الطبقة ، الناشئة من أفقر سكان المدن والحرف اليدوية المدمرة ، وأخيراً من الفئات الدنيا والمخلّعة الجذور في طبقة الفلاحين .

ولا يعود تاريخ « الوعي الطبقي » عند البروليتارية إلى مطلع القرن التاسع عشر ؛ فقد تجلّى هذا الوعي في مذاهب اشتراكية وجماعية شتى ، ومنها الماركسية المتعددة الاتجاهات ، التي صارت مهيمنة فيما بعد . ومن المؤكد أن الذهنية والوعي الجماعيين لدى البروليتارية يتخطيان وعيها الطبقي بالذات . فهما يتضمنان ، فضلاً عن التطلعات نحو مستقبل أفضل وعن الثورة الاجتماعية ، وعي الحاجات ، وخيبات الأمل المتلاحقة ، المتاعب ، والمخاوف الخاصة بشدة الانقسامات الداخلية ، وحتى اللامبالاة الجديدة أحياناً . ذلك لأن الطبقة البروليتارية يمكنها أن تدخل في نزاع مع تنظيماتها بالذات ، وأن تضعف عزيمتها بفعل الصراعات الداخلية أو الشعور بأن البيروقراطية الجديدة التي تدير أجهزتها قد سحقتها أو خانتها .

حتى أن التباينات ، ليس فقط في قوة صراع الطبقات (التي تؤدي إلى تبدل في وتائر عناصر « الجمهور » ، « الجماعة » و « المتحد » . مثلما تؤدي إلى تبدل في أهمية الجماعات داخل البروليتارية) ، بل في الأشكال التي ترتديها

هذه الصراعات ، وأخيراً في ظهور الميل إلى تشكيل « شرائح » إن لم نقل الانفجار إلى عدة « طبقات عمالية » . إنما تعقد إلى حد كبير مسألة البروليتارية بوصفها إطاراً اجتماعياً لأنواع المعرفة وأشكالها .

ففي الماضي ، كان تراتب التجمعات المتداخلة في الطبقة العاملة ، خلافاً لما يحدث في الطبقة البورجوازية ، أقل ارتكازاً على المراتب الاقتصادية (مثلاً عمال الكهرباء وعمال الكتاب ، هم الأعلى أجراً ؛ وعمال المرافئ والحمالين ، الأقل أجراً) ، وعلى الكفايات المهنية . منها على دور بعض الجماعات داخل البروليتارية في كفاحها ضد الطبقات الأخرى (نخب نقابية ، مندوبون عماليون ، « أقليات فاعلة ») . والحال ، تدل نتائج الاستطلاعات الحديثة أن تراتب التجمعات داخل الطبقة العاملة قد ازداد تعقيداً طيلة العقود الأخيرة . وبالتالي ، فإن المراتب البروليتارية المألوفة ككفايات تقنية هامة بوجه خاص لتسيير الآلات (مثلاً ، مصلحو الآلات المؤتمنة) يتمتعون فضلاً عن وضع اقتصادي متميز ونفوذ مباشر على إدارة المنشآت ، بإمكان اللجوء إلى استراتيجية جديدة وخاصة في الكفاح لأجل مصالحهم الذاتية ولأجل مصالح الطبقة العاملة برمتها ، بما في ذلك النقابات وأجهزتها الضابطة في المنشأة . وهكذا ، تتأثر مسائل جديدة متعلقة بالوحدة الفعلية للطبقة البروليتارية في عصرنا ، دون التمكن من الوصول إلى نتيجة نهائية .

لكن ، حتى ثبوت العكس ، يبقى من الصعب التسليم بأن هذه « الشرائح المتميزة من البروليتارية » تفقد وعيها الطبقي ، الذي يوحدتها بكل الجماعات والمراتب البروليتارية الأخرى . إذن نعتقد أنه بالإمكان تناول الطبقة العاملة بوصفها البؤرة الوحيدة لنظام معرفي ، آخذين بالإعتبار بعض المميزات ، المتعلقة بتباينات داخلية في هذا الإطار الاجتماعي .

أ) إن النوع المعرفي السائد في نظام المعرفة الخاصة بالطبقة البروليتارية هو زرع المعرفة السياسية ، العفوية والضمنية ، الموضوعية ،

الصريحة والمتبلورة أخيراً في عقائد شتى . وهي تتعلق بالإستراتيجية الواجب استعمالها بقدر ما تتعلق بالمثل الواجب بلوغها في مستقبل قريب أو بعيد ، لأن الطبقة البروليتارية التي لم تتأخر بعد في الأنظمة الرأسمالية ولا في الأنظمة الشيوعية المركزية التي على الرغم من الكلام باسمها تبقىها مع ذلك في وضع دولي ، هي طبقة مستاءة تتطلع إلى مستقبل أفضل وإلى إشباع سلسلة من الحاجات غير المستجابة حتى الآن .

إذن لا بد من معرفة تكتيكات النزاع : النزاع مع الحكومة ، الصراع مع أرباب المصانع والمنشآت ، مع الطبقات الأخرى ، مع التنظيمات النقابية والسياسية التي تكون معادية لها أو تكون في أغلب الأحيان خائنة لها بينما تدعي تمثيلها أو الكلام باسمها ، وكذلك يتعلق الأمر بمستقبل أفضل أو بنظام يفني بوغوده بشكل أفضل وأقوى . وهنا ، ربما يدور الأمر حول صورة مثالية تسمح بتحقيق سريع ، أو يدور حول اسطورة (بمعنى الدعوة إلى العمل ، عند سوريل) ، في هاتين الحالتين ، يمكن للمعرفة السياسية البروليتارية أن تنبثق بطريقة تجريبية - حدسية ، انبثاقاً مباشراً من ممارسة الصراعات ، أو يمكنها على العكس أن تتبلور في عقائد مبرمجة ، وحتى متصلة وأحياناً مفروضة . ومن جهة ثانية ، يمكن لجدل⁽⁶⁾ بين الشكل التجريبي والشكل المفهومي داخل المعرفة السياسية للبروليتارية أن يؤدي أيضاً إلى استقطابها وتداخلها . وهذا أمر لا يجوز إهماله . . .

ويمكن لهذه المعرفة أن ترتدي ، وفقاً لاختلاف الشرائح والمراتب داخل البروليتارية ، طابعاً انتهازياً أو ثورياً ، واقعياً أو طوباوياً ، عقلياً أو صوفياً ، لكن ، مهما يكن الطابع الذي ترتديه ، فهي دائمة الحضور واتجاهها لا يتوقف على مجمل البروليتارية ولا على المراتب والجماعات المندجة فيها . وحسب ، بل

(6) راجع حول مفهومي للجدل ولتعدد تجلياته وأساليبه ، كتابي السابق الذكر :
Dialectique et Sociologie, PP. 179- 220.

يتوقف أيضاً على الظروف (الثورية المضادة للثورة ، السلمية ، العدوانية ، الخ .) حيث يتواجد المجتمع الشامل ، ميدان الفعل والصراع بين جميع الطبقات الحاضرة .

ب (وتحتمل المعرفة التقنية ، المقام الثاني في النظام المعرفي للبروليتارية . ومن البين ، أن الأمر متعلق بالجزء الناشط من البروليتارية ، الجزء الذي يشترك فعلاً في مسار الإنتاج ، نعني العمال بكل معنى الكلمة ، وليس أفراد اسرهم الذين لا يعملون . ويتباين طابع هذه المعارف التقنية بتباين الشرائح والمراتب التي تُكوّن هذه الطبقة . وبقدر ما يعم التأهيل المهني ، لا سيما التأهيل المتعلق بإصلاحات وترميمات الآلات الأوتوماتيكية ، فإن المعرفة التقنية تلعب دوراً متعاضداً في الفاعلية الإنتاجية للطبقة العاملة . وإذا كانت هذه المعرفة في بداية الرأسمالية ، معرفة عفوية ، مكتسبة في العمل فقط ، فتظل سطحية بالأحرى ولا تتجاوز مستوى المهارة والمرونة اليدوية اليوم ، على الرغم من التعقد الآلي البالغ ، فإن هذه المعرفة التقنية يمكنها أن تصلح مرتكزاً لتكوين شرائح خاصة من الشغيلة . والأمر الذي يميز عندئذ المهندسين عن هذه الفئة من الشغيلة المنخوبين وفقاً لكفاياتهم المهنية ، هو أن معرفتهم التقنية تظل دون رابط يربطها بالمعرفة العلمية . والحال ، فإن انعدام هذا الربط بين النوعين المعرفيين هو نقطة ضعف العمال الأكثر مهارة ، وهو الذي يبقيهم في رتبة البروليتاريين .

ج (في المقام الثالث من نظام المعارف المتوافقة مع الطبقة العاملة ، ينبغي وضع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، وهي معرفة ذاتية وانفعالية أكثر مما هي عليه لدى الطبقة البورجوازية ، إذ أن البروليتارية تتوصل بصعوبة إلى الإنسلاخ عن شروط العمل ومكانه ، والمسافة بينه وبين السكن ، ووسائل النقل بينهما ، وحتى شروط السكن نفسها ، والخ .

من جهة ثانية ، تتميز المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي لدى الطبقة

العاملة عن نظيرتها لدى الطبقة الفلاحية التي تتسم جوهرياً ، كما رأينا بأنها أنوية مركزية ، منكمشة على ذاتها جوهرياً ، حذرة تجاه كل ما هو مجهولٌ عندها . وبالعكس ، فإن الطبقة البروليتارية تنجذبُ إلى كل معالم العالم الخارجي الحاضر والمقبل . كما تنجذب إلى وضع الطبقات سواءً في البلدان الأجنبية أم في بلدها . وعليه فإن التجليات الخارجية لطبقته بالذات هي التي تسترعي بوجه خاص انتباه العمال ، حيث وقعت هذه التجليات .

إن للأزمة والأزمة حيث يقع العالم الخارجي ، طابعاً خاصاً . فالمتاعبُ وخيبات الأمل والملل واللامبالاة الخاصة بالشغيلة تقودهم إلى الأمكنة والميادين الأنوية المركزية والإسقاطية . فميادين التنظيمات البروليتارية ، النقابية والسياسية المقترنة مع أزمة يكون فيها المستقبل مهيمناً غالباً على الحاضر ، إنما تظهرُ نزعةً مستقبلية . وأما الميادين المشتركة المركز ، الملتبسة والمتراخية ، فإنها تكون في حالة تنافس ، حسبما يتعلق الأمر بالبروليتارية ذاتها ، وبطبقاتٍ معادية لها أو للمجتمع المقبل . ومن جهة ثانية ، تعاني معرفة العالم الخارجي والميادين الواقعة فيها ، معاناةً شديدة من أثر معرفة الأزمة حيث يهيمنُ المستقبلُ لأمد طويل على الحاضر والماضي ؛ ويميلُ الزمان المتقدم على ذاته ، وفي بعض المنعطفات يميل الزمانُ الإيداعي إلى التغلب على معرفة الأمكنة والميادين .

ولا تبدو الطبقة العاملة منجذبةً أبداً شطر معرفة الحس السليم التي لا تتدخل عادةً إلا من خلال المعرفة السياسية ، خاصةً عندما يتعلق الأمر بالتكتيك .

(د) أما معرفة الآخر والنحن فهي تستحق تحليلاً خاصاً في إطار البروليتارية . إن معرفة الآخر الملموس تنحصرُ فيها بأفراد الخلايا النقابية والسياسية نفسها ، أو بأفراد ورش العمل ذاتها . ومن جهة ثانية ، تمثل فيها شخصية الآخر من خلال الوجه المفضل للمناضل . لكن إذا كانت معرفة الآخر محصورة جداً هنا ، فإن معرفة النحن والجماعات والطبقات واسعه جداً

في المقابل . وسواء تعلق الأمر بالطبقة البروليتارية ومتفرعاتها (حالات متميزة) أم بالطبقات المناوئة ، المحايدة أو الوسيطة ، فإن معرفة الجماعيات تلعب دوراً هاماً في فعل هذه الطبقة ووعيها . والأمر لا يتعلق إطلاقاً بتمثيلات غامضة ، أو بمفاهيم شائعة ، وإنما الأمر يتعلق بمعرفة ثابتة غالباً ، مرتبطة بالذاكرة التاريخية ، بالممارسة الطويلة للصراعات النقابية والسياسية ، وأخيراً بصور مستقبل أفضل .

هـ - يقودنا هذا كله إلى النظر في أقاويل بعض علماء اجتماع القرن التاسع عشر ، وهي أقاويل لا تخلو من فائدة ، لكنها تحتوي ، كما نعتقد ، على خطأ صار ظاهراً بفضل الوضع المعرفي في القرن العشرين . فقد ذكر برودون وماركس من جهة ، واوغيست كومت من جهة ثانية - على الرغم من كونه نقيضاً مختلفاً مع الأولين في كل النقاط - ، البروليتارية بوصفها مجدداً حاسماً للمعرفة الفلسفية . إن برودون في كتاب « منظومة التناقضات الاقتصادية » (1846) أولاً ، وكتاب « حول العدل في الثورة والكنيسة » (1858) ، وثانياً (الدراسة 6 حول العمل ، والدراسة 7 حول الأفكار) ، يؤكد أن البروليتارية التي يقارنها ببروميثيوس ، حين تحرر العمل من الاستلاب ، ستنصر المعرفة الفلسفية بوصفها برهاناً عملياً على « أن الفكرة مع مقولاتها تولد من العمل وعليها الرجوع إلى العمل ، تحت طائلة المسؤولية بالنسبة إلى الفاعل » (7) . أما ماركس أذ يعتبر في أطروحات حول « فيورباخ (مقدمة الأيديولوجية الألمانية . 1845) ، البروليتارية بوصفها تجسيدا للنشاط الاجتماعي العملي ، إنما يؤكد أنها ستسلمهم معرفة فلسفية جديدة (8) . « إن مسألة

(7) يمكن الرجوع حول مفاهيم برودون الفلسفية إلى كتاب غورفيتش في سلسلة « فلاسفة Philosophes » الصادر عام 1965 عن P. U. F. ، لا سيما ص 15-31 .

(8) راجع مختصر أفكار ماركس الفلسفية في الفصل 12 من كتاب : La vocation actuelle de la Sociologie , vol . II , 2e ed . , 1963 , « la Sociologie de karl Marx » , PP . 220 — 270 .

معرفة ما إذا كانت الحقيقة الموضوعية مردها إلى الفكر البشري ليست مسألة نظرية وإنما هي مسألة عملية » ، كما يقول ماركس (ج 6 ، منشورات كوست ، ترجمة موليتور ، ص 141-142) . « إن العقيدة المادية حول تبدل الظروف والتربية تتناسى أن الظروف تبدل بفعل البشر ، وأنه ينبغي على المربي ذاته أن يكون متربياً . أن تطابق تبدل الظروف وتبدل النشاط البشري لا يمكن الإلمام به وإدراكه عقلياً إلا بوصفه ممارسة ثورية » (ص 142) . « لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم تفسيراً مختلفاً ، والمطلوب هو تغييره » . . . (ص 144) .

الخلاصة أن برودون وماركس يتمثلان الطبقة العاملة كأنها مدعوة إلى إعلاء معرفة فلسفية جديدة ، تعرف منذ ذلك الحين كفلسفة براغماتيكية ولقد شهدت هذه الفلسفة نجاحاً خاصاً في بلد رأسمالي بالدرجة الأولى ، هو الولايات المتحدة الأميركية ، حيث أن الفلسفة البراغماتيكية . من ويليام جامس إلى جون ديوي ، انتصرت دون أن تشير أدنى اهتمام لدى الطبقة البروليتارية .

أما أوغيسيت إكومت فإنه نادراً ما يدخل في تحليلاته السوسيولوجية التقسيم الطبقي ، ونادراً جداً ما يشير إلى وجود البروليتارية . أن مفاهيمه الاجتماعية تقع في مقابل مفاهيم ماركس وبرودون (الذي يجهله ، والإنسان معاديان له كلياً) . ومع ذلك فإنه في « خطابه حول مجمل الوضعية » الذي يعود إلى 1848 والذي سيندرج في الجزء الأول من « منظومة السياسة الوضعية » (الجزء الأول ، 1851) ، لا يفوته ذكر البروليتارية « بوصفها حاملاً لمعركة فلسفية جديدة » التي يوحد ماهيتها ، بالطبع ، مع فلسفته الوضعية الخاصة ! فهو يعلن بوضوح ، وذلك يدهشنا بعض الدهشة : « أن التجدد الاجتماعي التام الذي تنشده الوضعية ، تتخوف منه شتى الطبقات الوسطى تقريباً مثلما تتخوف منه الطبقات العليا ؛ لهذا فإن الوضعية لا يمكنها اكتساب تأييدات جماعية عميقة إلا في صفوف الطبقة البروليتارية »

(ص 134 — 140) . ويقول هناك اذن « صلة دقيقة بين الفلسفة الوضعية والبروليتاريين (ص 136 — 137) ؛ وهو لا يقيم هذه الأقاويل على أي برهان ، ويساهم في الأجزاء الثلاثة الأخرى من « منظومة السياسة الوضعية » ، التي تخاطبُ المستبدين الرجعيين فقط .

بعد موت ماركس ، تمثلت الماركسية الدوغمائية خصوصاً في انجلز ، كاوتسكي وبلخانوف الذين لم يتمكن لينين (على الرغم من أرائيته⁽⁹⁾) وتجربيته الضمنية ، وكذلك على الرغم من إحساسه الحاد جداً بخصوصية التاريخ الروسي (من التخلص منهم كلياً ، وأناطت البروليتارية ، بين « مهام تاريخية » (مثل التحرير الكلي للإنسان والمجتمع ») ، بمهمة الحامل الرئيسي لفلسفة خاصة : « المادية الجدلية » - وهي عبارة لم يستعملها ماركس أبداً⁽¹⁰⁾) ولم نعد ندري ماذا تعني ، لأن مفهوم « المادة » يتبدل دون انقطاع مع تطور العلم ، وبالأخص مع تطور الفيزياء المعاصرة . فأية علاقة موجودة بين « الفيزياء الكوانتية » الحالية التي تظهر « كوانتات الطاقة » و « المادة » المأخوذة بأي معنى من معانيها ؟ وعليه ، فإن عبارة « مادية جدلية » لا تقوم بغير اضعاف الإلتباس على تفسير « الجدل » ، (الديالكتيك) ، كما كان ماركس قد حدده فعلاً وطبقه ، في معرض كلامه على الواقعية والحيوية الإنسانية . ومن جهة ثانية ، ميز ماركس بين حركات جدلية فعلية (في شتى المجتمعات الشاملة ، والطبقات الاجتماعية وأخيراً في شتى الجماعات ، الخ) . وألح كثيراً على التفرقة بين الحركة الجدلية الفعلية والمنهج الجدلي المطبق لدراساتها .

(9) حول الارادية عند لينين يمكن مراجعة كتابه « الدولة والثورة » (1917) .

(10) لم يتكلم ماركس الا عن « الواقعية الإنسانية » ، وفيما بعد تكلم عن تبعية المعرفة تجاه الحياة الاجتماعية . وعندما يذكر ماركس « العلم التاريخي المادي الجديد » فإنه يفكر بمنهج في البحث أكثر مما يفكر بالبنية التحتية المادية للمجتمع وللواقع التاريخي الذي هو جزؤه الأهم ، وكل هذا لا علاقة به إطلاقاً بـ « الفلسفة المادية » .

ولقد حاولت في كتابي الأخير ، الجدل وعلم الاجتماع ، أن أبين أن كل منهج جدلي غير دوغمائي لا يمكنه إلا أن يكون اختبارياً وأن كل تجريبية حقيقية لا تقف عند سطح الأشياء لا يمكنها إلا أن تكون جدلية (من هنا عبارة التجريبية الجدلية العليا *Huper — empirisme dialectique* الذي أصطنعته) . وبموجب التفسير هذا ليس المنهج الجدلي إلا محاكمة تطهيرية *Ordalie d'épuration* للمفاهيم المحنطة ، وهو تطهير سابق لكل معرفة فلسفية وعلمية على سواء ، ولا مناص منه خصوصاً في علم الإنسان ، وفرعاه المهيمنان التاريخ وعلم الاجتماع⁽¹¹⁾ .

أما الطبقة البروليتارية سواء كانت في وضع طبقة مقهورة أم في وضع طبقة يعلن قادتتها الإنشاء إليها ، إعلاناً باطلاً في أذهاب الأحيان ، فإنها لم تخرج أبداً حتى الآن من نومها أو من خدرها الفلسفي . فكيف سيكون الحال في المستقبل ؟ سنسعى لكي نبين في الفصل المخصص للمنظومة المعرفية المتوافقة مع المجتمعات المبرمجة وفقاً لمبادئ الجماعة اللامركزية⁽¹²⁾ والقائمة على التسيير الذاتي من جانب كل المعنيين ، إن المعرفة الفلسفية ، المقترنة مع معرفة الآخر ، لها حظوظها في استرداد مكانتها الأولى . لكن هذا الأمر يفترض مسبقاً زوال البروليتارية بالذات وتكوين طبقات جديدة . ومهما يكن الأمر ، فإننا قادرون على الاستنتاج بأن اعتبار البروليتارية ، كطبقة اجتماعية ، بوصفها بؤرة لمعرفة فلسفية ، إنما هو اعتبارٌ مردّه إلى الإعتقادات والأساطير .

والحال ، فإن الأمر متعلق بأوهام ، فما هو مصدرها ؟ ربما أولاً من الافتراض أن المعرفة السياسية الخاصة بالطبقة البروليتارية تشتمل على فلسفة ضمنية ، وثانياً من كون معرفة عصرها الفلسفية لا تقدم شيئاً بناءً ومرضياً للمفكرين الذين غدّوا أملاً كهذا . فقد ظهرت حاجتهم إلى التعزية ، فيما

(11) راجع عرض جدلية ماركس في كتاب الجدل وعلم الاجتماع ، السابق الذكر .

(12) المرجع السابق ، الجزء الرابع ، الفصل 12 .

ظهرت ، من خلال ارتقَاب فلسفة جديدة متحدرة من الطبقة البروليتارية لأول مرة . لكن حتى الآن لم يظهر شيء يجيب عن هذا الارتقَاب . فما من فلسفة وضعت في القرن العشرين ، من البرغسونية إلى الفنونولوجية المتعددة الشرائح والتيارات ، مروراً بالواقعية ، المطلقة أو النسبية - أو الوجودية بمختلف تفسيراتها ، يمكن عزوها إلى الطبقة البروليتارية ؛ وهذه الفلسفات لم تحرك فيها أدنى صدى . وفي عصرنا حيث تسودُ المعارف التقنية المسكونة أكثر فأكثر بالمعارف العلمية ، فإن هذه الأخيرة هي التي تمارس ، حتى بدون تعميم ، اجتذاباً يزداد إشاعة ويتناول الفئات العليا من البروليتارية .

إن الأشكال الجماعية ، الرمزية والنظرية تسود بكل وضوح في الأنواع المعرفية التي تكون الطبقة البروليتارية مرتكزاً فعلياً لها ، نعني المعرفة السياسية ، المعرفة التقنية ، والمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، ومعرفة نحن أخيراً ، وثمة تلوين صوفي ينزع أحياناً إلى الحد من الشكل العقلي ، فيتوازن الشكلان المدركي والتجريبي .

الفصل الخامس

الطبقة التقنوبيروقراطية المضمرة ونظامها المعرفي

إن الطبقة التقنوبيروقراطية المالكة سلطة قرارات غير مضبوطة ، تجعل صلاحياتها التقنية الخارقة مستقلة عن الأهداف التي يفترض بها أن تخدمها ، والتي تكمن قوتها في حضورها الكبير الممتد من المنشآت الصناعية الكبرى إلى الإدارة العليا في الدولة ، وإلى أجهزة التخطيط العامة والخاصة ، وإلى الأركان العامة في الجيوش الحديثة ، تجد سنداُ خاصاً لها في التروستات والكراتلات ، في ظل نظام الرأسمالية المنظمة والموجهة . وهذا الحضور الكبير للطبقة التقنوبيروقراطية الآخذة في التكون ، يتكشف من جهة ثانية وينتشر انتشاراً كبيراً فتبدو كأنها تغزو « أجهزة » شتى الأحزاب السياسية ، بمعزل عن اتجاهاتها ، ودون الكلام عن النقابات العمالية (بكل أسف) والخاصة بأرباب العمل وهناك أكثر من ذلك . فنزعة التقنوبيروقراطية هذه إلى الحضور الواسع تبدو مهددة في كل مكان ومن كل الجهات ، في مختلف الهيئات الدولية ، كالأمم المتحدة والأونيسكو وحلف شمالي الأطلسي ، وشتى مؤسسات « أوروبا » الخ . وحتى أبعد من ذلك .

وهذه النزعة لا تقف عند تخوم الأنظمة الرأسمالية التوجيهية (13) بل أنها تمثل جانباً هاماً في الأنظمة الفاشية (14) - ومنتهاتها المنطقي - الأنظمة التي

(13) راجع الباب الرابع من هذا الكتاب ، الفصل التاسع .

(14) راجع الفصل العاشر .

سقطت بالأمس في المانيا وإيطاليا والأرجنتين ، وتهدد بالتجدد اليوم ، بأشكال جديدة ، حتى في بعض بلدان « العالم الثالث المتحرر من الإستعمار » . ويمكن للميل التقنوقراطي أن يظهر حتى في ظل الأنظمة الشيوعية خلال بعض مراحل نموها ، لا سيما مرحلة الجماعة المركزية (15) . وهو يتجلى طوال جهودها المبذولة لتخطي تأخرها في مجال تقنية الإنتاج . غير أن الخطر التقنوقراطي لم يكن هنا كبيراً ، وبدأ الحد منه بشكل متزايد وذلك بفضل التنبهات الحية للديمقراطية الاقتصادية الأساسية التي بدأت بها الثورة السوفياتية ، وكذلك بفضل مثال يوغسلافيا ، ومثال بولونيا جزئياً على الأقل ، نظراً لأن هذين البلدين يتجهان نحو جماعة لا مركزية لا تقوم فقط على « الضبط العمالي » بل تقوم أيضاً على التسيير العمالي الذاتي في المصانع ومساهمة ممثلي كل المعنيين في مجالس هيئات التخطيط الإقليمية أو المركزية .

ومع ذلك ، فإن الوجود الحالي والمضمر لطبقة تقنوبروقراطية والذي يشكل في معظم الأنظمة المتصارعة حالياً ، مخاطر ذات حدة ونتائج متباينة ، لا يمكن وضعه موضع الشك . كما أن مسألة النظام المعرفي المتطابق مع هذه الطبقة ، المضمرة أو الراهنة ، تبدو لنا ذات أهمية معينة وتستوجب دراستها بعض الاهتمام .

في المقام الأول ، نجد من البين أن المعرفة التقنية تبلغ هنا مرحلتها الأكثر تقدماً . فالطبقة التقنوبروقراطية تملك أعظم الأسرار التقنية ، تلك التي تسمح أولاً باستخدام الطبيعة ومن خلالها تسمح أيضاً باستخدام البشر الآخرين ، الجماعات والمجتمعات . لأن الطاقة والقنابل الذرية ، والصواريخ العابرة للقارات ، ثم العابرة للكواكب ، والآلات الأوتوماتيكية والالكترونية ، الخ . تؤثر تأثيراً فعلياً أو محتملاً في كل المجالات . ولا شك

(15) انظر الفصل الحادي عشر ، الباب الرابع .

في أن هذه المعارف تزود اصحابها ، أفراداً وجماعات ، بالرغبة والإمكانية للمبالغة في استخدام سلطانها . أن البنى الاجتماعية الشاملة ، وكذلك الأعمال الحضارية غير التقنية التي تدعمها ، تبدو متخطة ومهددة من جانب التقنيات المنفلتة العقال التي يدعي التقنوقراطيون أنهم يسيطرون عليها . لكن في الواقع ، غالباً ما يكون التقنوقراطيون بعيدين عن السيطرة على هذه الآلات البالغة القوة ، فيجدون أنفسهم متجاوزين من جانب القوى التي أطلقوها هم أنفسهم ، وبذلك يلعبون لعبة متعلمي السحر . عندئذ تنخفض سلطتهم إلى هيمنة استبدادية وغير مراقبة ، هيمنة المشتركين في شتى الهيئات التابعة لهذه التقنيات .

ويفترض أن تكون المرتبة الثانية في هذا النظام المعرفي مخصصة للمعرفة العلمية التي تقترن بها المعرفة التقنية في مستواها الأرفع . إن المعرفة العلمية ذاتها تزداد تقنية أكثر فأكثر ، نظراً لأن التقنوبيروقراطية الميالة إلى التقنية ، المبالغ بها غالباً ، لكل علم .

وفي المقام الثالث . تستخدم الطبقة التقنوبيروقراطية مرجعاً (معرفة سياسية ضمنية وصريحة على السواء . وإن معرفة كهذه تعتبر ضرورية أولاً لاجتماع ميدان للتوفيق بين الجماعات المتعارضة الخمس التي تكون هذه الطبقة ، وهي : ١) الخبراء التقنيون ؛ ٢) المخططون ؛ ٣) « المنظمون » أو « رجال الجهاز » في المنشآت الاقتصادية العريضة ، والتروستات والكارترات ، وكذلك في الأحزاب السياسية والنقابات ؛ ٤) البيروقراطيون وكبار موظفي الخدمات العامة الفعليين ؛ ٥) وأخيراً التقنيون العسكريون . ولا تتأثر مصالح ومفاهيم هذه الشرائح الخمس المتصارعة غالباً ولا تنهاى أيديولوجيتها البالغة الغموض ولا توجهها السياسي . والحال ، لكي تتاح لها فرصة الانتهاء في طبقة واحدة ، لا بد لها من اللجوء إلى استراتيجية سياسية علمية .

أن عقيدة سياسية متبلورة ، تضع في المقدمة ضرورة سلطة « النُخب القائدة » بوصفها تجسيداً للكفايات الإستثنائية ، الموجلة بتزويد المجتمع المقبل

بـ « حضارة تقنية » ، لا إنسانية تماماً ، تنتشر ، في الواقع ، في كل البلدان الرأسمالية حيث يمكنها أن ترتدي أشكالاً مختلفة . وأن عقيدة ممثلة (معلنة على الأقل) باتت مستحيلة في البلدان الجماعية والشيوعية ، لأن إقامة ديمقراطية صناعية على أساس التسيير الذاتي من جانب المعنيين كلهم ، وعلى أساس تغليب الإنسانية المعمقة التي تبقى هي الغاية العليا ، تفرض نفسها حتى على الجماعات الأميز بين مديري فروع الصناعة ورجال « جهاز الحزب » والخبراء العسكريين .

ثم تأتي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي في المقام الرابع ، المعرفة التي يضعها هذا النظام المعرفي في أمكنة وأزمنة بالغة الخصوصية . فالميادين تنهاى هنا مع حركات الآلات والأجهزة المنظمة التي تملكها وهي تعاني من هيمنتها .

وهذه الميادين هي ، من حيث المبدأ ، مستقبلية تفضيلاً ، بفضل علاقتها المباشرة بالتقنيات المنفلتة من عقابها . نعني التي باتت مستقلة عن البنى الاجتماعية التي أنشأتها . يضاف إلى ذلك أن هذه الميادين تمتاز بقدرتها على التوسع إلى ما لا نهاية .

لكن هذه الميادين - الآلات هي في الواقع مرتبطة بعدوانية الجماعات التكنولوجية والقرابية التي تجدد نفسها ، وهي تقودها ، متخطة من جهة القول التي استحدثتها وانتهى بها الأمر إلى الخضوع لها . وبقدر ما تظل هذه الميادين متعلقة بهذه الجماعات من « تلاميذ السحرة » ، فإنها ترتدي في آن واحد رداء عنصر أنوي وإسقاطي .

ومن جهته يعتبر الزمان الذي تضع فيه الطبقة التكنولوجية والقرابية العالم الخارجي هو الزمان الذي تعزوه إلى حركتها بالذات ، نعني من جهة الزمان المتقدم على نفسه من حيث تقنية الآلات ، ومن جهة ثانية زمان التخطيطات على المدى البعيد ، وهذا أحياناً هو الزمان المتفجر لابتكار آلات جديدة أو

استعمالها للمرة الأولى ، وأن الأزمة المذكورة تعزز الطابع المستقبلي بقدر ما تعزز من الطابع العدواني للميادين التي تظهر فيها حركات العالم الخارجي والعالم الطبيعي التي تدعي هذه الطبقة توليدها .

إلا أن الطبقة التقنوبيروقراطية تكون في هذه المعرفة الإدراكية ، ضحية وهم : فالمشاركون فيها هم العبيد الأوائل للميادين - الآلات وللأزمة - الآلات التي يأملون في السيطرة عليها عندما يصلون إلى الحكم ، والتي تجر المجتمع إلى سباق للدمار الذاتي . أمام أفق كهذا ، نجد هذه الطبقة بعض التهدة لقلقلها اللاواعي (الذي تحاول إخفاءه) ، بقدر ما يظهر أن المشاركين فيها (مهما تكن شرائحهم) لا يزالون بوجه خاص أنصاراً متحمسين دائماً لحل الأمكنة والأزمة الملموسة في تسوير كمين زمني - مكاني شامل . مع أن معرفتهم الخاصة بالعالم الخارجي تعلنها نسبية جداً . . من هنا جاءت عقبة جديدة في وجه انبناء هذه الطبقة وهي عقبة لا يمكن تجاوزها إلا بهذيان كبير وعدواني .

[حتى الآن لم تولد الطبقة التقنوبيروقراطية أي معتقد فلسفي بالمعنى الدقيق للكلمة ، لكنه ليس من المستحيل أن تقدم على ذلك بالرغم من كل العقبات الداخلية التي حاولنا إظهارها (أيديولوجية متناقضة ، قلق التقنوبيرقراطيين اللاواعي إزاء عجزهم عن ضبط الآلات التي يسيرون ، النزاعات التي تفصل بين عقلية مختلف شرائح هذه الطبقة) . وعليه لا يمكن الإنكار أنه في موقف هذه الطبقة الآخذة في التكون ، ترسم بعض التوجهات الفلسفية الضمنية التي نجدها في منتصف الطريق بين السوبرنيطيقا والبراغماتيكية المجردة من كل إنسانية ، والإستلهاام العامض من هيدجر - وهو الفيلسوف الصحيح الوحيد الذي تقبل النظام النازي ، ليتراجع عن ذلك فيما بعد . .

أخيراً ، في النظام المعرفي المطابق للطبقة التقنوبيروقراطية لا تلعب معرفة الآخر ولا معرفة الحس السليم أي دور واضح . وأما بخصوص معرفة

الآخر ، فإن ازدراء القريب وبالأخص المرووس ، غالباً ما يكون عظيماً ، فلا يسمح للمعرفة المذكورة بأدنى تحقق . . .

وفيما يتعلق بتشديد الأشكال المعرفية ، العقلاني منها والصوفي ، الفردي والجماعي ، فإنه يبدو متوازناً ، بينها تسيطر الأشكال المدركية والرمزية والنظرية .

وبالطبع يعتبر اندماج الطبقة التقنوبيروقراطية ، كما هو الحال بالنسبة إلى كل الطبقات الأخرى ، في مختلف أنماط الرأسمالية التوجيهية أو الفاشية ، مؤثراً على سمات النظام المعرفي المتطابق معه ، كما سنرى ذلك في الباب الرابع من هذا الكتاب .

الباب الرابع

أنماط المجتمعات الشاملة ومنظوماتها المعرفية

ملاحظات تمهيدية

نتناول الآن الباب الرابع ، الأخير ، من كتابنا ، حتى نقابل أنواع المعرفة وأشكالها مع البنى الشاملة والظواهر الاجتماعية الكلية المتضمنة في أنماط شتى . فهنا تصبح هرمية الأنواع المعرفية ، القائمة في بعض التجمعات المبنية (التي شددنا فيها على مثال الدول والكنائس) وبالأخص في بعض الطبقات الاجتماعية ، تصبح قابلة للتمييز بوجه خاص . وتوفر للدراسة ميداناً أخصب . وكذلك فإن بروز الأشكال داخل كل نوع معرفي يعتبر أكثر استقراراً واستدلالاً .

[لنذكر أولاً ماذا نقصد ، في كتاباتنا ، بالمجتمعات الشاملة وبالبنى .

[إن المجتمعات الشاملة هي الظواهر الاجتماعية الكلية ، الأكثر اتساعاً وأهمية ، الأغنى من حيث المضمون والرسوخ واقع اجتماعي معين ، في آنٍ واحد . وهي تتجاوز من حيث الإمتلاء والسلطة ليس فقط التجمعات الوظيفية والطبقات الاجتماعية بل تتجاوز أيضاً مراتبها المتصارعة . إن هذه « العوالم الكبرى في العوالم الاجتماعية الكبرى » تملك سيادة قانونية تتجاوز صلاحية كل التجمعات الداخلة فيها ، بما في ذلك الدولة ، التي لم تنقطع سيادتها القانونية عن كونها نسبية وتابعة على الرغم من كل المظاهر المضادة .

كذلك تمارس المجتمعات الشاملة سيادة اجتماعية معينة على كل المجاميع المنتمية إليها ، نعني التي تتمتع بتفوق فعلي ، فالمجتمع الشامل ليس فقط

مجتمعاً قابلاً للبناء ، لكنه مجتمع مبنيٌّ دائماً . وهناك هيئات مختلفة تشترك في هذه التوازنات الأولى التي تمثلها البنى ، إلا أن البنى (سواء كانت كلية أو جزئية) وبالأخص الهيئات لا تعبر تماماً عن الظاهرة الاجتماعية الكلية الشاملة ، ليس فقط لأنها ذات وظيفة عليا (مافوق الوظيفة) . بل لأنها أيضاً هي الأكثر تحركاً وغنىً بين كل البنى التحتية الممكنة . هناك دائماً من المد و الجزر في الظاهرة الاجتماعية الكلية الشاملة أكثر مما يوجد في بنيتها . فبمعزلٍ عن كون البنية الشاملة ، حتى تتجنب انفجارها ، لا يمكنها الحفاظ على توازاناتها إلا بمجهودٍ متكررٍ ولا متناهٍ من إعادة البناء المتصارع مع حركة الهدم البنيوي ، هناك دائماً تفاوت ملحوظ بين حياة البنية الإجمالية وحياة الظاهرة الاجتماعية الكلية المتضمنة فيها . وفيما يختص بمسألة العلاقة بين أنواع المعرفة وأشكالها يمكن أن يؤدي ذلك إلى التساؤل عما إذا كانت تجليات المعرفة المتطابقة مع البنية الشاملة والظاهرة الكلية الضمنية هي نفسها على الدوام ، وعما إذا كان لا يوجد أموالٌ يخشى فيها أن يتصارع نظامان معرفيان وحتى أن يتناقضا داخل مجتمع شامل .

[إنه لمن المستحيل وضع أنماط المجتمعات الشاملة دون المرور بينها ، ومن الضروري في الآن ذاته المضي أبعد من البنى الشاملة لبلوغ الظاهرة الاجتماعية الكلية ذاتها . إن البنى الاجتماعية يمكن تبويبها في أنماط وفقاً لعدد معين من المعايير وهي :

- ١ . هرم التجمعات ؛
- ٢ . الإقتران المحتمل بين تجليات الحياة الاجتماعية ؛
- ٣ . الميل إلى التحقق الخاص لبعض المراتب في العمق ؛
- ٤ . سلم طرق تقسيم العمل والتراكم ؛
- ٥ . هرم التنظيمات الاجتماعية أو الضوابط الاجتماعية ؛
- ٦ . نظام الأعمال الحضارية ؛
- ٧ . سلم الأزمنة الاجتماعية .

[وباختصار ، قبل وضع أنماط المجتمعات والبنى الشاملة التي ستستخدم كإطارات لدراستنا الأنظمة المعرفية المتبانية المتطابقة معها ، لنذكر أن مفهوم المجتمع الشامل ذو صلة بالظواهر الاجتماعية الكلية الكاملة والسيدة ، وهي بشكل رئيسي ذات وظائف عالية ، منبئية دائماً ، ولكن تنظيمياً واحداً لا يكفي أبداً للإعراب عنها تماماً ، لأنها تسعى للتعالي على الطبقات الاجتماعية التي تدخل في صميمها . وهي تهيمن على هذه العوالم الكبرى من التجمعات ، دون الكلام عن المراتب في العمق ، وتحليلات الحياة الاجتماعية ، وشتى التنظيمات الاجتماعية ، وطرق تقسيم العمل الاجتماعي ومختلف الأزمنة الاجتماعية فـ « التناسق » - التوازن الأولي - بين هذه البنى ، قائم على حضارة أو عدة حضارات تشارك فيها البنى ، وهي تتخطاها في آن . ذلك لأن البنى الشاملة تكون دائماً خالقة الأعمال الحضارية ومستفيدة فيها في آن ، وأن تشديد هذين العنصرين يتقبل عدداً لا متناهياً من التقلبات ؛ ولكن حتى في الحالات القصوى للحضارات ، المجتلبة تفضيلاً ، يفترض تكييفها مع أوضاع أو إطارات اجتماعية مختلفة نسبياً أو « مبعدة » ، يفترض عنصراً أبداعياً ، صادراً عن ظواهر اجتماعية كلية شاملة . وبالتالي فإن « تكييف » عمل حضاري مجتلب مع « ظروف جديدة » ، يعني إعادة اداعه بطريقة ما . . .

سوف نقابل في استقصاءاتنا حول الترابطات الوظيفية بين الأنظمة المعرفية والمجتمعات الشاملة من كل الأنماط ، بين بنى « المجتمعات القديمة » وبنى المجتمعات التاريخية أو البرومثيوسية . ومن بين هذه الأخيرة ، سوف نميز بين مجتمعات الماضي ومجتمعات الحاضر ، المتصارعة حالياً .

الفصل الأول

علم الأنام وأبحاث علم الاناسة الفلسفية

[نرى أن دراسة المجتمعات القديمة ، بوصفها إطاراً اجتماعية للمعرفة ، تتضمن مصاعب كبيرة جداً ، بدءاً بالصعوبة التي يواجهها المراقب غير المشارك في الظاهرة الاجتماعية الكلية (وهذا حال عالم الأنام الاتنوغرافي) ، مروراً بالبنية وما هو مضمّن فيها . وهناك مصاعب أخرى ، فعلية أيضاً ، مصدرها في هذا النمط الاجتماعي هو كون الأعمال الحضارية غير متمايزة كفايةً . وفي هذه الظروف البالغة الاشتباه ، يمكن لعلم اجتماع المعرفة أن يقتصر عند الحاجة وعلى الأقل مؤقتاً ، على الاستناد في أبحاثه إلى المجتمعات التاريخية ، أو البروميشوسية كما اقترحنا تسميتها سابقاً ، وتأجيل - دراسة المعرفة القديمة إلى عصر يكون فيه علم اجتماع المعرفة أكثر تقدماً .

[وإذا توقفنا أمام المجتمعات القديمة بوصفها إطاراً اجتماعية للمعرفة ، فذلك على الأخص لكي نقف في وجه نزعة السيد ليفي - ستروس إلى خفض الفرق بين معرفة المجتمعات القديمة ومعرفتنا ، ما عدا بعض طرق التعبير . لقد أكد في ثلاثة من أعماله (الفكر الوحشي ، 1963) ، (الطوطمية اليوم ، 1962) ، وأخيراً (النية والمطبوخ ، 1964) . على وجود بنيوية منطقية عالمية وراء كل مجتمع (1) فبدأ المؤلف كأنه يتجاهل لوسيان ليفي - بريل

(1) راجع الأنثروبولوجيا البنيوية (1958) ، لا سيما الصفحات 303 وما بعدها وانتقادات ج . غورفيتش في

— Traité de Sociologie , vol. I , 2^e éd . , pp . 2^e et suiv . ,

— La vocation actuelle de la Sociologie , vol . I , 3^e éd . 1963 pp . 420 — 423 .

الذي أبرزت أعماله حول انعقلية البدائية الفرق بين المعرفة الخاصة بالمجتمعات القديمة ومعرفة المجتمعات التي كانت تسمى حضارية في الماضي ، والتي يمكن وصفها بالتاريخية ، وهذه صفة أنسب .

إن لوسيان لفي - بريل الذي كرّس ، كما نعلم ، مواد بالغة الأهمية حول المعرفة في المجتمعات القديمة ، تناسى مع ذلك التفريق بينها ، وتدقيقها تدقيقاً كافياً ، فسعى بالأحرى إلى خفض كل هذه المجتمعات إلى غلط واحد ، وإلى وسم المعرفة المتطابقة معها (والتي المح شخصياً إلى تعدد أنواعها : معرفة إدراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر ، معرفة تقنية ، معرفة ميثولوجية - كونية) بنفس السمة المميزة للشكل الصوفي ، والصادرة عن قوة « النوع العاطفي في ما فوق الطبيعة » - حسب عنوان أحد مؤلفاته . ونظراً لوجود عدة انماط من المجتمعات القديمة ، وأنماط أكثر من المجتمعات التاريخية ، فإن تحليلاته المرموقة بسّطت قليلاً من مسألة المعرفة القديمة ، أو بشكل أصحّ طرحت المسألة أكثر مما حلّتها .

وعليه ، فإن أعمال لفي - بريل كانت تبدو وكأنها مانعة للرجوع إلى ابتسارات القرن الثامن عشر وإلى مفهوم الوعي المتسامي والمطلق . ولكن السيد لفي - ستروس يبدو لنا أنه حقق هذه الرجعة .

فالسيد لفي - ستروس ، حين فضل الاستناد الى معلميه الأميركيين ، مثل Boas و kröeber ، انتظر طويلاً جداً قبل الاعتراف بمصدر إلهامه الأول . الا أنه في كتابه الأخير : Le cru et le cuit ، اهتز من ملاحظات P. Ricoeur فلم يتمكّن من تجنّب الاعتراف بأن « إشكاليته تلتحق بإشكالية كانط ، في سبيل البحث عن الإكراهات العقلية »⁽²⁾ . فيبدو أنه يظن بأن واقع التأييد لحكم ب . ريكيير ، الذي يصف فكرة بأنه « كانطي دون

ذات متسامية » ، سوف يقوي موقعه ، متناسياً انه لا يمكن بنظر كانط وجود تعارض بين « التراث المتسامية » و « الوعي المتسامي » المعروف بأنه « واحد عند الجميع » .

ومهما يكن الأمر ، فإن تحليل الأساطير المجتلبة جميعها من لدن الهنود في أمريكا اللاتينية أو المركزية ، وهو تحليل تكراري في جزء منه ، هو الذي يمكن أن يكون حجة على وجود « وعي متسام » . وخلافاً لذلك ، يظهر مؤلف النسيء والمطبوخ الفرق القائم بين هذه الأساطير والأساطير الخاصة بمجتمعات قديمة أخرى ، وكذلك بالنسبة إلى كل فكر غير متنبه ، فإن الأنظمة المعرفية الخاصة بشتى المجتمعات الرأسمالية أو الجماعية ليس لها أية علاقة بالأساطير التي يهتم بها السيد لفي - ستروس . فهو عند ما يحاول في كتابه Structures élémentaires de la parenté تفسير المحارم الجنسية وتحريمات الزواج بين المتحدرين من نفس العشيرة لأجل الحفاظ على بكاره السلعة المخصصة للتبادل ، إنما يسقط مفهوم السلعة ، الخاص بالبنية الرأسمالية تحديداً ، على المجتمعات القديمة حيث لا نجد أي تطبيق لهذا المفهوم ، وهو بذلك يكرر أخطاء رواد الإقتصاد السياسي الكلاسيكي ، مثل آدم سميث وهيوم ، وهي أخطاء ندد بها روسو .

فبدلاً من إظهار تجليات الوعي المتسامي بتأهلي مضمون الأساطير ، يكتفي كلود لفي - ستروس بخفض التعارض بين « الطبيعة والثقافة » إلى التعارض بين « النسيء والمطبوخ » ، الأمر الذي لا يمنع الكلام عن « جدلية بينهما »⁽³⁾ . لكن استعمال كلمة « جدلية » تبدو لنا هنا مبالغاً بها . لأنه من العبث البحث عن حركة جدلية فعلية ، سواء في النسيء أم في المطبوخ ، نظراً لأن الجدلية لا يمكن تواجدها إلا في الانتقال ، في « التوجه إلى » ، وفي عرض كاتبنا ، نجد الجدلية أما في النار ، التي تكفل الانتقال من النسيء إلى

op . cit . PP . 140 et suiv . (3)

المطبوخ ، وأما في فساد أحدهما أو الاثنين ، وهذا ما يدعمه عملياً السيد لفي - ستروس⁽⁴⁾ ، وحتى إذا وسعنا نطاق التعارض الأولي بين الطبيعة و« الثقافة » لكي نلاحظ اختراقاً دائماً للطبيعة من جهة الفعل البشري (المجتمع « بالفعل » عند سان سيمون) والأعمال الحضارية الصادرة عنه ، والتي تعاني بدورها من قوة مقاومة الطبيعة ، فلا بد لنا من الاعتراف أن هذه الحركة الجدلية لا تظهر في أي مكان أفقر مما هي عليه في « النبي والمطبوخ » . إن الكتاب الأخير للفي ستروس يؤدي إلى هذه النتيجة الوحيدة ، الأمر الذي يفترض به أن يقوده إلى تحليل فعلي للمعرفة القديمة ، الأقل جدلاً .

(4) . Ibid . p . 152 .

الفصل الثاني

المجتمعات القديمة ومنظوماتها المعرفية

لنعد الآن إلى المسألة كما نراها نحن .

كما سبق لنا القول ، نعني بالمجتمعات القديمة المجتمعات غير البروميثوسية ، التي نشعر بالغربة عنها . وتفترق هذه المجتمعات جوهرياً إلى وعي إمكان التبدلات البنيوية بالمجهود ، وحتماً ، بالارادة والحرية الإنسانييتين ، الجماعيتين والفرديتين على السواء .

ويتجلى هذا الوضع ، بين أوضاع أخرى ، في ميثولوجية لاهوتية وكونية اعتقادية تتعلق في آن واحد بأصول العالم والمجتمع ، اللذين يعتبر أفرادهما مستفيدين منهما . إن ميثولوجية كهذه تخترق كل الأنواع المعرفية الممكنة لحظها في المجتمعات المعنية ، وذلك بقدر ما يفتقر إلى الوضوح تصنيف المعرفة في أنواع : وبالتالي ، ليس فقط المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية غير متكونتين فيهما ، بل أن معرفة الحس السليم والمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ومعرفة الآخر والنحن والمعرفة السياسية تميل كلها إلى الانصهار .

إن الأساطير اللاهوتية والكونية متغلغلة في كل أنواع المعرفة ، بحيث أنه يكون من الغلو تناوّلها تناوّلًا مستقلاً بوصفها مشكلة لنوع متميز . وكل ما يمكننا قوله هو أنها تنزع إلى التأثير بقوة خاصة على المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، المميزة للمجتمعات القديمة . ومثال ذلك أن لوسيان لفي - بريل عندما يشير إلى أن الميادين والأزمّة التي يوضع فيها هذا العالم ، لا تتقبل أي

تسوير كمي Quantification ، لأن الميادين ملأى بعقبات غامضة ولأن الأزمنة تنقسم إلى أزمنة خيرة وشريرة ، فإن المقصود بذلك هو الأثر المباشر للأساطير الأصلية على المدارك الجماعية للأمكنة والأزمنة .

لكن هذه السمة العامة تشتمل على كثير من الدقائق والمتغيرات ، منذ أن نبدأ بالتمييز بين مختلف الأنماط في المجتمعات القديمة . وأنا ستوقف عند أربعة منها⁽⁵⁾ ، وليس معنى ذلك أنه لا يمكن لهذا العدد أن يرفع وفقاً لطابع الأبحاث الجارية ، بل لأننا نراه كافياً لدراسة تقلبات الأنظمة المعرفية المعنية وتبدل الأشكال داخل الأنواع المقابلة .

إليكُم إذن أنماط البنى والمجتمعات الشاملة التي نقتراح التفريق بينها بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة :

١ - القبائل ذات الهيمنة العشيرية ، والمنافسة بالعصائب العائلية التي نجد - أو كنا نجد - عينات منها في أستراليا وبين هنود أميركا الجنوبية ؛

٢ - القبائل المشتملة على تجمعات متنوعة وقليلة التراتب (عشائرية ، سحرية ، عائلية ، محلية ، عسكرية . مهنية ، الخ .) التي يتركز تألفها على الانقياد لقائد مالك سلطة اسطورية (وجد علماء أنام مثل ما لينوفسكي ، ويليامسن ، ليمان وموريس لينهاردت ، عينات متنوعة منها ، إلى جانب أنماط أخرى من المجتمعات البدائية في بولنيزيا وميلانيزيا .

٣ - القبائل المنتظمة وفقاً للتقسيمات العسكرية وللأسر المنزلية والروحية وأحياناً وفقاً للعشائر المندثرة تماماً بوجه عام (وجد علماء الأناس الأميركيون بوا ، لوي ، ايغان ، هوبل وسواهم ، وموس وادفي بعد دور كهيم في فرنسا ،

G . Goroitch : Déterminismes Sociaux et liberté humaine , 2^eed . , 1963 , PP . 222 — (5)

بقايا من هذه الأنماط في أقصى شمال الولايات المتحدة ، مثلاً عند الشروكيه والكواكيوتل) :

٤ - القبائل التي تحافظ جزئياً على التقسيمات العشائرية ، لكنها تجد تعبيرها المنتظم في الدول الملكية ، المستندة الى هيمنة التجمعات المحلية الى سلسلة من التجمعات الأخرى ، وإلى ميثولوجية لاهوتية وكونية متبلورة جيداً تتدخل مباشرة في سير البنية الاجتماعية (أيفانز بريتشارد ونورث ، هر سكوفيتز ، بومان ووسترمان ، تامبلز ، غريول ، ردكليف - براون وداريل فورد ، درسوا بعض بنى الأقوام Peuplades في أفريقيا السوداء المتطابقة ، جزئياً أو كلياً ، مع هذا النمط الذي لا يعتبر وحيداً بين الأنماط العديدة للبنى الشاملة التي تلاحظ في أفريقيا السوداء) .

١ - القبائل ذات الهيمنة العشائرية

فيما يختص بالنمط الأول ، نمط القبائل ذات الهيمنة العشيرية ، المنافسة بعصائب عائلية ، يجب الالتفات على هيمنة القاعدة البنيوية - البيئية على تقسيم العمل الاجتماعي المرتكز حصراً إلى العمر والجنس ، وغياب التقسيم التقني للعمل ، وانعدام وضوح الأساطير ، وكثافتها ، والأساطير لا تعزز ، في هذه الشروط ، أهمية مضامينها السلفية والرتبية ، فلا تسود النادج السلفية والرتبية على الطقوس والإشارات والرموز إلا نادراً . ومن جهة ثانية ، لا تمايز التنظيمات الاجتماعية إلا تمايزاً بسيطاً وقلماً تصاغ بوضوح . ويمكن التساؤل في شأن هذه الأنماط الاجتماعية ، عما إذا كانت « الطواطم » بوصفها صوراً للحيوانات أو النباتات ، لا تحمل محل الإشارات والرموز والقواعد الأكثر تجريداً من حيث الوضوح والصياغة .

إن هذا السؤال يتيح لنا الفرصة ، من جهة ثانية ، لكي ندخل هنا بعض الملاحظات الوجيزة المتعلقة بمسألة « الطوطمية » بوجه أعم . وبالتالي ، يمكن اكتشاف تجليات وظواهر الطوطمية بدرجات متفاوتة من حيث الأهمية

والوتيرة ، في معظم البنى القديمة ذات الأنماط المتنوعة ، من أبسط البنى (التي تناولناها بالدرس) إلى أعقدها (بما في ذلك الممالك الزنجية الكبرى ، الموجودة على التخوم الفاصلة بين المجتمعات القديمة والمجتمعات التاريخية) .

لقد ربط بعض المفسرين « الطواطم » بـ « سحر الصيادين » وربطها البعض الآخر بالعبارة المتخيلة للتقاليد الراسخة أو بالأحرى برموزها . إن علماء الأنام من الجيل السابق وعلى رأسهم فرازر من جهة ، ودوركهم من جهة ثانية ، نسبوا « للطواطم » أهمية رئيسة (ونعتقد أنها أهمية مبالغ بها) في وجود « العشائر » و « القبائل » بالذات ،

وهكذا رأى دوركهيم في « الطواطم » رموزاً تشدد على تأليه المجتمع القديم لذاته . وكان يتلذذ في ذكر زعم الهنود البورورو Bororo (في أميركا اللاتينية الجنوبية) أنهم يمثّلون الأرارارا Arara - وهي أجمل بينغوات العالم . ويرى دوركهيم أن الأرارار لم تكن تعتبر كآلهة ، بل كرموز للآلهة ، وكانت ترمز للقبائل البورورو . وعليه ، كان يرى في الأرارار مثلاً للوسطاء الذين كانوا يقودون الجماعات البشرية الفعلية إلى مشاركة مباشرة في الألوهة . وأخيراً كانت الطواطم ، بنظر دوركهيم ، تعكس الواقع الاجتماعي على التعالي الألهي ، الأمر الذي كان يعني في نظره نوعاً من التأليه الذاتي للمجتمع ، كما يشعر به « القدماء » .

خلال السنوات الأربعين الأخيرة ، حدثت ردة فعل قوية في صفوف علماء الأنام والأنثوغرافيين الأنكلوسكسونيين والأميركيين ، ضد المبالغة في أهمية الطوطمية في مختلف المجتمعات القديمة ، فقد لوحظ ، على الرغم من جهود تفسيرية عديدة ، أن المعاني الأشد تنوعاً ينسبها المعنيون أنفسهم إلى دلالة الطواطم . ومثال ذلك أن الكثيرين من العلماء توصلوا إلى السؤال عما إذا لم يكن من الأفضل تصفية كل صياغة مدركية للطوطمية ، معترفين لها بعدد من المعاني ($n + 1$) الممكنة ، يمكن للأنثوغرافيا الوصفية أن تقدم جردة جزئية عنها . . .

بيد أن ما يبقى من الطوطمية في القبائل العشيرية ، هو جدل حقيقي بين « التصنيف » و « المشاركة » ، يفترض التكامل تارة ، والتضمين المتبادل تارة ، والمنثوية تارة أخرى ، وهذا الأمر لا يظهر في كتاب لفني - ستروس الطوطمية اليوم ، الذي يسعى بذلك إلى تحويل المضاعف بدلاً من حلها ، فهو عندما يجهد ، فيما بعد ، لإظهار قرابة بين « مبدأ التصنيف المنطقي » للطوطمية ومبدأ « العلم الحديث » باعتبارهما كليهما من « الأفكار المسورة كميًا » ، لم يكن له أي قصد آخر سوى الإظهار ، في آنٍ واحد ، أن المشاركة الصوفية والعاطفية منعدمتان في معرفة القدماء ، وأنه لا يوجد أي تفريق بين « الفكر الوحشي » ومعرفتنا الراهنة (مهما تكن علميتها) . إذن ، كان لهذا الخلط بين العقلانية والعرفانية غاية أساسية هي محو كل أثر تبايني بين التصنيف والمشاركة في الواقع عندما يتعلق الأمر بالمعرفة . لكن يبدو أن السيد لفني - ستروس لم يدرك أنه بذلك قد وقع في مثالية قصوى هي من جهة ثانية في أصل « بنيويته البديهية » . فإذا رجع في النقيض والمطبوع إلى مادية بدائية لا يتقنها « جدلُ الفاسد » ذاته ، فإننا مضطرون للملاحظة بأن حججه لا تنجح إلا في تبيان الاستحالة الملازمة لإنكار الفرق القائم بين الأنظمة المعرفية المتطابقة مع الأنماط المختلفة للمجتمعات القديمة ، دون الكلام عن المجتمعات التاريخية .

لنعد الآن إلى المقطوعات المعرفية الخاصة بالمجتمعات التي تسودها العلاقة بين العشائر والطواطم . فقد توصلنا إلى رسم اللوحة التالية .

أ (بين الأنواع المعرفية وأشكالها التي تكتشفها هنا ، يجدر أن نذكر في المقام الأول المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . - إن العالم الخارجي موضوع في مكان يتسم جوهرياً بأنه غيري وأنوي . أنها « المنطقة المحرمة » المقابلة لكل العالم الباقي . والزمان دوري وفصلي . وبقدر ما تحمل الأماكن والأزمنة طابع صوفية معينة ، وبقدر ما تكون ذات صلة قريبة أو بعيدة بالأساطير ،

يكون المقصود التعارض بين الطاهر والدنس ، الخير والشر ، هنا تندرج معرفة الحس السليم مباشرة في معرفة العالم الخارجي . إنها تتعلق بالمسالك ، بالسبل الطبيعية ، بالأنهر ، التي يمكن متابعتها أو التي يمكن استخدامها للدلالة على طريق . وغالباً ما جرى التشديد على الذاكرة العملاقة التي يحتفظ بها القدماء عن مسيرات طويلة الموصوفة بأنها خالية من المخاطر الطبيعية أو الصوفية - الميثولوجية . وبرأينا ، أن ذاكرة كهذه تلعب دورها في غمط المجتمع الذي ندرسه الآن .

كما أن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي تتضمن العلاقات بين العشائر ، نظراً لأن كلاً منها له موقفه الخاص ، وتتضمن العلاقات بين العشائر والقبيلة بأسرها ، التي غالباً ما يتأكد وجودها بالكاد ، خاصة إذا كانت العشائر بدوية .

ب) في المقام الثاني ، يجب وضع المعرفة التقنية ، المبسطة ، الضمنية ، العفوية ، المتعلقة بالصيد وتربية المواشي والزراعة ، ونعتقد أن مالفينوسكي كان على حق مقابل لفي - بريل ، حينما أكد وهو يعمم كثيراً جداً (لأنه هو أيضاً تكلم عن المجتمع القديم عموماً) إن التقنيات لا تصبح صوفية إلا عندما تتعلق بنشاطات خطيرة .

ج) في المقام الثالث ، يأتي خليط من المعرفة السياسية ومعرفة الآخر والنحن ومعرفة الحس السليم : وتظهر الأولى بوجه خاص في العلاقات بين العشائر أو بين العشائر والقبائل .

أما الأشكال البارزة داخل هذه الأنواع المعرفية ، الشكل الصوفي - الميثولوجي والشكل النظري ، فإنها تبدو مخففة جداً : وفي المقابل تهيمن الأشكال التجريبية والجماعية بخاصة .

لنشدد أخيراً على أنه لا يظهر في هذا النمط الاجتماعي القديم ، من الممكن إيجاد تجمع خاص قادر على الإدعاء أنه يملك المعرفة ، سواء تعلق الأمر

بمعرفة الأساطير أو السحر . حتى أن وجود السحرة - الأطباء أمرٌ مشكوك فيه داخل هذا النمط الاجتماعي .

II . القبائل ذات التجمعات المتنوعة والقليلة التراتب

وأنظمتها المعرفية

يتعلق الأمر بتجمعات عشائرية ، عائلية ، سحرية ، مهنية ، عسكرية وأخيراً محلية ، يضمن تناسقها النسبي زعيمٌ يملك سلطةً ميثولوجيةً ومختلف التجمعات المذكورة نجده في حالة من المساواة أو من التعادل ؛ فالمانا (الماناتانغاتا في المناسبة) هي قوة خارقة عالية ، تكفل النجاح ، النصر ، الجاه على الصعيدين الجماعي والفردى ، وهذه الطاقة ذات النشاط الفعال على صعيد العلاقات بين الكائنات من نفس النوع - التي تستخدم كأساس للسحر الذي يمارسه المحترفون كما يمارسه الخاصة ، بمناسبة عمل خطير أو انتهاك للحرمة - تبدو متغلغلة في كل البنية الشاملة ، لأنها تلعب في آن دوراً هاماً في مساق الانتظامات الاجتماعية وفي إصلاح المبادلات الاقتصادية (كولا ، ساغالي ، كيركير) من خلال دورة السلع وفقاً لمبدأ التبادل .

يقابل هذه التعددية في النشاطات السحرية القائمة على « الماناتانغاتا » ، وحدانية الأسطورة ذات الأصل الكوني الألهي - الاجتماعي التي تكون زعامتها ولاسيما الملك - الزعيم ، هي الحارس والمالك . فالزعيم ، كما يقول موريس لينهاردت في كتابه Do Kamo ، « ليس هو الزعيم الحربي ، بل هو رأس أسطورة » . « وليس له وظيفة الحاكم وهو لا يأمر » ؛ إنه الابن الوارث الأسلاف ، وهو الكفيل لاستمرار أعمالهم الخيرة ؛ وهو يشرف على توزيع الخيرات الكبرى ، ويشجع كل تضحية متبادلة ويتقبل القرابين » . ويقدم مالفينوسكي سمات مماثلة جداً على صعيد المجتمعات المالينية .

في غط المجتمع القديم هذا ، تلعب الميثولوجيا والدين من جهة ،

والسحر من جهة ثانية ، دوراً ملحوظاً بشكل لا يقبل المقارنة مع النمط الأول الأنف الذكر ؛ فأشكال المعرفة وأنواعها تحتل فيه موقفاً مختلفاً من حيث التدامج والتمايز . وهناك فارق آخر في التقسيم الواضح جداً للعمل الاجتماعي بين عدة جماعات مهنية : صيادي اللآلئ ، الصيادين ، المزارعين ، الرافضين ، العسكريين ، التجار الوسطاء ، الكهنة وأخيراً السحرة ، وينبغي أن نلاحظ بخصوص الدين أن تخومه غير واضحة : فهو يمثل في الواقع نقاطاً حول تعدد الآلهة ، الأمر الذي يسمح باختلاطه مع السحر ، الذي يبتعد عنه من جهة ثانية ، من خلال ارتباطه بأساطير الأصل المستقلة عن العشائر والملتحقة بالزرعامة ، فعادة ، يفوض الزعيم الرهبان تأدية الطقس الديني : ويتدخل هؤلاء خلال احتفالات الولادة أو الزواج في الطقوس الجنائزية ، في المقابل ، يتدخل السحر في الحياة اليومية للعمل والمبادلات ، مخترقاً كل التقنيات والعلاقات بين الجماعات وبين البشر .

أ) مثال ذلك ، في هذا النمط من المجتمعات القديمة ، أنه من المناسب وضع المعرفة الميثولوجية - التيولوجية في المقام الأول ، والزعامة والكهانة هما مستنداها . وهي تنزع للإقتراب من المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، الذي يتضمن عناصر أخرى كثيرة ، من بينها عنصر الحيوية السحرية .

وفي المعرفة الميثولوجية - الشيولوجية ، تبرز بوضوح الأشكال المدركية ، الرمزية ، الوضعية ، الصوفية والجماعية .

ب) تأتي المعرفة التقنية في المقام الثاني ؛ ويمكن لمستواها أن يكون منخفضاً جداً (باستثناء تقنية صيد اللآلئ) . لكن هذه المعرفة تلعب من خلال اقتران السحر بشتى التجمعات الحرفية وعملها ، وكذلك من خلال التغلغل الخاص بالمانا Mana في الأشياء الجامدة (لا سيما اللآلئ) ، وفي النباتات والحيوانات ، تلعب دوراً كبيراً في النظام المعرفي الخاص بهذا النمط من المجتمع القديم . وتعتبر هذه المعرفة السحرية - التقنية شبه صوفية وشبه

عقلانية ؛ وهي بالأحرى معرفة تجريبية ، وضعية ، مناسبة ، ويمكنها أيضاً أن تكون جماعية وفردية .

ج (ولا تأتي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي إلا في المقام الثالث ، على الرغم من مكانة الأساطير الكونية والدين ، ذلك لأن العالم الخارجي يبدو مسكوناً جداً بروح سحرية (المانا) مختلفة الأنواع ، بحيث يوفر صورة عن المعارف التقنية المرتبطة بالسحر . ويترب عن ذلك أن المكان الذي يوضع فيه العالم الخارجي هو اسقاطي أكثر منه أنوياً ، مع سمة مستقبلية ؛ وهو من جهة ثانية عالم شائع أكثر منه عالماً ذا مركز مشترك . والزمان الذي يقترن بالمكان هو زمان طويل الأمد ، يستند إلى زمان اسطورة الأصل ، وفيه يتم الشعور بزمان غير منتظم الدقات ، يحركه السحر والتقنية والمبادلات . وأما أشكال هذه المعرفة فهي متماثلة مع أشكال المعرفة التقنية .

د (في المقام الرابع ، تأتي المعرفة السياسية ، معرفة الآخر والنحن ، ومعرفة الحس السليم ، التي تنزع هنا إلى التماهي ، وبالتالي ، في إطار اجتماعي شامل حيث تكون الجماعات المختلفة قليلة التراتب ، ولكنها فاعلة جداً ، فإن المعرفة السياسية ، بوصفها استراتيجية للعلاقات بين هذه الجماعات ، تفرض نفسها ؛ ولكن بقدر ما تكون غريزية ، تختلط مع معرفة الحس السليم الخاصة بكل منها . ومن جهة ثانية ، لا يمكن للجماعات التعايش دون تعارف معين فيما بينها ، وبين أفرادها ذاتهم ، ومن الواضح أن هذه المعرفة للآخر والنحن ، القائمة على السحر والمانا ، المقترنة بخوف متبادل ، وأيضاً بعنصر تنافس ، وأن كان عنصراً تصوفياً ، لا تؤدي إلى معرفة معمقة . ومع ذلك ، لا يمكن تجاهلها . أما الأشكال البارزة فيها ، فيسودها التجريبي والتنظيري والصوفي والجماعي ، في حين أن الشكليين الرمزي والمناسب ينزعان إلى حصر بعضهما حصراً متبادلاً .

وما يستخلص من هذا التحليل الموجز للنظام المعرفي المتطابق مع هذا النمط الثاني من المجتمع القديم ، هو أنه مع تشابهه المتزايد مع ما أسماه

لوسيان لثي - بريل صوفية العقلية البدائية ، يظهر للعيان سمات ومميزات تجعل إلى حد ما مختلف توترات « الوجه العاطفي لما فوق الطبيعة » توترات علنية واضحة .

III . القبائل المنتظمة على أساس التقسيمات العسكرية للعائلات المنزلية والزوجية والعشائر ، وأنظمتها المعرفية

كان Boas وتلاميذه قد وصفوا البوتلاش لدى قبائل الشيروكي والكواكيوتل . وقد اهتمت أعمالهم اثنين من التلاميذ والمتابعين لدوركهيم ، من جهة مارسيل موس ، ومن جهة ثانية جورج دافي - اللذان اختلفا في تفسير هذه الظاهرة ، وشددا على وجه التنافس (التحدي والرد على التحدي) الذي يدخل في دوامة هذه المجتمعات . ومنذ ذلك الحين ، أسهم ر . هـ . لوي ، Lowie ايغان Eygan ، بويزز Bowers ، وهوبيل E . A . Hoebel وسواهم كثيرون ، في اعطاء هذا النمط من المجتمع القديم صورة أعقد وأبرز ، ويمكن أن نلاحظ انحاءاً للتقسيم إلى عشائر وبطون وأفخاذ ، فلم تعد التجمعات المحلية تلعب دوراً هاماً جداً . فالأمر يتعلق إلى حد بمخيمات ، حتى عندما تصبح القبائل ، البدوية في الأصل ، حضرية . وتتكون مجالس القبائل من زعماء الاتحادات العسكرية أو من زعماء العائلات المنزلية - الزوجية (وأحياناً من الفئتين معاً) . أما زعماء الاتحادات العسكرية ، التي يمكن بلوغها بعد معاناة بعض التجارب فقط ، فإن اسلافهم هم الذين يعينونهم . وهذه الاتحادات تكون موضع تنافس فيما بينها ؛ يضاف إلى ذلك أن التنافس داخل كل منها على صعيد المآثر ، يلعب دوراً هاماً جداً بين الجماعات أو بين الأفراد أيضاً . وهي تمارس دوراً بوليسياً في بعض المناسبات المحددة مثل : الرقصات الطقوسية ، أعمال الصيد الموسمية ، الهجرات ، الحروب ، الخ .

ولا شك في أن الأهم بين التجمعات الأخرى هي المجتمعات الراقصة :

رقصة الشمس ، رقصة الغليون ، رقصة التبغ ، رقصة الصقر أو الباز ، وهي ذات طابع ديني أكثر منه سحري : وغالباً ما يمارس السحر ، سحر الصيادين والمزارعين خارج هذه المجتمعات الراقصة ، وهي مراكز للمعرفة الميثولوجية - الكونية . ويرتدي الدين طابعاً شركياً واضحاً (تعدد الآلهة) ويمكن لطقوسه أن تلحظ ، بمعزل عن المجتمعات الراقصة ، من جانب كل مؤمن وكل زعيم جماعة ، الأمر الذي يجعل من الصعب جداً التفريق بين الدين والسحر .

تبدو عقلية قبائل الهنود في الشمال أقل تلوناً بالإنفعال والتصوف من عقلية كل المجتمعات القديمة الأخرى ؛ ويظهر هذا الأمر بوضوح بالغ ، ليس فقط في النزوع إلى التنافس ، وكذلك في العلاقات الترفيهية (Joking Relationship —) وفي عنصر انتظام حقوقي مدعوم من جهة المحاكم .

إن معالم بنية المجتمعات هذه التي ندرسها أثارت شكوكاً لدى بعض الأنثوغرافيين الأميركيين : وحتى أنه جرى التساؤل عما إذا كان الأمر هنا لا يتعلق بظاهرة تفكك مردها إلى التأثير الذي مارسه المجتمع الإستعماري خلال ثلاثة قرون ، حتى أن الأنثوغرافيين ، بارنيت وغارفيلد وسواهم ، طرحوا فرضية تقول أن البوتلاتش * Le potlach الشهير يمكنه أن يكون مجرد تقليد لأسواق المستعمرين ومعارضهم ، وبما أننا غير متخصصين في المسألة ، فإننا نمتنع عن اتخاذ موقف في هذه المساجلة ، التي تبدو لنا - بحد ذاتها - مميزة جداً لشبهات علم الأنام .

وعليه فإننا نقترح على أنفسنا تقديم لوحة ، افتراضية بالطبع ، عن أنواع المعرفة وأشكالها الخليفة بالتطابق مع هذا النمط من المجتمعات القديمة .
(أ) ينبغي في المقام الأول أن نضع هنا المعرفة السياسية المندجة مع

* عيد ديني لدى هنود أميركا قوامه تبادل الهبات والهدايا (المترجم)

معرفة الحس السليم ومع معرفة الجماعات الأخرى المنتسبة إلى القبيلة .
وبالتالي ، بإمكان الطابع التنافسي الخاص بهذه المجتمعات ، الإسهام في
أولوية هذه الأنواع المعرفية الثلاثة المجتمعة ، وأما من حيث أشكال المعرفة ،
فيبدو هنا الصوفي والرمزي محدودين بالعقلاني والمناسب ، غير أن الجماعي
يسيطر على الفردي ، بعد جهد حقيق .

ب (في المقام الثاني يأتي تركيب من المعرفة الميثولوجية - الكونية والمعرفة
الإدراكية للعالم الخارجي ، إن أساطير خلق العالم والقبائل (Old Man
coyote) تتخذ هنا نطاقات واضحة وتتعلق بالعالم الخارجي ، والمكان الذي
يتحرك فيه هذا العالم هو ذو مركز مشترك وإسقاطي في آن واحد ؛ ويكون
الزمن المطابق دائرياً ، الأمر الذي لا يستبعد ، حتى في القبائل ، وجود زمان
ذي نبضات غير منتظمة وزمان خادع حيث يتخفى وراء الزمان المديد زماناً
لطيف . وأما من حيث الأشكال المعرفية فإن العناصر الصوفية ، الرمزية ،
التنظرية أدق هنا مما هي عليه في الأنواع المعرفية الموضوعية في المقام الأول ، في
حين أن الشكل الجماعي يسود هنا دون شك .

ج (المعرفة التقنية المتعلقة في هذه المجتمعات بزراعة التبغ وتربية
الخيول والصيد بوجه خاص ، فإنها تحتل المرتبة الأخيرة ، والأشكال البارزة في
هذه المعرفة هي عين الأشكال في الأنواع السابقة ، مع فارق قوامه أن السحر
يجعل الشكل الصوفي أفعل هنا منه في المعرفة الميثولوجية الكونية .

هنا نصل إلى النمط الأخير من المجتمع القديم الذي اخترناه لتحليل
المعرفة فيه .

VI . الأنظمة المعرفية للقبائل ذات التقسيمات العشائرية

التي تجدد تعبيرها المنتظم في الدول الملكية

لقد كانت ممالك افريقيا السوداء مثلاً على ذلك في الماضي .

وبالطبع ، نلاحظ تشكيلة كبيرة جداً من أنماط المجتمعات في أفريقيا السوداء . والحال ، فليس ثمة حاجة للإلحاح على واقع أن في عدد كبير جداً من المجتمعات والبنى الشاملة في المناطق - المنقسمة بذاتها إلى كثرة من المدارات الحضارية (حلقة البانطو ، الزامبازي ، الكونغولي ، النيجر الأعلى ، السودان ، دون حساب المدارات المتداخلة من جهة ، والغابات الإستوائية من جهة ثانية) لم يكن ثمة دولة في العصور السابقة لعصرنا ، وهي لا تزال غير موجودة حتى اليوم . والحال لا يمكن أن نتناول سوى غمط واحد من المجتمع القديم ، في عداد كل تلك الأنماط التي نصادفها في أفريقيا السوداء : وهذا النمط بالذات هو الذي سلط الضوء عليه فورت وايفانز بريتشارد في كتابها الأنظمة السياسية الأفريقية (الصادر في فرنسا عام 1955) ، والذي جرى إكماله في أعمال المرحوم غريول ومعاونيه ، التي خصصوها للسودان .

والحال ، فإن السمتين اللتين لفتتا انتباه علماء الأنام الذين نظروا في هذا النمط من المجتمعات الشاملة ، هما : وجود دولة سياسية ، منتظمة في مملكة استبدادية ، والتطابق الملحوظ بين معرفة ميثولوجية - كونية متطورة جداً وبين عمل البنية الاجتماعية ، لقد بين غريول مثلاً أن البنية الاجتماعية لهذه المجتمعات تعاود انتاج عقيدتها الكونية واللاهوتية معاودة دقيقة ، مكبرة ومصغرة ، إلى حد أن النسق الميثولوجي والديني ، نسق الكون ، والنسق الاجتماعي تتوافق دون خلل : والأمر ليس كذلك (بمثل هذا الوضوح) في أي من الأنماط الخاصة بالمجتمعات القديمة التي تناولناها . ومن المحتمل من جهة ثانية أن يتعلق الأمر بإعادة انتاج ليست وحيدة الجانب كما ظن غريول ومدرسته ، بل هي إعادة انتاج متبادلة ، أو بشكل أدق يتعلق الأمر بموازاة ناجمة عن تضمينات متبادلة . ومهما يكن الأمر يشدد الشراح الجدد على كون تنظيم الأراضي وتوزيع السكان في القرية وحتى ترتيب الأثاث داخل البيوت يتطابق مع مضامين الأساطير ، وعلى أن فيض من الرموز يعبر عن هذه الأساطير وهو يشارك في إبداعها .

على الرغم من حيوية العشائر والقبائل ، فإن التراتبية المتطورة جداً في هذه المجتمعات تستند عليها أقل مما تستند إلى الاستعمال الجماعي للأراضي ، والتجمعات المحلية ومقام زعمائها بالنسبة إلى الملك - بوصفه مسؤولاً عن كل التراب - ، وثروة ومكانة العائلات المنزلية الزوجية ، المتعددة الزوجات ، المطابقة .

إلا أن هذه التراتبية تنافسها سلسلة من التجمعات الهامة مثل الرهبان (وهم مبدئياً تحت سلطان الملك ، وواقعياً مستقلون عن التنظيم السياسي) والسحرة المحترفين (سحرة الاستسقاء . السحرة الأطباء . المتخصصون في ازدياد الإنتاج والخصب ، المتخصصون في السحر الإقتصادي ، حسب عبارة Evans Ritchard) بيوت الذكور البالغين ، تجمعات الأعمار والجنس ، المنتديات والجمعيات السرية ، نقابات الحرفيين (لا سيما الحدادين والنقاشين) ؛ وكل هذه الهيئات ترتدي نسبياً طابع الجمعيات السحرية ، فترتدي اقنعتها وتهرول لاداء طقوسها . وبالمناسبة تتحول الجمعيات السرية إلى عصابات لصوص ؛ وهي تدعي أحياناً (بل غالباً) لتشكيل حاشية الملك ، فتكون ، حرسه الشخصي ، شرطته ، (وتمارس وظائفها من وراء قناع وتحت جنح الليل) ، جيشه ، وعدله (الذي يعطى في محاكم سرية) . وللملك ذاته امتيازات سحرية هامة . فهو ملك صانع معجزات ، يملك في آن سلطتين سحرية ودينية . ويمكن أن يحدث فيما بعد أن يغار من السحرة والمحترفين فيطردهم من البلاد ، كما فعل شاكا ، ملك الزولو القوي .

وعليه يمكننا إطلاق الفرضية القائلة أن الدولة الملكية السوداء ، تمثل ، على نحو ما ، نطاقاً للنمط الأول من المجتمعات التاريخية - « الثيوقراطيات الباهرة » التي سنتناولها في الفصل التالي . وبفضل انتصار بعض الأخويات السحرية على كل التجمعات الأخرى ، سيغدو ملوكاً بعض زعماء الأخويات

من ذوي الشأن السحري والاقتصادي ، لكن الأخويات السحرية ، على الرغم من انتصارها ، سرعان ما وجدت نفسها أسيرة للمغلوبين : فقد وضعت نفسها - بدءاً من الملك ذاته - في تصرف الدين ، الكهانة ، الميثولوجية اللاهوتية - الكونية السلفية ، وتحدث الأمور في هذه الدول الملكية السوداء ، كما لو أن اقتراناً مضاعفاً متبادلاً بين الدين والسحر ، والسحر والدين ، قد وقع في وقت واحد ؛ إن أساس السلطة الملكية هو في آن أساس أسطوري - ديني وسحري ، وهو أيضاً اقتصادي لأنه سحري .

وفما يختص بالنظام المعرفي الخاص بهذا النمط من المجتمعات نعتقد أنه من الممكن صوغه على النحو التالي :

أ) يأتي في المقام الأول تركيب من المعرفة الميثولوجية ، المعرفة السياسية والمعرفة التقنية . وليس عبثاً أن تكون الميثولوجية في هذه المجتمعات ارواحية في جوهرها ، وتشدّد على التجدد الدائم وازدياد القوى المخيبة الكونية ، الاجتماعية ، السياسية والاقتصادية في آن . وأن الأهمية الأولى للسحر إنما تزيد من قوة هذه النزعة .

في هذه الأنواع المعرفية الثلاثة المتداخلة في بعضها البعض ، يكون التعارض بين الشكل الصوفي والشكل العقلاني متخطى قليلاً من جانب الأرواحية ؛ وأيضاً تهيمن من جهة ثانية الأشكال التنظيرية ، الرمزية والجماعية .

ب) إن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ومعرفة الحس السليم تكونان إلى حدٍ ما مقترفتين وملتحقتين ، كلتيهما ، بالسحر والميثولوجيا وبالمعرفة السياسية ، فالعالم الخارجي موضوعٌ في أماكن إسقاطية تنزع إلى الإنسباط ، كما هو الحال في الزمان المتقدم على نفسه ، المسقط ، تحت تأثير المعتقد الأرواحي في هذا المجتمع الغلياني ، على أماكن وميادين العالم الخارجي .

والأشكال المبرزة هي ذاتها كما في الأنواع السابقة ، باستثناء واحد : هو

ان معرفة الحس السليم إذ تتدخل في معرفة العالم الخارجي ، يجد الشكل
التنظيري نفسه ، في النتيجة ، محدوداً إلى حد كبير بالشكل الوضعي .

ج (إن معرفة الآخر وحتى معرفة النحن بوصفها جماعات ، يجب أن
توضع في المقام الأخير ، على الرغم من كونها تحظى باهتمام من المعرفة السياسية
وبالنفوذ الأولي للسحر . غير أن التجمعات كثيرة العدد وغالباً كثيرة التنازع
والتصارع ، لدرجة أن معرفة الآخر ليس لها سوى نصيب معين للتحقق فقط
داخل الإطارات المنزلية - العائلية من جهة ، والجمعيات السحرية والحرفية
من جهة ثانية .

هنا تبرز بوجه خاص الأشكال الصوفية ، التجريبية ، الوضعية
والجماعية .

ولنلاحظ، ختاماً، أنه بين كل أنماط المجتمعات القديمة التي
تناولناها بالتحليل ، فإن النمطين الثاني والرابع هما اللذان يتضمنان ،
وحدهما ، وجود جماعات تملك المعرفة - جمعيات الكهنة ، الإخويات
السحرية والنقابات الحرفية ، لكن الأمر يتعلق بمعرفة غير ظاهرة ، بمعرفة
باطنية لا تنتشر وتعم ، بل يجري تناقلها سراً . ولا تظهر المسألة بشكل مختلف
إلا في المجتمعات التاريخية فقط .

إن هذا المسعى التحليلي للأنظمة المعرفية المتطابقة مع بعض أنماط
المجتمعات القديمة ، الذي نعترف قبل سوانا بطابعه التصميمي ،
« الظرفي » ، وحتى المغامر ، لم تكن له غاية أخرى سوى إظهار النقص في
المميزات المبسطة جداً للأنظمة المعرفية والذهنيات الخاصة بهذه المجتمعات
فهذه ذات تعقيد شديد ، لكنه تعقيد يتباين مع تباين كل من الأنماط التي تنتمي
إليها ، وهو مختلف تمام الاختلاف عن التعقيد المميز لشتى أنماط المجتمعات
التاريخية . فإذا كان لوسيان لفي - بريل على حق ، مبدئياً ، في أن يعلن أن

النظام المعرفي للمجتمعات البدائية مسكون بالتصوف ، وقريباً من الوجهه العاطفي لما فوق الطبيعة ، فهو لم يتمكن ، مع ذلك ، من التثمين الكافي لدرجة كثافة هذه العناصر التي تتباين وفقاً للأنواع المعرفية ولأنماط المجتمعات القديمة ، وإذا كان لثي - ستروس غير مصيب في إنكاره كل فرق بين المعرفة الوحشية والمعرفة العقلية الخاصة بالمجتمعات التاريخية ، فإن خطأه يغدو أوضح عندما يصب جهده على حصر كل الأساطير ذات المضامين الواحدة وكل المعارف ذات المبادئ التصنيفية الواحدة ، وذلك من خلال القضاء على درجات المشاركة المتنوعة في كل معرفة .

إن كل المنظومات المعرفية ، القديمة والتاريخية ، تكون معقدة ومتنوعة مثل الإطارات الاجتماعية التي تتطابق معها . وفي النهاية ، تعتبر قابلية التغير هي سميتها المشتركة الوحيدة . وإذا كنا قد غامرنا في ميدان علم الأنسام ، فذلك لكي نتابع فيه استطلاعنا إلى آخره ، بحيث نستطيع إذ نسلط الضوء تماماً على النسبية والتعددية في علم اجتماع المعرفة .

لقد شددنا ، بخصوص المجتمعات القديمة ، على الخط الفاصل الذي يفصلها عن المجتمعات التاريخية التي تعتبر في درجات شتى مسكونة بالبروميثيوسية . ولا شك أنه من المناسب التذكير هنا أننا نعني بذلك الوعي الجماعي الذي تملكه هذه المجتمعات (أو بعض الجماعات التي تكونها) حول امكان تبديل البنية بتدخل الإرادة البشرية ، التي يبلغ توترها ذروته في الثورات أو على الأقل في الانقلابات المفاجئة للسلطة .

ومنذ أن نتناول مسألة التطابق بين هذه المجتمعات التاريخية والأنواع المعرفية وأشكالها ، نجد أنفسنا أمام مشكلتين جديدتين :

الأولى : تتعلق بحالة نشوب نزاعات بين البنى الشاملة وهذه المجتمعات وبين الظواهر الاجتماعية الكلية المضمرة والمؤدية إلى ازدواج المنظومات المعرفية ، فنشهد صراعاً بين نظامين معرفيين كاملين أو على الأقل

نشهد تعارضاً ملحوظاً بين نزعتين في نفس النظام .

الثانية : تقود في حالة تباين بين النظام المعرفي والإطار الاجتماعي ، إلى البحث عن أي منهما يلعب دور العلة في ظروف لا تقبل التكرار .

إن هذه المسائل سبق طرحها بخصوص النمط الأول من المجتمع التاريخي الذي سنحلله في الفصل التالي المخصص للمجتمعات «التيوقراطية - الباهرة» . وأنظمتها المعرفية .

الفصل الثالث

المجتمعات اللاهوتية الباهرة ونظامها المعرفي

إن المثال التاريخي لمجتمع من هذا النمط - يجسده الملوك - الكهنة - السحرة - الآلهة الأحياء - هودون شك مثال مصر القديمة التي نصاب إزاءها بالدهشة من تكرار الثورات من جهة ، وأهمية التفاوت من جهة ثانية بين البنية والظاهرة الاجتماعية الكلية .

وتتعلق الثورات الحقيقية الأكثر شهرة باضفاء طابع الديمقراطية المفاجئة على الطقوس الجنائزية ، ووصول طبقة العبيد إلى أسرار ايزيس - أوزيريس ، وتنظيم الحرف المتداخلة بالدولة بعد نهاية الأسرة الحادية عشرة في مصر ، وانتفاضات Turbaus jaunes و Sourcils rouges في الصين الإمبراطورية . إن الخلود المفترض للبنى الاجتماعية ليس هنا إلا مثالا رسمياً ، اسطورة سياسية أكثر منها كونية ، تناقضه حقيقة الوقائع التاريخية .

أما بخصوص التفاوت بين البنية والظاهرة الاجتماعية الكلية فسوف نلاحظ في المجتمعات اللاهوتية الباهرة أن دور البنية ينزع إلى الانخفاض لدور ستار اصطناعي مناسب . وتجري الأمور كما لو أن الظواهر الاجتماعية الكلية المضمرة ، تحت ستار هذه البنية التي لا تمثل سوى تعبير شبه رسمي ومحدود ، كانت تعيش عيشة أغنى وأكثر حركة مما يبدو للوهلة الأولى . كذلك ، نعرف أن فئات واسعة من الحياة الاجتماعية تتطور في اتجاه هيمنة العقلانية ، والحساب الاقتصادي للمبادلات ، والحق الفردي في الموجبات والعقود والرهن والتسليف ، وأخيراً تتطور في اتجاه تكاثر التجمعات العلمانية

الخاصة - كالتجمعات المهنية ونقابات المهن في مصر والجمعيات التجارية في عهد الخلفاء . ومن جهة ثانية ، كانت تغذي الاضطرابات جماهير عريضة جداً ، مختلفة وغير متداخلة ، متكونة من الأقوام المغزوة والعبيد .

إن البروميشوسية الرسمية ، الملازمة لنفس الدور المنسوب إلى الملك - الكاهن - الساحر - الإله - الحي ، الذي هو بمثابة التجسيد الأعلى للدولة ، للكنيسة والأخويات السحرية معاً ، تسهم في التوترات الشديدة ، فالسلطات التي تملكها الأسر وزعماءها تمتاز بطابع سحري ، ديني وشخصي في آن واحد ، أو بالحري تمتاز باقتران هذه المعالم الثلاثة إلى درجة الإنصهار التام . فزعماء الأسرة هم صانعون *Démiurges* حسب المعتقد الميثولوجي الرسمي ، لكن هذه الصناعة لا تتجلى في قمة الهرم وحسب : بل تخترق شتى درجات التراتب الرسمي أو شبه الرسمي . فهؤلاء الآلهة - الأحياء - الكهنة - السحرة - الملوك - الصانعون مكلفون في آن بالحفاظ على النسق الميثولوجي - الكوني وترقيته - وهو يتضمن نظام الطبيعة ، النظام الديني والنظام الاجتماعي - وغالباً ما ينوون تحت ائقال مهامهم ، نظراً لأن النزاعات حتمية بين الأنظمة ، ولأن الكهنة ، السحرة ، موظفي الآلة الإدارية الواسعة ، دون الكلام عن الكتبة ، الأخويات التجارية والحرفية ، إذ يضيفون إليها الأقوام المغزوة والمخفوضة إلى حالة الرق ، يمكنهم أن يتعارضوا جميعهم مع زعماء الأسر أومع هذه الأسر ذاتها . ومن جهتهم يمكن للملوك الصانعين - الآلهة - الأحياء أن يصبحوا ، عن وعي أولاً وعي ، مارقين بالنسبة إلى أسلافهم . وكل هذه المصاعب تفسر كثرة السلالات (لا سيما في مصر القديمة وفي الصين) التي تؤدي تبدلاتها المتتالية إلى انقطاع التواصل ، وهزاتٍ ، ويخشى منها أن تعجل في قيام الثورات بالمعنى الدقيق للكلمة ، الناجمة مباشرة عن انتفاضات الظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة .

وبالتالي تعتبر المجتمعات اللاهوتية - الباهرة بعيدة عن أن تنعم بحياة هادئة ، كما يمكن الانتظار من مجتمع يقوده صانعون ، وكما رأينا ، فإنها

مجتمعات تتفجر عند كل منعطف ، متعرضة دون انقطاع للنزوات أو الثورات المتأثرة بفعل التفاوت بين الظواهر الإجتماعية الكلية وبين البنية .

وفضلاً عن مصر القديمة ، يمكننا ذكر بابل ، آشور ، المملكة الحثية ، فارس ، الصين ، اليابان القديمة ، التيب والهند كمثال للثيوقراطيات الباهرة ، وبصورة خاصة يمكننا ذكر الخلافة الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين من القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثالث عشر ؛ وربما يمكننا أيضاً ذكر إمبراطورية الإنكا Incas . لكننا سنتوقف بوجه خاص عند مثال مصر القديمة ذات البنية الإجتماعية المعروفة عندنا على أفضل نحو .

إن بنية هذه المجتمعات تمتاز بما يلي :

أ) هيمنة الدولة - الكنيسة - الأخوية السحرية ومشاريعها الإقتصادية الكبرى (القنوات) على التجمعات الأخرى ، مثل طبقة الكهنة ، الموظفين ، الكتبة العامين والخاصين (في مصر والهند) والتجمعات العسكرية ، الأسر الأبوية والأخويات المهنية للتجار وللحرفيين . وتظهر معظم هذه التجمعات بالغة الحيوية والميل إلى إظهار سلطاتها الصناعية الخاصة .

ب) هيمنة الجماهير على المتحد والجمايعات (وهذه الأخيرة تنحصر في جماعات الكهنة والمتمرنين على الطقوس الخاصة) .

ج) بروز التنظيمات الواسعة النطاق ، والقاعدة المورفولوجية في المقام الثاني ، ثم التقنيات غير المتكافئة أحياناً ، لا سيما تقنية التحنيط ؛ وبلي ذلك المعتقدات والرموز السحرية الدينية ، ذات الطابع الأرواحي : أخيراً ، في المقام الأخير تنضاف إلى ذلك وتشكل ركيزة رسمية على الأقل ، الأساطير اللاهوتية الكونية والسياسية .

د) تقسيم العمل ، التقني والإجتماعي معاً ، العميق في بعض

المجالات (الري ، المجارير ، البناء ، الألوان ، التحنيط في مصر ؛ النقاشين وصانعي المجوهرات في الصين الخ) .

هـ) في هرم التنظيمات الاجتماعية لا تشغل الديانة ، السحر والأساطير (قاعدتهما المشتركة ، خلافاً لما يمكن اعتقاده) سوى المكانة الأولى ، فهذه تنخفض في الواقع الى مرتبة ثانوية ، بسبب المعرفة التقنية ، وتكون علاقاتها مع بدايات المعرفة العلمية ، السحر ، مع الأرواحية المتزايدة البروز في المعتقدات الدينية ، وأخيراً مع الأخلاقية الخلاقة ، المتحركة بفعل الخلق البروميشيوسي ، دافعة لها إلى المقام الأول . وتأتي ، ثانياً ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي مباشرة بعد المعرفة التقنية . إن الحق الديني والفن قلما يحيطان بالأساطير ، فيزيدان من تعزيز هذا الوضع .

و) هكذا ، في مجمل الأعمال الحضارية التي توطد البنى ، تكون الصوفية الرسمية والسطحية محصورة جداً لصالح عقلانية صاعدة ، وهنا تبدأ المفاجآت التي يجنبها النظام المعرفي في المجتمعات اللاهوتية - الباهرة الذي سنتناوله الآن .

أ) المعرفة التقنية ، بعد أن نجحت في الهيمنة على المعرفة الميثولوجية - الكونية والمعرفة الميثولوجية السياسية واستيعابها ، يجب وضعها في المقام الأول . ويمكن القول إن الملوك - الآلهة الأحياء - السحرة الصانعين كانوا بمثابة التقنوقراطيين الأوائل . لكنهم ، كانوا يتقاسمون سلطتهم كـ « تقنوقراط » ومعارفهم التقنية مع محيط من الموظفين ، الكتبة ، الكهنة ، السحرة والعسكريين . وقد استعملت المعارف التقنيات ، في شتى المجالات ، في المهن الحرفية والتجارية المتنوعة التي تطابق معها . حتى أنه توجد آثار لذلك لدى المقترحين للسهر على قنوات الري ولدى الأسر الأبوية من المزارعين .

غير أن المعرفة التقنية تظل مع ذلك معرفة باطنية ، على الرغم من إنشاء

مؤسسات مدرسية لا تعلم ، في الحقيقة ، سوى الميثولوجيا شبه الرسمية ، فن الكتاب على البردى ، وبدايات المعرفة العلمية الناشئة . وهكذا تظل المعرفة التقنية على اختلاف درجاتها - وعلى قدر ما يمكن تناقلها - تظل محصورة في حلقات المتعلمين ؛ وسوف نلاحظ الظاهرة نفسها بخصوص المعرفة العلمية التي كانت لا تزال ، في الحقيقة ، في بداياتها الأولى .

وعلى الرغم من اندماج الميثولوجيا والسحر في المعرفة التقنية ، فإن أشكالها البارزة تنزع إلى العقلاني أكثر مما تنزع إلى الصوفي ؛ إلا أن أشكال الرمزي والتنظيري والجماعي بالطبع ، تهيمن على أضدادها ، في حين أن الشكل التجريبي والشكل المدركي يتباينان وفقاً لمستوى المعارف التقنية .

ب) تقع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي في هذا النظام المعرفي مباشرة بعد المعرفة التقنية . فهي ، كهذه ، تستوعب وتحلل بعض عناصر الميثولوجيا الكونية التي تهيمن عليها تماماً ، ويمكن الظن أن المكان الذي يقع فيه العالم الخارجي ، المشتمل ، على الصعيد البيئي - المورفولوجي ، على فيضانات النيل الموسمية ، هو بشكل خاص مكان ذو مركز مشترك وأن الزمان هو للسبب عينه زمان دوري قبل كل شيء . إلا أن استنتاجات كهذه ينبغيها ويتخطاها التكنيك الصنفي الفطري ، والقنوات تكسر العناصر المركزية المشتركة في المكان ، وكذلك تكسر طابعه الأنوي ؛ وأما التقنيات الأخرى (ومنها التقنيات العسكرية) وقوة التنظيم الإداري والاقتصادي فإنها تقود إلى أماكن إسقاطية ، وحتى أنها توجه أسهماً نحو الميادين المستقبلية (كما يترأى ذلك في الاتصالات مع بابل وأشور : مبادلات تجارية وثقافية ، تحالفات وغزوات) . والزمان الدوري نجده متجاوزاً في التأويل الأرواحي الحياتي الذي ينسب لكل دور تجدداً وتوطيداً للحياة ، وبذلك يعزوله تصاعداً فعلياً ، وأما الزمان الخادع الذي يؤدي شغظه الضمني إلى تفجير البنى والتنظيمات على نحو غير متوقع ، فإنه يفيد من ذلك . وهكذا ، يجد الزمان ذو الدقات غير المنتظمة بين تقدم وتأخر ، وهي سمة المجتمع اللاهوتي - الباهر ،

أنه مسقط على حركة العالم الخارجي . من جهة ثانية ، فإن معرفة المكان والزمان حيث يقع هذا العالم الخارجي ، تستفيد مباشرة أو بالمقابل من أثر الهندسة والفلك في بداياتهما ، كما تستفيد من ظهور التقاويم ؛ وليس من المدهش أن يكون الشكل العقلاني لهذه المعرفة أظهر وأبرز من الشكل الصوفي ، وأن يهيمن فيها ، خلافاً لما لوحظ في المعرفة التقنية ، الشكل التجريبي ، الوضعي والمناسب .

ج) المعرفة السياسية تحتل المكانة الثالثة . فمحيط الزعيم الباهر مع الموظفين والعسكريين وطبقة الكهنة ، وكذلك الكتبة والأخويات المهنية ، وصولاً إلى الأسر الزراعية الأبوية ، تشكل كلها الأسس الرئيسية لهذه المعرفة . فهي إذ تستعمل الميثولوجيا في مراتبها العليا ، تفسر في كل مستوياتها تقريباً ، مع معرفة الحس السليم ؛ وهذه من جهة أخرى تتخطاها لأنها تتأكد أيضاً في العلاقات مع الأقوام الخاضعة والمستعبدة ، وتبرز أشكال المعرفة السياسية بروزاً بالغ التنوع .

د) معرفة الحس السليم ، تأتي في المقام الرابع ، وتنوع بتنوع المراتب ، التجمعات ، الأوساط ، الأقوام الخاضعة . ونجد سندها الأشد في إطار العائلة الأبوية الزراعية .

هـ) وللمرة الأولى - تظهر في المجتمعات اللاهوتية - الباهرة معرفة علمية ، منفصلة عن الميثولوجيا الكونية - الألهية ، وعن السحر والمعرفة التقنية . فمن الوجهة التاريخية يمكن إطلاق الفرضية القائلة إن المعرفة العلمية في بداياتها كانت مجتلبة من آشور وبابل إلى مصر القديمة التي نقلتها فيما بعد إلى الحواضر اليونانية ، حيث بلغت تطوراً أدق ، وكانت تتضمن بشكل رئيسي على الرياضيات ، ولا سيما الهندسة وعناصر علم الفلك وعلم الأحياء . إن هذه المعرفة العلمية ، على الرغم من تأثيرها على المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، تظل مع ذلك معرفة باطنية في جوهرها . فهي وقف على المتعلمين المريدن المتمين إلى طبقة الكهنة وجماعة الكتبة . لكننا نرى هنا للمرة الأولى

في مجتمع شامل ظهور جماعة من العلماء الذين يقومون . بمعزل عن كل علاقة مع الدين في أغلب الأحيان ، بمهمة الحفاظ على المعرفة العلمية وبنقلها إلى خلفهم بواسطة التعليم (حتى وإن كان الخلف محصوراً في عدد ضئيل من المتعلمين) .

أما بخصوص الأشكال البارزة في هذه المقاربة الأولى للمعرفة العلمية ، فمن الممكن أن تبدو مدهشة جداً . ففي الواقع ، وخلافاً لما أمكن الاعتقاد به ، تبدو المعرفة هنا أكثر تصوفاً ، وتنظيراً ، وترميزاً ومدارك منها في أي نوع آخر . ولا شك في أنه يجب أن نرى في هذه المفارقة الظاهرة التي ستتكرر ، من جهة ثانية ، في القرون الوسطى ، عائقاً أمام المكاسب المعرفية الجديدة . ومهما يكن من أمر ، فمن الثابت أن الأعداد والمعادلات والتحليل الهندسية والتقاويم الكمية التي تشكل التجليات الأولى للمعرفة العلمية ، يمكنها أن ترتدي أشكالاً صوفية بارزة ، وكان مارسيل غارنييه Marcel Garnet ، تلميذ دوركهيم المأسوف عليه ، قد شدد في مؤلفيه :

— La pensée chinoise , 1934

— Les études sociologiques sur la chine , 1953

على الطابع الصوفي الذي يمكن ان ترتديه الأرقام ، وروى بهذا الشأن الطرفة التالية : هناك قائد عسكري في الصين القديمة ، دعا مجلساً حربياً للإنعقاد حتى يعرف إذا كان يجب الهجوم على العدو أو التراجع ، فأيد الهجوم ثلاثة أعضاء ، ووقف ثمانية ضده ، عندئذ أعلن القائد أن « الأكثرية تؤيد ، إذن سنهجم » . لأن 3 هو عدد صوفي ، وهو أقوى من العدد 8 . . .

كما أننا نجد حتى لدى فيثاغورس صوفية للأعداد ، ويمكن لهذه الملاحظة أن تبدو متناقضة ، والأمر كذلك في حقيقته : لأن مسيرات الفكر العلمي ليست عقلانية دائماً ، وقد كانت في بداياتها ، في المجتمعات الألهية - الباهرة ، أقل عقلنة مما ستكون عليه في أية معرفة أخرى .

و (لا تكاد نلاحظ هنا معرفة الآخر ، النحن ، الجماعات والمجتمعات ، ففي الخليط العجيب للمراتب والأوساط والجماعات والظروف ، ولا يمكنها في أحسن الأحوال أن تتجاوز الدوائر العائلية ، الحرفية والتجارية من جهة ، ومحيط الملك - الصانع والكهنة والكتبة من جهة ثانية . وفي كل مكان تسود الجماهير السلبية والمشتتة . وبقدر ما تتوصل هذه المعرفة إلى تثبيت أقدامها ، يزداد بروز الأشكال التنظيرية والرمزية والمدركية أكثر من بروز الأشكال المضادة لها .

الفصل الرابع

المجتمعات الأبوية ومنظوماتها المعرفية

تكلم ماكس فيبر Max weber عن علمنة أو عمومية « الكاريسم » ، الزعامة الباهرة (Veralltaglichung des charismus) في المجتمعات الأبوية . وكان دون أن يدري قد تبنى في ذلك الوجهة التطورية النشئية التي يرفضها من جهة ثانية . وأتينا نقترح تأويلاً يبدو لنا أكثر صرامة ودقة ، وعليه ، فإننا لا نعتقد إطلاقاً أن المجتمعات الأبوية صادرة عن المجتمعات الألهية - الباهرة . إنها موازية لها ، وإذا اعتبرنا « بروميثيوسيتها » أي تاريخيتها ، أو حتى أنظمتها المعرفية ، فإنها تبدو متأخرة جداً بالنسبة إلى المجتمعات الألهية - الباهرة . بيد أنها مجتمعات خاصة ، وليس بالإمكان تصنيفها في عداد المجتمعات القديمة بالمعنى الدقيق للكلمة .

ففي هذا النمط من المجتمع الشامل ، تكون البنية قائمة على التفوق الحصري للجماعة المنزلية - العائلية ذات النطاق الواسع ، الجماعة المرتكزة على القرابة الدموية ، المرتبطة تفضيلاً بالأصل الذكري ، المتعدد الزوجات أو غير المتعدد ، أن هذه الجماعة تستوعب كل الجماعات الأخرى ، مثل جماعات النشاط الإقتصادي ، والجماعات المحلية والمجاورة (إذا كانت الجماعة حضرية) والجماعات الصوفية - الغيبوبة ؛ وهي تهيمن على جماعات العمر والجنس .

وتجتمع كل النشاطات الإقتصادية والسياسية والدينية في مركز الأسرة المنزلية - الزوجية ، فالبطريك هو في آن واحد الأب ، المالك المقاتل ، الكاهن

والزعيم السياسي ، وهكذا ، فإن الأسرة تمثل في آن مشروعاً اقتصادياً ودولة سياسية وكنيسة . إلا أن معالم الأب والمالك - المقاول أكثر بروزاً من معالم الزعيم السياسي ، ولا سيما الكاهن . وبالتالي ، فإن الآلهة أو الإله ، الذي يكون البطريرك Le Patriarche خادماً له . هم أولاً آلهة أسرية أو منزلية ، هنا يكون الدين بكامله في خدمة المنزل ، فهو يتضمن صوفية محدودة جداً ، ويشكل بالأحرى ضماناً للأخلاقية السلفية .

كما تنطبق هذه الملاحظات على النمط البنيوي الذي يستخلص من العهد القديم مثلما تنطبق على النمط الذي يمكن التكهن به من خلال الأوديسة والألياذة ، وعلى الأسرة الرومانية قبل أندماجها في الحاضرة ، وعلى تجمع عدة بطريركيات في ألمانيا (Hansgenossenschaft) . ومن المفيد الملاحظة أن بقايا أو نظائر هذا النمط الاجتماعي والبنيوي الشامل - الذي يمكن لحظه مثلاً في الملكيات الكبيرة في الأمبراطورية الرومانية ، العليا ، وفي الزارادوغا السلافية ، وفي الممالك الإمبراطورية (المملكة الفرنكية من القرن السادس حتى القرن التاسع) - تقترب مع أديان مختلفة جداً : التوحيد والشرك ، الجاهلية ، اليهودية والنصرانية . وهذا يدل على أن الدين ينزع في حياة هذه المجتمعات ، وفي توازن بناها ، إلى الإضطلاع بدور ثانوي تماماً . ويمتاز هذا النمط البنيوي ، فيما يمتاز ، بانعدام التباين في السلطات ، وبالضعف النسبي - حتى لا نقول الانعدام - في التجمعات الخاصة والمناخ شبه العقلاني والعلماني المهيمن على سيرها .

ويمكننا أن نرسم اللوحة التالية لهذه البنى الشاملة : أ) هيمنة استيعابية للجماعة المنزلية - العائلية ؛ ب) تفوق النحن على العلاقات بالآخر ، وتفوق المتحد على الجمهور والجماعية ، اللذان يظهران بالكاد ، وأخيراً تفوق النحن السلبية على النحن الناشطة ؛ ج) في ذروة سلم مراتب الواقع الاجتماعي تقع نماذج مختلفة الأنواع ، ذات طابع رتيب للغاية ؛ وتكون المسالك المنتظمة المقابلة مسالك سلفية ومألوفة أكثر مما تكون أسلوبية أو طقسية .

وأن تعميماً مفراطاً للوضع الخاص بهذا النمط الإجتماعي والبنوي هو الذي قاد عدداً من علماء الاجتماع والفلاسفة إلى التكرار مرات عديدة أن كل مجتمع هو مجتمع رتيب ، سلفي ، جامد ، معرض للثبوت ، ومغلق أخيراً . وهناك أقوال كثيرة لا تصح إلا على المجتمع الأبوي .

ونجد في المرتبة الثانية بين المراتب العميقة القاعدة المورفولوجية والبيئية : خصوبة الأسرة المنزلية - الزوجية ، اتساع نطاقها ، كثافتها ، « محيطها الطبيعي » . وتأتي في المقام الثالث الرموز ، العقلانية والصوفية ؛ ومن ثم تأتي الأدوار الاجتماعية : البكر - الأصغر ، الربيب ، العبد ، الخ . والراتب الأخرى كلها ، ومنها المنظمات ، توضع في المؤخرة ؛ د) تقسيم العمل التقني يكون متطوراً قليلاً جداً ، فتقسيم العمل الاجتماعي محصور في مجموعات العمر والجنس ، كما هو محصور في الخلف ، والموالي والعبيد ؛ هـ) في هرم التنظيمات الاجتماعية أو « المراقبات الاجتماعية » تحتل الأخلاقية السلفية وأخلاقية الصور الرمزية المثالية المرتبة الأولى ؛ و) تنحصر الأعمال الحضارية غير التقنية في التقاليد الملحمية المحكية ، وفي الأناشيد والأغاني والرقصات والأعياد ، في اللغة المحكية والمكتوبة ، في العبادات والطقوس والوحي الخ . ولا يوجد من جهة ثانية توترات منظورة بين البنى والظواهر الاجتماعية الكلية الشاملة .

تلعب المعرفة دوراً محدوداً جداً في هذه المجتمعات .

أ - في المقام الأول ، نلاحظ ثلاثة أنواع من المعارف المتخالطة بدقة : معرفة الحس السليم ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ومعرفة الآخرين والنحن . المعرفة الأولى شديدة الارتباط بالموروث ، وهذا بدوره يهيمن على كل نشاطات هذا المجتمع ، ويميل إلى استيعاب كل الأنواع المعرفية الأخرى . وفي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي تسود الميادين المشتركة المركز ، الغيرية والإسقاطية ، والأزمة التي يوضع فيها العالم الخارجي من خلال هذه المعرفة هي الزمن المديد والزمن البطيء والزمن الدوري

- الفصلي ، - وتقوم معرفة الآخر والنحن على العنصر الاجتماعي الجزئي microsocial في المتحد ، وذلك على الرغم من ضعف هذا المتحد نتيجة للنزاعات الداخلية بين الأبناء البكور والصغار . ومن جهة ثانية ، يندمج الأبناء « المتبنون » في المتحد بصعوبة ، وغالباً ما يقاومون المعرفة . لهذا ، لن نلح على واقع أن العبيد (بقدر ما يكونون موجودين في المجتمعات الأبوية) ونظراً لأنهم غير معتبرين كآخر ، فإنهم يمثلون عقبة أمام هذه المعرفة .

ب) في المقام الثاني تأتي المعرفة السياسية التي ترتدي تجلياتها - العنوية كلياً كما هو واضح - في المجتمعات الأبوية ، شكل المكائد الرامية إلى نيل الخطوة وحتى إلى الحلول محل الزعيم . وبنتيجة الصراع بين البكر والأخوة الصغار وبين اتباعهم وكذلك بين أمهاتهم وأوساطهم ، فإن هذا الوضع يفسح في المجال أمام إجراءات للدفاع الذاتي . يضاف إلى ذلك أن الصراعات تشمل « المتبنين » الذين يسعون من خلال انضمامهم إلى حلبة التنافس ، للإفادة من ذلك .

ج - المعرفة التقنية تأتي في المقام الثالث : إنها بدائية ومتطورة قليلاً ، وتميل إلى الاختلاط بالمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ومع معرفة الحس السليم .

د) من المناسب أخيراً تخصيص المقام الرابع الأخير للمعرفة الأسطورية - اللاهوتية ، المفصح عنها بضعف . فلم يعد الأمر متعلقاً بأساطير لأهوتية - كونية بكل معنى الكلمة ، بل هو يتعلق بشيولوجيات قليلة الفعالية تسقط على الصعيد الإلهي المراتب الصادرة عن البنية الشاملة . ونظراً لأن رعاية الإبقاء على التراث الأسطوري - اللاهوتي قد انيطت برواة ومنشدي الحكايات الملحمية ، « للشعراء الأبطال » ، الذين كان دورهم الاجتماعي ومكانتهم دون المرتجى ، فإن ذلك له دلالة خاصة : فهو يبين أن الزعماء الأبويين ومحيطهم لم يكونوا يهتمون إطلاقاً بالمعرفة اللاهوتية .

وتكاد تنعدم الحاجة إلى التذكير بعدم وجود المعرفة العلمية في المجتمع الأبوي : فليس من الممكن ذكر أية مجموعة من « الحكماء » و « العلماء » أو حتى من المثقفين في معنى أعم .

إن الأشكال البارزة داخل الأنواع المعرفية المذكورة هي الأشكال العقلانية ، الوضعية ، التجريبية والجماعية طبعاً . وأما الشكلاان الرمزي والمناسب فإنها يحدان من بعضهما .

وفي ختام هذا التحليل (الموجز حتماً) ، من المهم الرد على عقبة يخشى من التحليل ذاته أن يثيرها . إذ من الممكن ، بالتالي ، أن نسأل لماذا لا نصنف المجتمع الأبوي في عداد المجتمعات القديمة ، وقد برهنا نحن على أن النظام المعرفي المقابل للمجتمع الأبوي كان أقل تقدماً بكثير من نظام المجتمع اللاهوتي - الباهر ؟ سوف نجيب بأن سؤالاً كهذا قد يؤخذ عليه تصفية كل اعتبار لا يكون فكرياً حصراً . ذلك لأن البرهان على أن نمطاً اجتماعياً معيناً يقابله نظام معرفي أردأ من ذلك الذي يمكن ملاحظته في نمط مختلف ، لا يعني إصدار حكم قيمي على هذا المجتمع أو ذاك . كذلك فإن الطابع البروميشوسي التاريخي لمجتمع ما لا تقوم دائماً بمستوى نظامها المعرفي ؛ ويمكنه أن يتجلى في نسقه الداخلي ، قدرته على تسيير الظروف ، قوته الفعلية وقوته على المقاومة ، الخ . وهنا مهما تكن ضعيفة درجة البروميشوسية فإنها مع ذلك حساسة بالصراعات الداخلية على السلطة ؛ غير أن إسهام البنية الأبوية يبقى بدون معنى على صعيد المعرفة .

الفصل الخامس

الحواضر - الدول المتحولة أمبراطوريات ومنظوماتها المعرفية

على الرغم من الفرضية ، المحتملة تاريخياً ، القائلة إن الحواضر - الدول نشأت من تفاعل بين البنى الأبوية والبنى الألهية الباهرة ، - وهذا اقتران متحقق بشروط مختلفة وبتائج متنوعة - ، من زاوية غمطية محض سوسيولوجية ، يبدو أن المنطق يدعو أولاً إلى النظر في البنى الإقطاعية . فهذه البنى من حيث المبادئ التي توجهها هي في الواقع أبعد عن بنانا مما هي أبعد عن بنى الحواضر - الدول المتحولة أمبراطوريات بوجه خاص . لهذا ، فإننا اعتقدنا في مختلف كتاباتنا المتعلقة بتنميط المجتمعات الشاملة⁽⁶⁾ أنه ينبغي علينا درس البنى الإقطاعية قبل بنى الحواضر - الدول ، ولا نعتقد أننا كنا غير مصيبين في ذلك . . .

لكن ، إذا نظرنا إلى إرث الحواضر - الدول القديمة من زاوية المعرفة الموضوعية والصريحة ، فإنه يبدو ذا غنى وسعة في الأفق ، فلا يمكن إسدال الصمت على أهميته بالنسبة إلى مختلف المجتمعات المتتالية منذ الأزمنة القديمة ، وإذا حدث ذلك فمعناه تزوير الروابط بين كل إطار اجتماعي شامل وبين النظام المعرفي المقابل . كذلك هل أننا نجد أنفسنا هنا ، للمرة الأولى ،

(6) C.L. — Déterminismes sociaux et liberté humaine, 1963, pp. 261 et sq.

— La vocation actuelle de la sociologie, 3^{ed}. 1963, vol. I, pp. 476 et suiv.

— Traité de sociologie, t. I., 1963, pp. 221 et suiv.

أمام حالة ملموسة للثغرات بين الإطار الاجتماعي والمعرفة . وهو تفاوت
أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب حين شدنا على أنه يستطيع أن يؤدي إلى
علاقات استقطاب ، أشبه أو تكامل بين الإطار الاجتماعي والنظام المعرفي ،
كما يمكنه أيضاً أن يفرض البحث عن السببية الفريدة للمعرفة وأثرها على
المرجع الاجتماعي أو بالعكس . هذا هو الدافع الذي اقتادنا إلى درس الحواضر
- الدول قبل البنى الإقطاعية ، بوصفها إطارات اجتماعية للمعرفة .

سبق أن رأينا في المجتمع اللاهوتي الباهر والمجتمع الأبوي - اللذين
أدى تداخلهما إلى نشوء الحاضرة - الدولة - أن المعرفة الإدراكية للعالم
الخارجي ، المرتبطة تارة بالأساطير الكونية والاجتماعية في آن ، والمتأهية تارة
أخرى مع معرفة الحس السليم ، إنما تحتل المكانة الأولى ، إن الحواضر
- المدن ، حين تمرر النوع المعرفي المعني من كل اقتران بالأنواع الأخرى ،
اعترفت له بأولوية مذهشة . ويمكن القول إن هذه المجتمعات تنعم باكتشاف
العالم الخارجي من خلال معرفة إدراكية منزهة . ويمكن تحديدها بوصفها
المجتمعات الشاملة الأظهر إلى الوجود .

إن هذا النمط للمجتمع الشامل مشهور جداً . فالمدينة (polis)
الأغريقية (من القرن السابع حتى القرن الخامس ق . م .) والحاضرة
(civitas) الرومانية (من القرن الخامس حتى القرن الأول ق . م .)
تقدمان مثلاً كلاسيكياً عن ذلك المجتمع . ونجد بعض سمات نظامهما المعرفي
في المدن الإيطالية في عصر النهضة ، على الرغم من اختلاف مصائرهما
الخاصة .

فالسمة الرئيسية لهذا النمط الاجتماعي هي تفوق جماعة اقليمية خاصة :
الحاضرة ، المدينة التي ترمز إلى مبدأ المحلة والجوار المهيمن على تجمعات
القرابة (genos, gentes, cúries, phratries) والمعتقد الديني (إذ لم
تكن الكنيسة سوى جهاز بين أجهزة أخرى في الحاضرة - الدولة) ، وعلى
العائلات المنزلية - الزوجية ، التي ينتمى إليها العبيد ، وعلى الجمعيات

والأخويات الحرفية (المتطورة قليلاً مثل collegix , sodalitates) ، وعلى
جميعات جامعي الضرائب ، والمراتب الاقتصادية ، الخ .

ويتوافق تفوق الحاضرة على كل التجمعات الأخرى مع نزعة إلى
العلمنة والعقلنة ، وإلى تمايز وتحرر في الحقوق والأخلاق والمعرفة
الفلسفية والعلمية بالنسبة إلى الدين والسحر ، المدفوعين إلى الوراء ؛
فهذا بطريقة ما انتصار الطبيعي على ما فوق الطبيعي ، الذي تظهر أولويته في
المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي بمثابة المثال الساطع على ذلك .

وتسير ديمقراطية البنية الاجتماعية الشاملة جنباً إلى جنب مع تعزيز المبدأ
الأقليمي ومع التفوق الذي حققه العقل والمعرفة الإنسانيان .

لقد اتخذت الفردانية الأغريقية - الرومانية من مفهوم الشخص
persona الذي وضعه القانسون الروماني ، ومفهوم paterfamilias في
الحقيقة ، مركزاً للحياة الحقوقية والمبادلات الاقتصادية . المتزايدة التطور ،
وكذلك الحياة العائلية . كان مفرد persona يعني أولاً «القناع» ؛ وارتدى في
روما المعنى المزدوج للشخص « ذي القناع الحقوقي » (التمييز عن الفاعل
النفساني ، الديني ، الأخلاقي) وللإدارة التي تقود . ويمكن لهذه الإرادة أن
تنتسب إلى شخص فردي أو جماعي ، لكنها متميزة دائماً عن أشخاص
آخرين ، متعارضين معها . أن هذا الشخص ، بوصفه وحدة بسيطة
ومستوعبة ، هو الذي يعتبر بمثابة المرتكز والفاعل الوحيد لكل رابطة
اجتماعية ، لكل ملكية ، ولكل سلطة أخيراً . فالتوازن يكون بين
L'Imperium potestas الذي يكفل حرم الخاصة ، وهذا الأخير الذي يحدد
الأول ؛ هذا الإلهام الرئيسي لكل بنية اجتماعية تخصص مكانة كبرى للدولة ،
للعقد ، للملكية الخاصة ، وباختصار للفردانية الحقوقية . وظلت مرتكزات

هذه البنية الاجتماعية هي ذاتها ، عندما حلت محل ديمقراطية الحاضرة ، الأنظمة الاستبدادية في اليونان ، والإمارة ثم الأباطورية في روما ، ويتميز هذان النمطان الأخيران بنمو بيروقراطية امبريالية ، ومركزية مفرطة وقيصرية مطلقة .

وإذا كانت الفردانية قد انتصرت في روما من خلال الحق الروماني المحرك في أن للدومينيوم والأبريوم ، فقد انتصرت في اليونان ليس فقط في الهيئات السياسية - الديمقراطية وفي الأساليب الحقوقية ، بل انتصرت أيضاً في الفن والفلسفة ، في العادات والأعراف ، في المبادلات من كل نوع ، وكذلك في مبدأ الديالوج ذاته ، وأخيراً في التراجميات اليونانية حيث يكافح الإنسان قدره ، بقرار حر لكنه غالباً ما يكون مجبواً .

وكانت التقنيات الفاعلة في الحياة الاقتصادية متأخرة جداً بالنسبة إلى تطور المعرفة الفلسفية ، العلمية ، وحتى بالنسبة إلى المعرفة الفطرية والشائعة عن العالم الخارجي ، وكذلك بالنسبة إلى الفن والحقوق والتنظيم السياسي . ومن المناسب مع ذلك التفريق هنا بين الحواضر وتجارها البحرية العالمية التي كانت تصل حتى البحر المتوسط شمالاً وآسيا الصغرى وصقلية والبلدان الشرقية حيث كان المواطنون ، العبيد والطلقاء يعملون على ازدهار التقنيات الحرفية البالغة الدقة ، وبين الأرياف - حتى المجاورة - المتأخرة جداً من كل الجهات ، التي كانت تزرع في تخلف تقني حقيقي . وإننا نعرف الآن أن اليونان والرومان كانوا يجهلون ربط الجياد لجعلها تحرث الأرض ؛ ولم يستعملوها إلا في الاحتفالات ومعارك الفروسية .

وظلت الزراعة وتربية الماشية في مستوى منخفض جداً حتى نهاية العصر الكلاسيكي في ظل الأباطوريات كما في الحواضر - الدول . وهذا يفسر ، بين أسباب أخرى ، بأهمية الرق في الأرياف ، وبالعار الذي كان يلحق العمل الزراعي . كانت تقنية المضاربات المالية مرتبطة أولاً بالتجارة

البحرية ، فتطورت بعد ذلك بفضل نشاط « الولاة » في الأقاليم البعيدة من
الأمبراطورية الرومانية . وأصبحت مهنة « جمع الضرائب » التي استولى عليها
العبيد المطلقاء ، متركزاً لمضاربات الولاة المستبدين Proconsuls .

إن الظلامات الإقتصادية الشديدة ، وحركات الجماهير العريضة غير
المندمجة في الأطر المستقرة ، وحركات « البروليتاريين العاطلين عن
العمل » . . وأخيراً انتفاضات العبيد (سبارتاكيس) ، يمكنها أن تعطي
انطباعات بأن الطبقات الاجتماعية كانت توشك على التكون (لا سيما في الوقت
الذي بدأت فيه هذه البنى بالتفكك) إلا أن التناظر يبقى خارجياً وسطحياً :
فبالإضافة إلى كون هذه المجاميع لا تقدم أية مقاومة فعلية للمجتمع الشامل
فقد كانت تفتقر إلى كل انبناء . فهذا الأخير كان مستحيلاً نظراً لأن كل وعي
طبقي وكل أيديولوجية كانا معدومين لدى تلك الجماعات التي لم تكن بدورها
تضطلع بأي دور واضح في الإنتاج ولم يكن بمستطاعها الإتصال (نظراً
لانعدام الوسائل التقنية) الإتصال بالفئات الاجتماعية من نفس المستوى
الموجود في مدن وحواضر وأمبراطوريات أخرى .

فلنلخص الآن السمات المميزة لهذا النمط من البناء الاجتماعي والظاهرة
الاجتماعية الكلية الشاملة المضمرة فيه . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه الأخيرة
تضغط بثقلها الذي يكبح طاقة البنية .

أ) مراتب التجمعات ، في رأس الدولة او الأمبراطورية ، نجد الدولة
- الحاضرة مهيمنة على كل التجمعات الأخرى مثل : التجمعات العائلية
المنزلية - الزوجية (والعبيد ضمنها) تجمعات الأصل والمنشأ ، التجمعات
الضريبية ، التجمعات الإقتصادية ، التجمعات التربوية (الأكاديميات
المشهورة) وأخيراً التجمعات الصوفية - الغيبوية (كهنة ومريدون مرشحون
للأسرار والمعجزات) لا تضطلع إلا بدور دوني (تابع للدولة - الحاضرة
المعلمنة ، ولا يحد من قوة الحاضرة سوى تجمعات العائلات المنزلية - الزوجية
والتجمعات الوراثية ، وتبدو التجمعات الأخرى غير فاعلة بالنسبة إلى

الحاضرة : فهذه تهيمن عليها ، مثلما يهيمن الغبار على الأفراد في العائلات الأبوية .

ب) مراتب تجليات الحياة الاجتماعية : تحديد شديد جداً للنحن بالنسبة إلى الآخرين الفرديين والجماعيين ، ونهاية هذه العلاقات بهيمنة واضحة على الإنصهارات الجزئية ، من هنا بروز الفردانية التي تظهر في كل المجالات وفي جميع الأشكال ، مستثيرة الرد الفلسفي الشديد لدى أفلاطون وأرسطو ، اللذين لم يكن لمواقفهما أي أثر مباشر .

في عداد العلاقات المختلفة مع الآخر ، تأكدت بوجه خاص العلاقات الناشطة ذات الطابع المشترك - أي الجامعة بين القريب والبعيد . ويظهر هذا الوضع في المبادلات من كل نوع والمتضمنة المبادلات الفكرية والمحاورات ، وبالأخص طبعاً العلاقات التعاقدية التجارية وسواها .

وفي صميم النحن ، التي تتأكد خاصة في الحاضرة ذاتها وفي جماعاتها الدنيا ، تسود المتحدات دون ريب ، نظراً لأن الجماعيات محصورة في نطاق الفلاسفة الضيق ، وفي جمهرات سرية عابرة ، وأما الجماهير ، فإنها لا تظهر إلا مع الأنظمة المستبدة . والأمبراطورية والقيصرية . وهذه المتحدات الناشطة والعقلانية شكلت مرتكزات وقواعد لتوسع الحواضر القديمة . فهي تستعد لتقبل نمو العلاقات مع الآخر بسهولة . وهي ، كما اتاحت لنا فرصة الملاحظة في الباب الأول من هذه الدراسة ، التي تشجع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، والمعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية ، كما سنرى . كذلك هي التي تسهم في تطوير الأبناء والتنظيم - وهذا ليس سوى عنصر ممكن من عناصر الأول - ، وفي تطوير التنظيم الحقوقي . إن المتحد الناشط ، المهيمن في الحاضرة ، يشكل الوسط الذي تنبثق منه « المعجزة الأغريقية » التي تشهد ميلاد العقل البشري المستقل ، والإيمان في القدرة الكاملة للإنسان ، في القدرة اللامتناهية للمعرفة الإنسانية ، وفي مستقبلها .

ج) بروز المراتب في العمق : النماذج والرموز والقواعد ، والإشارات ذات الطابع الفكري الحقوقي ، الغني ، الأخلاقي اجبرا ، تعتبر ذات كثافة خاصة ، وتهيمن على سلم المراتب في الواقع الاجتماعي : لكن ليس فيها أي شيء رتيب ولا تقليدي . بل هي على العكس مجددة ومتجددة في الغالب . مرتبطة ارتباطاً واعياً بالعقل والإرادة البشريين اللذين يدعانها ويخلفانها ويعدلانها ويستخدمانها كنقاط استدلال على التحولات الاجتماعية المسنودة بدورها من جانب ذهنية جماعية وأثقة بقوة الإنسان ومحبة لكل مشروع وتجربة أو مبادرة جديدة . ومثال ذلك الأفعال الذهنية - الأحكام والحدوس - التي تعتبر محظية بالنسبة إلى الأحوال الفكرية (ذاكرة ، تمثلات ، مشاعر عاطفية . الخ) . إلا أن القاعدة المورفولوجية تظل بالغة الأهمية ليس فقط بالمقارنة مع التقنيات المتأخرة في الأرياف ، بل أيضا بالمقارنة مع الطرق البحرية والنهرية والطرق الرومانية الشهيرة في العصر الإمبراطوري ، دون الكلام عن حركية وكثافة السكان في المدن - الحواضر ، حيث يتجاوز ويتحاهى المواطنون والعبيد ، التجار والبحارة الغرباء ، والعبيد الطلقاء . وتعتبر الأدوار الاجتماعية والمواقف الجماعية أشد بروزاً هنا من المسالك المنتظمة : الطقوس ، التقاليد ، الأعراف ، الممارسات . بعض هذه الأدوار الاجتماعية : أدوار الخطيب ، المحامي ، الدهماوي المتأمر ، الرجل السياسي ، المصلح ، الزعيم العسكري الكبير ، الحاكم القائد ، الطليق ، التاجر الغني ، البروليتاري (بالمعنى الروماني للكلمة) الخ . ليست أدواراً منتظمة أو مفروضة . ولا هي بالأدوار المنتظمة : فبعد أن نشأت عفويا ، صارت فيما بعد رائج ، وأكثر من ذلك في الثيوقراطيات الباهرة تكون المسالك الأبداعية هامة . ولا يكون للإصلاحات ، الانتفاضات ، الاضطرابات ، الانقلابات ، وحتى الثورات ، أي شيء فارق في هذه الأنماط من البنى والمجتمعات الشاملة .

د) كما سبق لنا التشديد ، يعتبر تقسيم العمل متأخراً جداً هنا - لا سيما

في المناطق الريفية - أكثر مما يمكن الظن إذا استندنا إلى الدافع العام للحضارة ، وإلى نمو المبادلات التجارية الدولية ، وتراكم الثروات والقوة السياسية والعسكرية . في المقابل ، يكون تقسيم العمل الاجتماعي متقدماً جداً ، حتى في أوساط العبيد في روما خاصة .

هـ) تتنافس المعرفة (لا سيما معرفة العالم الخارجي ، المعرفة الفلسفية ، العلمية والسياسية) والحقوق والفن في هرمية التنظيمات الاجتماعية ؛ ويليها التربية والتعليم أولاً ، ثم أخلاقية الفضائل ؛ ولا يحتل الدين والميثولوجيا الكونية واللاهوتية إلا المكانة الأخيرة .

و) يمكن الكلام عن حضارة أغريقية - لائنية مشتركة ، جرى نقل أثرها إلى المجتمعات من النمط الإقطاعي ، لكن مع أخذ الفارق في السمات بعين الاعتبار : فهي حضارة يغلب عليها الطابع الإنساني والفلسفي والفني في اليونان ، والطابع الشكلي ، الحقوقي ، السياسي والعسكري في روما .

ما هو نظام الأنواع والأشكال المعرفية المقابل لهذا النمط من المجتمع والبنية الشاملة ؟ إن التفاوت بين الظاهرة الاجتماعية الكلية المتأخرة والبنية الشاملة المتقدمة يدخل من النزاعات بين الأنظمة المعرفية المنتسبة إلى المجتمع نفسه أكثر مما يدخله في الثيوقراطيات الباهرة . وخلافاً لما لاحظناه في المجتمعات الأبوية . ومن جهة ثانية ، تعتبر الحواضر - الدول الإطارات الاجتماعية الأولى حيث نرى المعرفة الفلسفية تنفصل كلياً عن المعرفة الميثولوجية الكونية ، وتكتسب استقلالية تامة ، وتبلغ درجة من النمو والازدهار الخارقين ، من شأنهما أن يجتذبا إلى محورها المعرفة السياسية و المعرفة العلمية على السواء ، التي كان أزدهارهما المبتدئ كبيراً . والحال ، فإن هذه الأولوية للمعرفة الفلسفية تتنازع جدياً مع المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، الذائعة الصيت والغنى والجاذبية في هذه البنى الخارجية أساساً

وجوهرأ . من هنا كان التنافس البين بين هذين النوعين المعرفيين ، لإحراز المرتبة الأولى في النظام المعرفي ، ليست هذه العداوة غير القابلة خفضاً ، المموّهة غالباً ، هي التي جعلت سقراط يحكم بالإعدام ، والتي جعلت أفلاطون يقول أن غير الفلاسفة هم « سجناء مقيدون في كهف » ؟ سيكون الدور لأرسطو في السعي للتوفيق بين المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي وبين المعرفة الفلسفية .

أ) إذن ، سيتوجب علينا التأكيد حتى نبقي موضوعين أن النظام المعرفي المتطابق مع الحواضر - الدول ، تكون فيه المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي معرفة فطرية ، وتكون المعرفة الفلسفية معرفة صناعية ، لكنها كلتاهما مستقلتان تماماً ، فارتقيتا بذلك إلى المرتبة الأولى ، دون وقوع أي وفاق دائم بينهما . كذلك ، اليس بإمكاننا تمييز هذا النظام المعرفي تمييزاً دقيقاً دون الإحاطة بهذه الثنائية في المساواة ، التي تظهر لنا أن كلا من النوعين المعرفيين المعترف بهما متفوقين ، إنما يكافح لأجل هيمنته الفوقية وارتقائه إلى ذروة الهرم .

سنبداً بالمعرفة الفلسفية . فللمرة الأولى ، تظهر بوصفها معرفة مستقلة وسوف يشع نورها المتفتق ، المحفوظ في الذاكرة الجماعية ، على المجتمعات المختلفة الأنماط التي ستتكون في الغرب بعد الحواضر القديمة . لأن المراد في الواقع هو المعرفة الطليعية ، المعرفة التي تمييز « المعجزة اليونانية » أفضل تمييز ، المعجزة التي سيعاد إنتاجها في روما فيما بعد .

إن المعرفة الفلسفية ، كما حددناها في مقدمتنا ، هي معرفة من الدرجة الثانية : إنها متلاقحة مع معارف أو أفعال ذهنية غير معرفية جاهزة أخرى ، ستبذل قصاراها لاستيعابها بوصفها تجليات جزئية ، ودمجها في كليات لا متناهية ، لكي تبرر مصداقيتها . وكما كانت المعارف العملية والسياسية العقائدية تابعتين كثيراً للمعرفة الفلسفية في لحظة نشوءهما ، كانت المعرفة الفلسفية خاصة هي المعرفة بوصفها نقيضاً لـ « المعرفة الإدراكية للعالم

الخارجي» ، السمة المميزة لكل « المدارس الفلسفية » التي تجاهبت وتصادمت . وعليه ، فمنذ ظهورها بانّت المعرفة الفلسفية كمعرفة منحازة . متحيزة ، منقسمة بين عدة فرقاء - عاد تنازعهم عليها بجزء كبير من شهرتها وجاذبيتها - ، لكن الهدف الرئيسي للمنازعة لم يكن سوى التأمل في معرفة العالم الخارجي ، المكتمل بالتأمل في الزمان الذي يتحرك فيه المجتمع والإنسانية ذاتها . وكانت المنازعات بين الأيليين وأنصار هيراقليطس ، بين السفسطائيين من مختلف المشارب وبين سقراط ، بين الرواقين (المنقسمين بدورهم إلى اتجاهات مختلفة أو بين الأبيقوريين المسبوقين بديمقريطس ، والأفلاطونيين والأرسطوطاليسيين ، بين بيرون ، والإرتيبيين والاكاديميين ، تهدف أولاً إلى صحة المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ومستقبل المجتمع ، وتهدف ثانياً إلى تبرير العلوم وتبرير المثل وتكتيكات المعرفة السياسية . من هذه الزاوية كانت الفلسفة الكلاسيكية كلها « واقعية » ، على الرغم من الفرق في هذه التأويلات . وهذا يسمح لنا بسبر الأهمية التي ارتدتها ، في هذا النظام المعرفي ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي التي ستفحصها عما قريب . ولنلاحظ أولاً أنه في كل هذه التوجهات الفلسفية طرحت مسألة الزمان المتقدم على ذاته حيث ينعكس الحاضر على المستقبل ، وهو يدير ظهره للماضي . إن هذا الوعي لحلول المستقبل جرى صياغته مدركياً في الفلسفة الأغريقية التي أبرزت في الوقت نفسه المجهود البشري للهيمنة على هذا الزمان ، لكنها ظلت مع ذلك غريبة من الواقع الإجتماعي الذي انبثقت منه .

لقد سبق أن رأينا كيف كانت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي بمثابة الموضوع الرئيسي للتأمل في الفلسفة الأغريقية ومنافسها الرئيسي في آن واحد . وربما كان هذا التقويم وهذه الترقية أقل بروزاً في روما منه في أثينا حيث كان هذا النمط المعرفي متصلاً بالذوق الجمالي وحيث كان استقلاله عن المعرفة السياسية اشد بروزاً مما هو عليه في روما . يبقى أن الأغريق والرومان هم الذين ابرزوا في النهاية الوجود المستقل للعالم الخارجي . لقد وضعوا حداً

للاوركي الغيري والأنوي للأماكن التي وضع فيها هذا العالم . إن الأماكن المشتركة المركز كالميادين الملتبسة ، يفترض بها أن تفسح في المجال أمام الميادين التي تنبسط وتنقبض دون صعوبة . ومن البين أن الميادين المستقبلية قد هيمنت على الميادين الإسقاطية . وهذه الرواية الجديدة خلقت ظروفاً مناسبة للسيطرة على الأماكن (بواسطة التنقلات البحرية الواسعة النطاق ، وبفضل المشاريع التجارية والعسكرية ذات الطابع الدولي) وعلى المحاولات لأجل صياغة مفاهيمها وسبرها والتوصل في النهاية إلى تسويرها كميّاً دون النيل من سلطانها الجاذب بوصفها ميادين ملموسة ونوعية . من هنا انطلق اكتشاف الجسم البشري وتمجيده في النحت : ووعي الأفق ؛ وبلورة علم الأحياء والفيزيولوجيا والطب كعلوم ؛ وأخيراً تقدم الرياضيات وعلم الفلك ، وهكذا بدأت تزدهر المعرفة العلمية ، التي سندرسها دراسة مستقلة ، والتي كانت مدعوة لتلعب دور الوسيط بين المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي وبين الفلسفة . كما أن وعي الزمان المتقدم على ذاته ، وعي المستقبل المهيمن على الحاضر ، والكابت للماضي ، أدى إلى مفهوم الواقع التاريخي الذي يحرك ، بدوره ، المنهج الكفيل بدراسته : علم التأريخ أو معرفة التاريخ الذي كان من رواه بلوتارك وهيرودوس ، وكان أرسطو أول فيلسوف استعمل نتائجه . إن فلسفة التاريخ الناشئة ترتبط بالمعرفة السياسية المتبلورة - التي سنعود إليها . وأن هيمنة الزمان من جهة ، وصوغ مداركه ومعايره بفضل التقاويم من جهة ثانية ، يطرحان مسألة العلاقة بين الزمان حيث يتطور المجتمع والزمان حيث يتحرك العالم الخارجي ؛ وهذه مسألة ردت عليها شتى المدارس الفلسفية ردوداً متناقضة في الغالب .

ب (في المرتبة الثانية ، خلف المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي والمعرفة الفلسفية المنافسة لها ، يجب وضع المعرفة السياسية . فهذه تتأكد أولاً بشكل عفوي في الحواضر - الدول كما في أي مجتمع آخر . فالصراعات بين الجمهور والنخبة ، بين الخاصة والعامة ، المواطنين والعبيد والطلقاء ، بين الأسياء

وبني الغرباء الخ . هي صراعات معروفة تماماً ، وما أكثر الإستراتيجيات الناتجة عنها ، فلا داعي للتوقف عندها ، إن الظاهرة الهامة تكمن في مشاهدتنا للمرة الأولى ظهور صياغة واعية لعقائد سياسية تبرمج الاختبارات السياسية المتحققة ، ونجد الأهداف المحددة والتكتيكات المتعددة الكفيلة ببلوغها ، متصلة بنزعة فلسفية معينة ، وذلك دون رهن الإستقلال اللازم للحفاظ على خصوصية المعرفة السياسية . وهكذا ظهر السفسطائيون الفرديون والتعاقديون ديمقراطيين متصلين في مذاهبهم ، متفقين على هذه النقطة مع خصمهم الرئيسي ، سقراط الذي يبني دفاعه عن الديمقراطية على عالمية العقل البشري . وطالب أفلاطون - صديق الطغاة - بالسلطة السياسية للفلاسفة . كاشفاً في آن أنه دولائي ، وكلائي ورجعي . وكان أرسطو واقعياً أكثر منه . فبحث عن الوسط العادل ، فوجده في توازن بين الاستبداد والأرستقراطية والديمقراطية ، مع استبعاد السلطة الطاغية . وأما شيثرون ، العقائدي الأكبر في روما الجمهورية ، فقد جدد البحث ، بدوره ، عن توازنات أقل بعداً مما يظهر في التوازنات التي أقترحها أرسطو . أخيراً ، مقابل النسبية الرببية لدى بيرون وتلاميذه (التي يمكنها أن تخفي المنازع الثورية للجماهير المستاءة أو الغاضبة) نجد الرواقيين من شتى المشارب ، يلجأون إلى فضل الخضوع للقوانين في كل ظرف مهما يكن النظام السياسي ، وهو موقف غير بعيد عن التبشير بالمسيحية .

قبل أن نترك الأنواع المعرفية الثلاثة المتميزة في النظام المعرفي المقابل للحواضر الدولة المتحولات أمبراطوريات ، يبدو لنا من المفيد أن نلاحظ داخل هذه الأنواع وجود شبه دائم لظهور الأشكال المعرفية عينها . وبالتالي ، في كل مكان هنا ، تنتصر الأشكال العقلانية ، المفهومية والمناسبة على أضدادها ، في حين أن الأشكال الوضعية ، التنظيرية ، الجماعية والفردية ، تنزع إلى التوازن . أما الشكل الصوفي شبه المدروك في فلسفة أفلاطون سيعتزز لدى

أفلوطين وخلفائه (مثل Denys l'Arlopagite وسواه) ؛ وفي بعض الأحيان يتشدد الشكلاان الرمزي والتنظيري في المعرفة السياسية وبالأخص في المعرفة العلمية . وفي هذين النوعين الأخيرين ، تحل المعرفة الجماعية محل المعرفة الفردية .

لقد أسهم حلول المعرفة الفلسفية المستقلة ، وديناميتها ، إسهاماً كبيراً في تجذر شائعة ، متواصلة في كثير من المجتمعات ذات النمط المختلف عن النمط الذي نحلله ، تقول إن « المعرفة الفلسفية » ربما تكون « بذاتها » هي النوع المعرفي المتفوق ، الذي تعود اليه المرتبة الأولى دائماً . والحال ، فإن هذا التفوق لا يتطابق مع واقع الأمور ؛ ولقد كان محصوراً جداً في الحواضر - الدول . كما رأينا ، بفعل تقويم المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي الذي لم يلعب أدنى دور ، ولم يكن بالإمكان لحظها فعلياً (وفي نفس الحدود) إلا في نمط مجتمعي آخر : نمط بداية الرأسمالية ، حيث أفادت في إسقاط الآثار الأخيرة للهيمنة التي تمارسها المعرفة اللاهوتية ، وفي ترقية المعرفة العلمية والتقنية . ولقد احتلت المعرفة الفلسفية ، في كل الأنماط الأخرى من البنى والمجتمعات ، مراتب مختلفة في هرم الأنواع المعرفية . الأمر الذي يدل على امتناع القول المسبق بتفوق أي نوع معرفي على نوع آخر .

ج) في هذه المنظومة المعرفية ، تعود المرتبة الثالثة إلى المعرفة العلمية على قدر ما كانت تنفصل عن الفلسفة . وبالتالي ، ازدهر العلم في العصر الكلاسيكي ازدهاراً عظيماً . وبما لا شك فيه أن أرسطو ومدرسته ، بين فلاسفة الأزمنة القديمة ، هما الأشد إسهاماً في تطوير العلم وجعله مستقلاً . إن خفض الزمان إلى « عدد الحركة » يجتذب المشائين ، سواء تعلق الأمر بحركة المادة (الطبيعة) أم بحركة الحياة (علم الأحياء) أم بحركة البشر ، وباختصار بعلوم الطبيعة أم العلوم البيولوجية ، دون أن ننسى علوم الإنسان ؛ علم الدولة ، علم العلاقات الاجتماعية (ما قبل علم الاجتماع) وأخيراً علم التاريخ . كان أفلاطون وتلاميذه - أسلاف المشائين - يكتبون في موضوع

العلوم بتأييد تطور الرياضيات والهندسة بوجه خاص .

كما أن العلوم الدقيقة تطورت خارج الفلسفة ؛ فقد تطور الجبر والهندسة والفيزياء مع فيثاغور وأرخميدس ؛ والفيزيولوجيا والبيولوجيا مع أبقراط وتلاميذه ، والطب تطور على أيدي أسكولاب . ولقد تقدمت الإشارة إلى العلم التاريخي الذي ازدهر مع هيرودوتس وبلوتارك .

ولكن في هذه المعرفة العلمية ، التي بدأت تهز وصاية المعرفة الفلسفية التي تدين لها بقدر ما تدين للمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، ما هي أشكال المعرفة التي برزت بشكل شديد ؟ هنا أيضا لامشاحة في أن الأشكال العقلانية ، المدركة والرمزية تتجاذب بعضها بعضا ؛ إلا أن الشكليات النظرية والوضعية يتداخلان ويتكاملان ويقترنان . ومن جهة ثانية ، تؤدي الحاجة إلى الإكثار من الملاحظات والتجارب وإلى تنظيم مراكز الثقافة والتعليم وإلى إنشاء المختبرات أيضا ، تؤدي بالقوة إلى هيمنة الشكل الجماعي على الشكل الفردي .

د) في المرتبة الرابعة من هذا النظام تقع من جهة المعرفة التقنية . ومن جهة ثانية معرفة الحس السليم ؛ ويقترن هذان النوعان المعرفيان هنا اقترانا واسع المدى ، وبالتالي ، في هذه المجتمعات تكون المعرفة التقنية ضعيفة جدا نسبيا ، لا سيما في عصر الحواضر - الدول (لأنها تعرضت في عصر الأمبراطوريات لأثر التقنيات المعمول بها في الأراضي المغزوة ، لا سيما في المستعمرات الرومانية ، وأفادت من التقاليد التقنية المتفوقة جدا ، الخاصة بمصر القديمة من جهة وبالبرابرة الجرمان من جهة ثانية) . وإذا استثنينا الملاحاة البحرية ، التجارة الدولية ، تقنية المضاربات المالية ، تنظيم جباية الضرائب في البلدان المستعمرة ، وأخيرا الطرقات الرومانية الشهيرة والصناعة اليدوية المخصصة لسد الحاجات الراقية نسبيا في حياة الحواضر ، فلا يمكننا لحظ أي تقدم ملحوظ في المعرفة التقنية التي يعتبر تأخرها كبيرا بالمقارنة مع البنى ، وبالأخص في الحياة الريفية ، كما لاحظنا ذلك سابقاً ، ومن المؤكد أنه لا يمكن

إقامة أية صلة بين المعارف التقنية والمعارف العلمية الناشئة . فالتقنيات لا تستعمل المكاسب العلمية . وفي هذه الشروط ، يبدو من الطبيعي أن تنزع المعرفة التقنية ومعرفة الحس السليم إلى التقارب ؛ ولا يوجد إلا في عالم الملاحين - التجار والحرفيين ؛ هيمنة للمعارف التقنية .

من الواضح أن لمعرفة الحس السليم مجالاً أرحب من المعرفة التقنية ، وذلك على قدر ما تكون مسيسة في الحواضر - الدول تسيساً شديداً . يضاف إلى ذلك أنها تتغير حسب الأوساط . وعليها ، فهي ليست هي ذاتها في المدن والأرياف ، لدى الخاصة والعامة ، والتجار والملاحين ، والحرفيين ولدى العسكريين والمدنيين . وهي تختلف داخل العائلات المنزلية وفي خارجها ، لدى رجال السياسة مجالس النيابة والشيوخ ولدى الناهخين ، كما تختلف عند المواطنين والعبيد : كما أنها تتبدل بين الرجال الأحرار والطلقاء ، وبين الطلقاء والعبيد . ومهما يكن الأمر في الجزء الأكبر من السكان الذي لم ينعم بنعمة المعرفة الفلسفية والعلمية ، والمحروم من المهارة التقنية ، والاميّ غالباً ، تكون معرفة الحس والمعرفة التقنية مشجعتين لعين الأشكال الجامعة بين الصوفية والعقلانية ، وبين الشكل المدركي والشكل التجريبي . غير أن الأشكال الوضعية ، الرمزية ، والجماعية خاصة ، تكون بارزة بروزاً كبيراً للغاية .

هـ) ثم تأتي في المرتبة الخامسة الأخيرة ، معرفة الآخر والنحن . إنها تبدو محدودة جداً ، ليس فقط بالعبودية ، بل أيضاً بتعارض المواطنين والأغراب ، الخاصة والعامة ، المدنيين والريفيين ، وهي أخيراً محدودة بنزوع المجتمع غير الدولي إلى الانحلال في غبار من الأفراد المعزولين . هذا ولا تظهر عناصر هذا النوع المعرفي إلا في الأسر المنزلية - الزوجية . وفي جماعات الفلاسفة ، سواء كانوا منتظمين في مدارس وأكاديميات أم كانوا يقودون المساجلات في الساحات العامة ؛ وبين أرباب الطقوس الباطنية ، وأخيراً في أجنة الجماعات المهنية خاصة (الملاحون ، التجار ، الحرفيون ، الخ) . وهي من جهة ثانية معرفة أصلح لادراك العمومية لدى الآخر أكثر من إدراك

الفردانية الملموسة ، إن هذا الاتجاه واضح جداً لدى سقراط ولدى مناوئيه ، السفسطائيين ، الذين لا يهتمون بالإنسان ، كفردٍ خاص ومتميز عن أنداده بقدر ما يهتمون به كممثل لا متميز ونوعي للإنسانية العاقلة بوجه عام . ولن نلح على كون الأشكال البارزة في هذه المعرفة هي أشكال عقلانية . مدركية ، نظرية ، رمزية وجماعية . إن ضعف هذه المعرفة ، الأقل أهمية في النظام المعرفي الخاص بالحواضر- الدول ، يسهم في الحد من أثر المتحد ، لصالح الجمهور في هذا النمط البنيوي والمجتمعي .

في ختام هذا العرض حول النظام المعرفي الموروث من الأزمنة الكلاسيكية القديمة ، النظام الذي طبع ، بقوته وهنائه ، المجتمعات والبني الشاملة من الطراز الغربي طبعاً لا يحى ، بقي علينا أن نشدد على نقطة إيجابية هي قيام جماعات من العلماء والحكماء والمعلمين ، وبالأجمال تكون جهاز كامل مولج بتطوير المعرفة وإدامتها ونشرها . وفي هذا المجال ، لعب قيام المدارس الفلسفية والعلمية وتنظيم الأكاديميات ومعاهد الرياضة والمدارس ، كما لعب نشاط سقراط والسفسطائيين ، وبالأخص نشاط أرسطو والمثائين ، وكذلك ما قام به العبيد الأغريق من دور في تربية الفئات المتميزة من السكان الرومان ، دوراً كبيراً يستحق الإبراز هنا ، فلم تعد من الباطنية بشيء هذه الجماعات ، هذه المدارس ، هذه الهيئات المختلفة المتخصصة في نشر وتطوير المعرفة الموضوعية . إن عادة سقراط والسفسطائيين في نقل المساجلات الفلسفية والعلمية إلى الساحة العامة ، والسوق والشارع ، هي سمة بارزة جداً وذات دلالة . فمنذ أن تجد معرفة موضوعية ، مهما يكن نوعها ، نقاط استدلال في جماعات متخصصة ، يكون ثمة فرص كبيرة لكي يتعزز النظام المعرفي ، الأمر الذي لا يعني إطلاقاً أن هرم الأنواع المعرفية سيجمد لهذا السبب ، ولا يعني أن أهمية المعرفة في الحياة الاجتماعية ستظل هي نفسها دائماً . وهذا ما سنبينه لاحقاً في هذا الكتاب .

الفصل السادس

المجتمعات الإقطاعية ومنظوماتها المعرفية

إذا انتقلنا من الحواضر - الدول - الأمبراطوريات إلى المجتمعات الإقطاعية ، فإن المناخ يتبدل جذرياً . فنحن نجد أنفسنا أمام تفاوت ملحوظ جداً بين الظاهرة الشاملة المضمرة وبين البنية المقابلة (وهذا ليس جديداً إلا من حيث شدة التفاوت) ، كما نجد أنفسنا أمام تعددية خارقة في البنية ذاتها وفي الأعمال الحضارية التي تدعمها . وهنا نجد عدة مراتب من التجمعات والبنى والأنظمة الاجتماعية والأعمال الحضارية أخيراً ، نتنافس بحثاً عن توازنات معقدة ، صعبة البلوغ دائماً . ويقابل هذا التنوع في المراتب تعدد التقاليد المنبثقة من موروثة شتى : الموروث الأغريقي - الروماني ، الجرمانى البربري ، دون ان ننسى موروثة المغاربة Maures الذين غزوا جزءاً من أوروبا ونقلوا إلى المجتمع الإقطاعي معارف علمية وتقنية شهدت نمواً خاصاً في مصر وفي البلاد العربية أيضاً .

تقع الإقطاعية الأوروبية بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر ، وهي حقبة أصطلح على تسميتها بإسم القرون الوسطى ، وهي تتسم في فرنسا ، انكلترا ، الفلاندر ، والمانيا ، بسمة خاصة درسها المؤرخون . أنها تمتاز عن الأنماط الإقطاعية الأخرى (مثل أنماط الإقطاع الياباني ، الصيني ، السخ) بالتعدد الشديد الذي اشرنا اليه منذ قليل .

تتاز البنية الإقطاعية الشاملة بخمس مراتب مختلفة ، تتنافس فيما بينها .

١ . الإتحاد التراتبي للتجمعات العسكرية على أساس الولاء الإقطاعي ، الإخلاص الشخصي من المولى للإقطاعي ، المؤدي إلى قيام إقطاعيات تلتزم بواجبات والتزامات عسكرية . وللدخول في هذه الحلقة من التبعيات الإقطاعية ، يجب أن يكون للمرء فارساً ، حائزاً على شرف المرتبة .

٢ . مرتبة التجمعات الإمتلاكية التي لها صفة اقتصادية ، والتي تظهر في مظهرين من العلاقات بين السادة والفلاحين ، مزارعي الأراضي بصفات مختلفة ، ومن العلاقات بين الإقطاعيين والموالي ، عندما تصبح الإقطاعية وراثية وتنقل إلى ممتلكات المولى ويترتب على ذلك أن تصبح مرتبة الإقطاعيين - الموالي ومرتبة التجمعات الإمتلاكية متوازية في جزء منها ، ومتباينة في جزء آخر .

٣ . مرتبة على رأسها الدولة الملكية : إنها لا تبدو حقاً فاعلة ، لا في شكل الأمبراطورية الرومانية - الجرمانية المقدسة ، ولا في صورة مجمل الإمارات الإقطاعية في منطقة ما ، شبه المرتبطة بالملك الإقطاعي ، «الأول بين أنداده» . حتى أن طابع الدولة بوصفها كتلة من التجمعات المحلية ، بوصفها كلاً إقليمياً تاماً ، يكون مهتزاً اهتزازاً شديداً . وفي بعض الأحيان ، يزعم أن « الدولة ميتة » في نط المجتمعات الإقطاعية . وهذا غير صحيح : إنما هي غافية ؛ تفتقر إلى القوة . لكن يكفي بروز فرصة مناسبة لبعث الحياة فيها . وهذا ما حدث في نهاية العهد الإقطاعي ، بفضل اتفاق الملوك الإقطاعيين مع المدن الحرة التي ابتاعت إطلاق سراحها من الدولة الإقليمية .

٤ . المرتبة الكنسية في الكنيسة الرومانية ، المختلفة تماماً بالنسبة إلى كل التجمعات الأخرى وكل الإتحادات والتراتبات . إنها من أوسع الجماعيات ، الفاعلة داخل المجتمع الإقطاعي . وهي الوحيدة المتسمة بطابع شمولي . والقيمون عليها ، على الرغم من دخولهم أيضاً في السلاسل الإقطاعية والإمتلاكية . فإنهم لا يعترفون بتبعيتهم لإتجاه المرتبة الكنسية . وهذا ما كان أولاً في أصل « معركة التوليات » (من القرن 11 إلى القرن 13) ، وثانياً في أصل

النزعات إلى تكوين دولة ثيوقراطية . ففي المجتمع الإقطاعي ، تعتبر الكنيسة بوجه خاص بمثابة التجسيد المتطور للجسد البشري ، المتضمنة في داخلها ، من جانب معين ، كل تنوع التجمعات وتراتباتها . وهي تبذل قصاراها لتثبيت نفسها كمجموعة ذات وظيفة عليا ، تمثل الظاهرة الكلية الشاملة . ولكن بعد مقاومات ونزاعات عديدة (مثلاً بين البابا غريغوار السابع والأمبراطور هنري الرابع ، ثم فيما بعد بين Gibelins Guelfs) أدت إلى نشوء عقيدة مارسيل دي بادو السياسية (التي تعلن سيادة الشعب بنعمة الكنيسة) من جهة ، ومدرسة المشرعين في Bologne (العودة إلى سيادة الدولة) من جهة ثانية ، ظهرت سلطة الكنيسة كأنها محدودة بشكل ملموس بحدود التفوق العسكري للسلسلة الإقطاعية ، والإستعلاء الإقتصادي ، التقني وأخيراً الفكري في المدن المتحررة .

أما من زاوية المعرفة ، فليس هناك شك في أن الكنيسة الرومانية من جهة ، والمدن الحرة من جهة ثانية ، تمثل المركزين الرئيسيين للنظام المعرفي . يضاف إلى ذلك أن هذين المركزين اللذين ينزعان ، من حيث المعرفة ، إلى التنافس ، يمكنهما أيضاً أن يندجا بوصفهما إطارات للمعرفة . وهذا بوجه خاص هو حال الجامعات الكثيرة جداً في القرون الوسطى . أن الجامعات ، كمنشآت دينية ، ينتمي اساتذتها إلى الأكليروس ، وجدت نفسها موضوعة كلها في المدن الحرة ، حيث تأثرت بها تأثراً كبير . ويتأكد القول الشائع بأن « هواء المدن يحرر » من خلال تعليم الجامعات ، التي تنشر معرفة متطابقة أكثر فأكثر مع التراث الكلاسيكي ، الموروث عن النظام المعرفي في الحواضر - الدول - الأمبراطوريات .

وأما طابع انواع المعرفة وأشكالها ، الخاص بالكنيسة الرومانية كجماعة . فقد تكلمنا عنه في الباب الثاني من هذه الدراسة . ويكفينا التذكير بهيمنة المعرفة اللاهوتية - الفلسفية والمعرفة السياسية على معرفة الآخر ، والبروز المفاجيء للأشكال العقلانية والمدركية والوضعية في المعرفة ، الناجم

عن نصلب المعتقدات المنزلة وتنظيمات الكنيسة . فدور الكنيسة كإطار لنظام معرفي في القرون الوسطى سيؤكد ملاحظتنا السابقة ويجسدها بشكل ملموس .

٥ . اتحاد المدن المتحررة وتراتب تجمعاتها (روابط الزملاء والمتعلمين ، جمعيات التجار الخ) :

إنه يمثل في المجتمعات الإقطاعية عالماً مستقلاً بقدر ما يمثل في الوقت نفسه حركة واسعة لتحرير الكومونات في المدن ، وكانت هذه الحركة قد استرعت انتباه سان سيمون وسكرتيره أوغسطين تيري اللذين رأيا فيها بداية العصر الصناعي الذي يصفى تدريجياً « الطفيليين » . أن « موثيق التحرر » المتبعة غالباً من الأسياد، الملوك والمطارنة، تؤكد قيام المدن التي تديرها المجالس البلدية حيث تتمثل جمعيات التجار والنقابات المهنية . وأما نقابات المعلمين والزملاء والمتعلمين فغالباً ما تكون في حالة تنازع ، وتتعد هذه التعارضات بالعداوات القائمة بين النقابات المهنية وجمعيات التجار . لقد فقد المطارنة ومجالسهم كل سلطة زمنية في هذه المدن : فهذه أصبحت جمهوريات حقيقية ، وتتعد فيما بينها تحالفات عريضة ترتدي أحياناً طابع الاتحادات الدولية - من بروغ إلى نوفنورود (الجمهورية الحضرية الروسية) مروراً بـ كولونيا وهامبورغ ولوبيك . وهكذا انفتحت ميادين واسعة أمام المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي التي تتمتع بها المدن المتحررة التي بدت وحدها في البنية الإقطاعية قادرة على ترقية وتوسيع هذا النوع المعرفي . وبصدد هذا الإزدهار في المدن الحرة ، يتحدث هـ . بيرين H . Pirenne عن « ثورة بلدية حقيقية » أدت إلى قيام « حكومات مؤقتة » . ربما في قوله مبالغة ، لكن يبدو من المؤكد أن هذه المراكز الصناعية والتجارية كانت في الوقت نفسه ، مراكز للإلهام الفكري ولإحياء القانون الروماني ، مراكز تشع منها المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، حيث يعد انتصار التومائية Thomisme على الأوغسطينية ، وحيث ستطلق أخيراً حركة « النهضة » .

فلنحاول ، بعد إبراز هذه السمات للسلاسل التراتبية الخمس والتي يشكل اقترانها تركيبة البنية الإقطاعية ، أن نوجز ، على الرغم من هذا التعدد ، السمات الكبرى للبنية وللمجتمع الإقطاعيين .

(أ) تنافس بين خمس سلاسل ، ميل إلى تفوق معين للكنيسة ؛ أهمية المدن الحرة وغفوة الدولة ؛ الفيض الكبير للتجمعات الخاصة غير الإقليمية ؛ هيئات الفرسان ، الهيئات الدينية ، النقابات الخ ؛ وتكاثر الأسر الزوجية الأوثق ترابطاً من الأسر المنزلية .

(ب) استعلاء النحن على العلاقات الفردية والجماعية بالآخر ، التي ترتدي مع ذلك - بسبب كثرة الجماعات والمراتب المتنوعة - أهمية غير متوقعة ، وفي عداد النحن نذكر المتحدات الناشطة التي تظهر بكثافة شديدة (لا سيما في المدن ، في مختلف النقابات ، الأخويات ، هيئات الفرسان الخ) ؛ وهذه المتحدات ترتدي طابعاً سلبياً في الإقطاعيات والجماعات الأملاكية والفردية . وتحد الجماهير السلبية من المتحدات ، ليس فقط في الدولة شبه الموجودة ، بل أيضاً في الكنيسة حيث لا تظهر الجماعات الإيلافية إلا في الأديرة والرهبانيات وأخيراً في المذاهب ولدى أتباع الهرطقات .

(ج) في عمق المراتب ، تكون الأدوار والمواقف مرفوعة هنا ، إلى قمة مراتب الواقع الاجتماعي . ولا يتعلق الأمر بأدوار متميزة ، مفروضة ، منتظمة وحسب ، بل يتعلق أيضاً بأدوار متقلبة ، متغيرة ، غير متوقعة ، وعليه ، ففي كل من هذه السلاسل الخمسة المتنازعة تكون أدوار الجماعات والأفراد كثيرة . أنها تتقاطع ، تتدامج وتتعارض . وتباین إلى أبعد الحدود طرق إداء هذه الأدوار ذاتها وطرق تأويلاتها . فبهذا التنوع وهذه المرونة اللامتناهية تقريباً ، تنحل مفارقة المجتمع الإقطاعي المنتظم في آن واحد بطريقة تعددية ومتصلبة إلى أقصى حد . فليس هناك أقطاعيتان ، هيئتان من الفرسان ، مدينتان ، هيئتان دينيتان ، الخ ، لهما نفس التصور لدورهما ، ونجد هذا التباين مجدداً في كل من أعضائها الفرديين . وفي المرتبة الثانية . تأتي الرموز والنماذج ،

الصوفية تارة ، العقلانية تارة أخرى ، متبوعة بنظم متنوعة ، بطقوس ، بأساليب ، بعبادات ، بأعراف ، يساعد تنوعها وتناقضها بالذات على تشجيع النزعات التجديدية . إن الأفكار والمبادئ ، المرتبطة بالدين مبدئياً ، وباللاهوت وكذلك بالفن الذي تلهمه ، تجد في الواقع سندها في شتى الأطر الاجتماعية كما تجده في مختلف التقاليد الروحانية الأنفة الذكر . وتتجسد وسائلها التعبيرية في الأخلاق ، القانون ، التربية ، وفي المعرفة (التي سندرس عما قريب أنواعها وأشكالها الخاصة بهذا المجتمع) ، وتلعب القاعدة المورفولوجية دوراً في الأرياف أهم من الدور الذي تلعبه في المدن ؛ وهذا الأمر موصول بالمستوى المتدني نسبياً في التقنيات الزراعية ، والمتفوق جداً بالنسبة إلى تقنيات العالم القديم . أخيراً ، وبالرغم من الزمان الدوري ، يبرز الزمان المتقدم على ذاته ليس فقط من خلال اضطراب المدن الحرة . بل يظهر أيضاً من خلال الثغرات الحادثة بين مختلف السلاسل المراتبية المتنازعة ، ممثلة بذلك تشجيعاً للمسالك التجديدية والمتحمسة التي تشكل « الحملات الصليبية » مثلاً عنها .

د) على الرغم من نمو التقنيات نمواً متعاضداً هنا أكثر مما كان عليه في الحواضر - الدول - الأمبراطوريات ، ليس فقط في المجال الصناعي ، بل حتى في المجال الزراعي حيث تكون التقنيات أدنى نسبياً ، فقد واصل تقسيم العمل الاجتماعي هيمنته الواضحة على تقسيم العمل التقني .

هـ) في هرم التنظيمات الاجتماعية ، يحتل القانون (العرفي ، القائم على السوابق ، الموقفي أخيراً ، لكنه غير التشريعي) والدين المرتبة الأولى ، ثم يليهما الفن والأخلاقية (السلفية ، ذات الصور الرمزية المثالية ، والنفعية في المدن أخيراً) والتربية والمعرفة (القائمة أهميتها على التراث الكلاسيكي) التي تتنازع المرتبة الثانية .

و) سبق أن ميزنا الحضارة التي تشكل أساس هذه البنية ، وكشفنا تعقيدها . ولنضيف الملاحم البطولية والغنائية ، علم التأريخ ، رحمة الله ،

(. . .) ، الميل إلى السيطرة على الزمان والمكان ، الميل الخاص بالكنيسة وبالمدن المتحررة على السواء ، وأخيراً اقتران اللغة اللاتينية باللغة الأغريقية واللغة القومية .

يكفي طرح مسألة النظام المعرفي المقابل لهذا النمط المجتمعي لكي ندرك أن بعض السلالم التراتبية قادرة وحدها على فرض المعرفة المتبلورة . (ومن بين هذه المراتب ، يمكن أن نذكر ، فضلاً عن الكنيسة والمدن الحرة ، مرتبة التجمعات العسكرية) . بالنسبة إلى المراتب الأخرى ، وكذلك بالنسبة إلى الظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة ، لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بمعرفة فطرية وملتسبة .

١ . يفترض أن تعود المرتبة الأولى للمعرفة الفلسفية - اللاهوتية التي شكلت الكنيسة الرومانية ومؤسساتها الدنيا إطاراً اجتماعياً لها . وحدث هنا نوعٌ من التفاعل بين معتقدات الكنيسة والفلسفة الكلاسيكية - فلسفة أفلاطون ، أرسطو ، أفلوطين ، دمسقيوس ، دنيز الأريوباجي ، الخ . وترتب على ذلك ليس فقط أن أصبح الخلاف بين الفلاسفة المثاليين والواقعيين (المنتسبين إلى تقاليد أفلاطونية وأرسطوطاليسية) ومنهم القديس أوغسطين والقديس توما ، خلافاً بين الصوفية والعقلانية - بل ترتب أيضاً أن ترجم التعارض بين الأسمية التجريبية (الممثلة بالمدرسين البريطانيين مثل دونز سكوت وتلاميذه) والواقعية المفهومية إلى نزاعات لاهوتية ، حسب الملاحظة الصحيحة التي أبداهها ماكس شلر ، يعتبر أثر البروجوازية في المدن المتحررة حيث أقيمت الجامعات - وهي منشآت كنسية لكنها متأثرة بعقلانية وواقعية محيطها - هو الذي شجع انتصار القديس توما على القديس أوغسطين .

من جهة ثانية ، في المعرفة الفلسفية - اللاهوتية ، الخاضعة لتأثير المدن ، تكون الأشكال التجريبية ، النظرية والفردية ذات بروز ملحوظ جداً

في حين تهيمن الأشكال المدركة الوضعية والجماعية في نفس المعرفة المبنية على تعاليم الكنيسة حصراً .

٢ . في المرتبة الثانية تأتي المعرفة السياسية ، كما كان يمكن توقع ذلك ، المعرفة العفوية أو المتبلورة في عقيدة ، لأنه في مجتمع معقد قليل التوحد ومنقسم بفعل كثرة السلاسل التراتبية وكثرة التجمعات والأنظمة ، يصبح الوجود الاجتماعي للوحدات الجماعية وأعضائها ، النحن والآخرين مستحيلاً بدون المعرفة السياسية ، ويصبح معرضاً للتحويل إلى حرب الجميع ضد الجميع . إن المعرفة السياسية تفرض نفسها داخل السلاسل التراتبية الخمس كلاً على حدة ؛ فهي بالطبع ترتدي طابعاً مختلفاً في كل منها . إن استراتيجية العلاقات بين الإقطاعيين والموالي ، بين السادة والفلاحين ، بين الملك وأنداده ، بين السلطات الكنسية المختلفة المراتب ، وبين المدن المتحررة ، وكذلك بين تجمعاتها النقابية الداخلية الخ . هي استراتيجية بالغة التنوع وتبدل في كل حال ، كما يختلف تكتيك العلاقات بين مختلف مراتب الفرسان والهيئات الدينية ، وحتى داخل كل رهبنة .

إن هذه المعرفة السياسية العفوية ، القريبة جداً من معرفة الحس السليم في بعض الأحيان ، والمختلفة عنها بطابعها المعقد (الاحتفالات ، أصول اللياقة ، سمات الاحترام وفقاً للمكانة الاجتماعية والمرتبة ، الطقوس ، الخ .) ، إنما تمتاز بكل وضوح عن العلم السياسي الموضوع في عقيدة غالباً ما يكون مثالها - غايتها المنشودة - على علاقات معقدة مع الوسائل التكتيكية أو الاستراتيجية التي يستنسب استعمالها . هنا تتعارض عقائد مختلفة : العقائد التي تدافع عن قضية الكنيسة بدفعها نحو دولة ثيوقراطية ، والعقائد الخاصة بمشرعي بولونيا Bologne الدين ييشرون بسيادة الدولة الاقليمية ؛ وأخيراً العقائد التي تدعوا لفدرالية متوطدة بين المدن المتحررة التي صارت مستقلة تماماً .

أما بخصوص أشكال العلم المتميزة داخل المعرفة السياسية ، العفوية أو المتبلورة في عقيدة ، فإن ما يدهشنا في النظام الإقطاعي هو الهيمنة الواضحة للأشكال العقلانية ، الوضعية ، التجريبية والجماعية على أضدادها . فهنا لا تظهر العناصر الصوفية التأملية ، الرمزية ، المدركية والفردية ، إلا في بعض العقائد السياسية ، ذات الصلة بالكنيسة أو بأحد مراتبها ، أو بهرطقة معينة .

٣ . في هذا النظام المعرفي ، تعود المرتبة الثالثة لمعرفة الحس السليم . فهذه منتشرة في كل المراتب ، في كل الأوساط ، كل الجماعات بما فيها طبعاً العائلات المنزلية ، وفقاً لعدد الأيمن إليها ، وهي غالباً ما تقتصر بالمعرفة السياسية العفوية وبالمعرفة التقنية ، وفي المقابل ، عندما تظهر معرفة الحس السليم داخل نقابات منظمة ، ترتدي عموماً طابع « العصبية » المنتشرة جداً في القرون الوسطى .

إن الأشكال المبرزة في هذا النوع المعرفي هي بالأحرى الأشكال التجريبية ، الوضعية ، والجماعية . وهي رمزية أكثر منها تناسبية ، وتميل إلى شيء من التوازن بين الصوفي والعقلاني ، مع التشديد على هذا الأخير .

٤ . من المناسب وضع معرفة الآخر والنحن في المقام الرابع . فمن جهة ، تسهل كثرة التجمعات الضيقة ، التي يعيش أعضاؤها في أجواء حميمة (بلاط الإقطاعيين والمطارنة ، مراتب الفرسان ، الأديرة ، نقابات المهن ، الزمالة ، جمعيات المتعلمين ، حتى لا نذكر سوى بعض الأمثلة) المعرفة المتبادلة بين المشاركين الفريدين . ومن جهة ثانية ، يبدو أن الوفاء ، الإخلاص ، التجرد ، الفضائل الأخلاقية الرفيعة المثال . تقود كلها في نفس الاتجاه وتشجع معرفة الآخرين الملموسين والنحن ، على الأقل في تجلياتهم المخفوضة إلى « التماثل » . بيد أن معرفة الآخر تجدد في البنية الإقطاعية عقبات خطيرة تحول دون تحقيقها . وإحدى العقبتين الرئيسيتين تكمن في كون السلاسل التراتبية تدعو ممثلي المراتب العليا إلى رفض اعتبار القن أو حتى المزارع الفقير كـ « آخر » ؛ عندئذٍ تمتنع كل معرفة . سواء من جهة الحاجز هذه

او تلك، وتكمن العقبة الثانية في كون المركزين الرئيسين للمعرفة ؛ الكنيسة العالمية من جهة ، والمدن المتحررة لا تشجع إطلاقاً - وبصفتها هذه - على معرفة الآخر . يُضاف إلى ذلك غياب الدولة الإقليمية التي لا تستطيع ، حتى عندما تستيقظ من غفوتها لكي تتفاوض أو تتحالف مع المدن المتحررة ، أن تظهر كجماعة أو كوسيط مؤاتٍ لمعرفة الآخر . ومن جهة ثانية ، تهيمن الجماهير في الكنيسة ، في المدن الحرة وفي الدولة ، هيمنة عادية على المتحدات والجماعيات ، والحال ، فإن الجماهير تمثل النحن الأقل مؤاتاة لمعرفة الآخر ، لمعرفة نفسها .

لكن إذا كانت كثرة التجمعات الضيقة تدعو إلى هذه المعرفة ، فإنها تجد نفسها أمام عقبات قوية في البنية الاجتماعية . ولكن عندما تؤكد نفسها وفقاً لطابع التجمعات الضيقة ، يتدامج الشكللان الصوفي والعقلاني ، والشكلان الرمزي والتناسبي ، بينما تتغلب الأشكال التجريبية والوضعية والفردية على أصدادها .

٥ . يجب أن نضع في المرتبة الخامسة من هذا النظام المعرفي ، المعرفة التقنية الأكثر تطوراً مما يمكن الظن ، وهذا يصحح على الأرياف حيث أدى استعمال الحصان والطواحين المائية والهوائية إلى إطلاق قوى محرك جديدة . فقد اغتنت التقنيات العسكرية قبل نهاية القرون الوسطى بالأسلحة النارية ؛ وجرى اختراع ساعة الحائط في الأديرة (لا سيما عن البنديكيتين) . ولقد أدخلت هذه الميكانيكيات الأولى ثورة حقيقية في قياس الزمان ، بجعله أيسر مثلاً على فئات واسعة من السكان . وفي المدن ، شجعت اتحادات التجار على نمو الملاحة ؛ والصناعة اليدوية ، المنتظمة في نقابات ، يعود ازدهارها جزئياً إلى استعمال تقنيات جديدة . أخيراً تعمقت المعرفة التقنية وأغنت كثيراً في مجال العمارة (الكاتدرائيات والقلاع) وفي ميدان الفن الديني .

إلا أن هذا الإزدهار للمعرفة التقنية ، البارز في المجتمع الإقطاعي ، أصيب بنكسة ذات وجهين : أولهما انعدام الاهتمام بالمعرفة الإدراكية للعالم

الخارجي التي أعطت لهذه المجتمعات طابعاً باطنياً أكثر منه ظاهرياً ؛ وهذا الأمر يغدو مثيراً أكثر عندما نقارنها بالخواضر - الدول القديمة ؛ وثانيهما انعدام الرابط بين المعرفة التقنية والمعرفة العلمية ذات المستوى المنخفض جداً . وسوف نعالج هاتين العقبتين عندما سنتناول وضع المعرفة العلمية في النظام المعرفي الإقطاعي .

فلنشر أولاً إلى بروز الأشكال في المعرفة التقنية ، فهي متميزة بطابعها العقلاني ، التجريبي ، الوضعي ، التناسبي ، وأخيراً باقتران الجماعي والفردى . ومن شأن أشكال علمية كهذه أن تفسح المجال للإفترض بأن الأمر يتعلق بمجتمع أكثر تطوراً على الصعيد التقني لما كان عليه المجتمع الإقطاعي ! وهذا يظهر جيداً أن المعرفة التقنية كان يمكنها في المجتمع الإقطاعي أن تحظى بفرص كبيرة للتقدم إذا لم تصادف عقبات في بنية هذا المجتمع بالذات .

٦ . لا تحتل المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي إلا المرتبة السادسة . وتعتبر دونية مرتبتها خاصة من خواص المجتمع الإقطاعي الذي يتعارض نظام معارفه هنا تعارضاً مثيراً مع نظام الخواضر - الدول . فيظهر العالم الخارجي قليلاً جداً في علم هذا المجتمع ، على الأقل في علمه المصنوع الذي سيتوجب على النهضة أن تكتشفه مجدداً باللجوء إلى التراث الكلاسيكي .

أن كبت المعرفة الإدراكية للميادين التي وضع فيها العالم الخارجي ، يظهر بكل وضوح من خلال غياب الأفق في الفن ، وحتى من خلال تصور القرى والمدن الصغيرة وحتى المدن الواسعة النطاق ، المنكمشة على نفسها ، وأخيراً من خلال الطريقة التوهمية التي جرى بواسطتها تحيل الكون والأرض ، وحتى في القول الشائع « كل الدروب تؤدي إلى روما » .

يقع العالم الخارجي في ميادين غريبة وأنوية شبه إسقاطية ، وفي الوقت نفسه يهيمن المكان ذو المركز المشترك هيمنة بيّنة على الميادين التي تنبسط وتنقبض وهنا يقترن المركزي بالميادين الواسعة .

وبهذا الصدد . لا شك في أن الميادين المنظورة والمعروفة في المجتمع الإقطاعي توجد في حالة نزاع مع الأزمنة الاجتماعية والكونية التي يعيها المجتمع . ويمكننا الافتراض أن التفريق بين Aeternitas, Aevum tempus الذي وضعه اللاهوت الكاثوليكي ، يقع في مقام أكثر تقدماً من معرفة الأماكن التي يعتبرها أوسع فئات السكان معرفة متصلة بالغوايات الدنيوية . ومن بين الأزمنة التي تعتبر الكنيسة مركزاً لها ، يتطابق الزمن الدوري للطقوس والأعياد الدينية (زمن « الرقص في المكان نفسه ») مع الأماكن التي يعرفها الأميون لكنه لا يملك سلطة لتوسيعها .

صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية ، الأكليروس فيها على الأقل - تبدو أكثر انفتاحاً من الناس العاديين على المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . فبنظرها كانت الميادين ذات صلة بانتشارها ومع صلاح معتقداتها وطقوسها ورموزها ، ومع آفاق تنصر الكافرين ، الذي كانت تحققة الكنيسة أما بالأسلحة وأما بالوسائل السلمية .

وأكثر من الكنائس بكثير ، كانت المدن المتحررة واتحاداتها وتجارها الدولية ، الخ . ترد على الطابع الإنكماشى للمجتمعات الإقطاعية . فالمجتمعات التجارية في المدن الحرة حين طورت الملاحة استثمرت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ورفعت من مقامها . وإذا كانت حركة التجدد التي سارت في اتجاه معاكس للنظام المعرفي الإقطاعي - النهضة - قد وجدت في المدن الحرة أفضل سند لها ، فهذا ليس مصادفة أبداً . وبالتالي كانت تطلعاتها وعلمها يسيران في اتجاه مغاير لكل النظام المقصود .

وعندما استطاعت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي إن تبلغ مستوى رفيعاً على الرغم من العقبات ، برزت فيها الأشكال العقلانية ، التجريبية ، الوضعية ، التناسبية ، وتكامل الشكلاان الجماعي والفردى .

لنفسها الأسواق الإستعمارية بكل معنى الكلمة ، وكذلك أسواق البلدان المتأخرة على الصعيد التقني .

آن الأوان الآن ، لطرح المسألة التي تهمنا في المقام الأول : ما هو النظام المعرفي الذي يتطابق مع النمط البنيوي والمجتمعي الديمقراطي - الليبرالي ؟ هذه المسألة تؤدي بدورها إلى مسألة أخرى متممة لها بشكل ما : ما الأثر الذي يمارسه النظام المعرفي المقصود على إطار الاجتماعي الشامل ؟

إن السمة المعرفية التي تبدولنا على الفور الأكثر دهشة هنا ، هي التراجع الملحوظ جداً على صعيد العلم الفلسفي ليس فقط بالنسبة إلى المعرفة العلمية ، المزدهرة تماماً ، التي رأيناها تنافسه في المجتمع وبنية بداية الرأسمالية ، بل أيضاً بالنسبة إلى المعرفة التقنية والعلم السياسي ، وأخيراً بالنسبة إلى المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . وهكذا وصلنا إلى الملاحظة بأن انحطاط الفلسفة بدأ مع الرأسمالية التنافسية المتطورة التي سندرس نظامها المعرفي . سيمتد هذا الانحطاط ويتشدد في عدة أنماط أخرى من المجتمعات والبنى التي تنوي تحليلها : الرأسمالية المنظمة ، الفاشية التكنوقراطية والجماعية المركزية . وأن ملاحظة كهذه تحمل بذاتها السؤال التالي : في أي غط بنيوي ومجتمعي يكون للعلم الفلسفي فرصة ما للقيام من رماده ، ليحتل مجدداً مرتبة هامة في النظام المعرفي ؟ سنحاول الرد على هذا السؤال في ختام هذا الكتاب .

أ) لا ريب أن المعرفة العلمية تحتل المكانة الأولى في المجتمعات الديمقراطية الحرة . وما لا شك فيه أن الأولوية هنا تعود للعلوم الطبيعية والعلوم الصحيحة . بيد أن « علوم الإنسان » التي ينبغي الآن إدخال علم الاجتماع في نطاقها ، بدأت هي الأخرى تنطلق انطلاقة فاعلة .

إن ارتقاء المعرفة العلمية إلى المرتبة الأولى يتأكد بعدة طرق . فتد

الصوفية التأملية ، المدركة الرمزية والفردية أخيراً في المعرفة العلمية المتميزة بين الأنواع المعرفية المكونة للنظام المعرفي الإقطاعي . وهذا يفسر لماذا اعتبرت الكنيسة ومؤسساتها التعليمية - الجامعات ، الرهبانات ، الأديرة - والبلديات والنقابات المهنية ، دون الكلام عن فئات واسعة من السكان ، أن «العلماء» الذين يتعاطون العلوم كأشخاص مشبوهين ، متهمين بالهرطقة ، أو كسحرة جدد (بدائل لـ « السحرة » في المجتمعات القديمة) .

لقد أشرنا سابقاً إلى انعدام كل اتصال بين المعرفة العلمية والمعرفة التقنية . ولنصف أن مجرد التفكير بأن العلوم قد تستطيع أن تزيد من سلطان البشر ، الجماعات ، المجتمعات على الطبيعة ، على الواقع الاجتماعي أو على الناس الآخرين ، لم يكن يراود العقول ، فلا مناص من انتظار النهضة ولا سيما Novum Organum لفرنسيس باكون (1620) لنرى هذه الفكر تنبثق وتعيد تقويم المعرفة العلمية .

في الختام ، لنشدد على الدور البالغ الأهمية الذي اضطلع به الأكليروس ، المعلمون وغير المعلمين ، ورهبانهم وجامعاتهم ، على الرغم من وجودها في المدن الحرة ، وأخيراً دور الأديرة في الحفاظ على المعرفة مع معظم أنواعها الموضوعية (ما خلا العلوم) ، ونشرها وتطويرها . وبالتالي فإن رجال الكنيسة بوجه خاص هم الذين شكلوا جماعة المثقفين أو « الحكماء » ، ورثة اسرار العلم . وبعد ذلك مارس علماء اللاهوت هيمنتهم عليها بكل وضوح ، ومن المشكوك فيه أن يكون ممثلو المعرفة العلمية (بدءاً من السيميائيين الذين يحميمهم الأسياد الأقوياء) مقبولين في هذه الجماعة ، ولو على سبيل الاستثناء . ومهما يكن الأمر ، فإن المعرفة في هذا النمط من المجتمعات ، لها مدافعون عنها ، منتظمون جيداً ، قادرون على الإسهام في تقدمها وفي تأخرها على السواء .

الفصل السابع

النظام المعرفي في المجتمعات الشمولية المولدة للرأسمالية

على الرغم من بعض المزايا التي من شأنها تذكيرنا بالحواضر القديمة المتحولة امبراطوريات ، فإن هذا النمط المجتمعي يمتاز عنها جذرياً . فبداية استعمال الآلة ، والمراحل الأولى من التصنيع ، وتحويل العمل إلى سلعة ، وظهور الطبقات الاجتماعية بكل معنى الكلمة ، وانخفاض معين في التفاوت بين البنية الجامعة والظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة ، تميز هذا النمط المجتمعي بطابع خاص جداً ، وهذا النمط يرتبط بدوره بالدولة المنبعثة ، وبالتالي ، نهضت الدولة من رقدها بسبب هذا التحالف ، وارتدت شكل الملكية المطلقة ، وهي تسهم إسهاماً ناشطاً في تطوير الرأسمالية الناشئة ، وتظهر ميلاً ملحوظاً إلى تصور المسائل السياسية من زاويتها الاقتصادية . والأرجح أنه لهذا السبب غالباً ما كان التنظيم السياسي لهذا المجتمع يتميز لدى المؤرخين والاقتصاديين بصفة « الاستبداد المنور » . ويتطابق في أوروبا الغربية القرنان السابع عشر والثامن عشر مع هذا النمط المجتمعي ، الذي كان قد بدأت بواكيره في مجرى النصف الثاني من القرن السادس عشر ، لا سيما في بريطانيا .

في بناء هذا المجتمع الشامل ، كانت الدولة الإقليمية الملكية الواسعة النطاق التي تنسب للملك سلطة مطلقة ، قد أقامت التحالف بين بورجوازية المدن و « نبلاء الثوب » ، وهيمنت على الكنيسة ، ونبلاء السيف والأكليروس

و« عامة الناس » ، على الفلاحين والشييع الدينية والسياسية ، كما هيمنت على المشاريع الاقتصادية ، الصناعية وأحياناً التجارية ذات النوع الجديد على الأقل فيما يتعلق بوظائفها واتساعها . إنها منشآت ومشاريع أحييتها الدولة وشجعته (لا سيما في فرنسا حيث أخذت « المانيفاكتورات » تنافس الحرف اليدوية والمهن القديمة) . كذلك سيطرت الدولة على العمال المجتمعين في المانيفاكتورات والمصانع . وكان أولئك العمال يؤخذون من بين العناصر الأقل حظوة بين سكان المدن والأرياف حيث كانت تجاوزات الأسياد الإقطاعيين والبؤس تكره الفلاحين أحياناً على ترك حقولهم ليصبحوا عمالاً . وكانت الدولة تساند العامة البورجوازيين ، والرأسماليين الصناعيين ، التجار العالمين . وبشكل خاص أصحاب المصارف (الذين استغنوا مع اكتشاف العالم الجديد ، فصاروا دائنيه) ضد نبلاء السيف والعمال والفلاحين . وهكذا كانت الدولة ذاتها تدفع إلى استبدال المراتب القديمة - التي لم تنقطع الدولة عن الاعتراف بها - بمراتب جديدة . في البداية ، كانت الدولة تمسك بالطبقات الاجتماعية (على الأقل مثلما تمسك بـ « الهيئات » الرسمية) وتنظر للتصنيع (الذي ظهر تقدمه مدهشاً على صعيد التعدين والمنسوجات بخاصة) ولا ارتقاء الرأسمالية ، بوصفها وسائل لتعزيز نفوذها بالذات ، النفوذ السياسي والعسكري ، المالي والإقتصادي على سواء . ولكنها ستضطلع قريباً بدور متعلم السحر ، وبدلاً من هيمنتها على الطبقات الاجتماعية ستجد نفسها تحت هيمنتها .

في هذا النمط البنيوي أخذت النماذج التقنية والاقتصادية المكتملة دون انقطاع ، ترتدي أهمية كبيرة ، إلا أن الاختراعات وتطبيقاتها لم تسر على نفس خط التقدم المنتظم ، وكان تنظيم الاقتصاد (نظراً لآثار النقابات) والحركة السكانية متأخرين عن التقنيات . ومن جهة ثانية كانت الظاهرة الاجتماعية الكلية الشاملة - التي تباطأ نموها بسبب « الحالات » غير المنتجة وأحوال الأرياف التي لا تتحرك إلا تحت تأثير المدن والدولة - تضغط على قوة

التنمية التقنية والصناعية .

فلنحاول رسم صورة موجزة عن هذا النمط من البناء الاجتماعي الشامل .

أ . تهيمن الدولة الإقليمية الملكية في كل الميادين على التجمعات الأخرى التي كانت مع ذلك تملك من القوة والفعالية أكثر مما كانت تملك في الحاضرة القديمة . وصار تقسيم الطبقات الاجتماعية الناشئة يتعارض ، وهو ينافس ويهز من الداخل ، مع المراتب الرسمية للهيئات القائمة : النبلاء ، الأكليروس ، العامة ، الفلاحين (الملاكين - المزارعين ، المزارعين ، المؤكرين ، المأجورين المنزلين ، كل الدافعين ضرائب للإقطاعيين : الأعشار والخصص) إلى مراتب النبلاء وشتى المناصب (التي يشتري بعضها) المتداخلة مع نبلاء الثوب ، وصولاً إلى بقية الهيئات المهنية والزمالات والجماعات الحرفية الخ . وفي نهاية المطاف ، صارت المنشآت الاقتصادية الجديدة الواسعة النطاق ، والمانيفاكتورات والمعامل وشركات التجارة البحرية والمصارف المؤيدة من الملكية . صارت كلها معادية للملكية ، فلا تؤيد سياستها الحربية ولا الحفاظ على امتيازات النبلاء . أخيراً بدأت التجمعات التقليدية ، كالكنيسة من جهة والعائلة الزوجية - المنزلية من جهة ثانية تفقد أهميتها على الرغم من مقاومتها .

ب) على الصعيد الميكروإجتماعي ، تسود بين النحس الجماهير السلبية . أن سياسة التسوية الاجتماعية مع تدفق السكان إلى المدن الكبرى ، مع تفكك البنية الإقطاعية ، تخلق في الواقع ظروفاً مؤاتية لبروز الجماهير ، وبالإجمال ، كانت الإنصهارات الجزئية تجدد نفسها محدودة جداً بالنمو الكبير للعلاقات مع الآخرين الناشطين والعلاقات بين الأفراد والجماعات ؛ وهذه الظروف تشجع كل نوع من المبادلات والعقود ، التي اصطدم ازدهارها الكبير بآثار الامتيازات والحواجز بين المراتب والهيئات النقابية ، وبدخل الإستبداد المطلق « المتنور » في الحياة الاقتصادية .

ج) نجد هنا نوعين من النماذج المتماهية مع القواعد الحقوقية والأنماط التقنية ، في وضع تعادلي على رأس المراتب المعمقة للواقع الاجتماعي . والنموذجان مبتكران . فالنماذج التقنية ، الناشئة في المانيفاكتورات ، تمثل جانباً بالغ الأهمية من الانقلاب الحديث في الحياة الاقتصادية . والتنظيم الحقوقي الدقيق والثاقب ، المنبثق من فوق ، يقاتل العادات والممارسات البالية ، ثم تأتي القاعدة المورفولوجية - الديمغرافية التي تزداد أهميتها بازدياد الحاجة إلى اليد العاملة ومسألة توفيرها . والمكانة الثالثة تعود إلى الأجهزة المنظمة من كل نوع ، الأجهزة التي بدأت بيروقراطيتها بالظهور ، وأخيراً ، تشجع الرموز والأفكار والقيم المتزايدة التجدد والتعقلن ، تشجع المبادرات النازعة إلى الهيمنة على الطبيعة والمجتمع .

هـ) أن الإندفاع الكبرى لتقسيم العمل التقني ، المقرون باستخدام الآلة ، تؤدي إلى إنتاجية لا مثيل لها من حيث الكم والنوع . فقد تخطى التقسيم التقني للعمل التقسيم الاجتماعي للعمل تحطياً كبيراً . وأن تراكم الثروات ، المتصاعد باكتشاف العالم الجديد ، يبلغ في رده من الزمن احكاماً تزيد من التناقضات الصارخة بين الفقر والغنى .

و) في هرم التنظيمات الاجتماعية تنافس المعرفة والحقوق لاحتلال المرتبة الأولى . وتدخل المعرفتان العلمية والتقنية في تنافس مع المعرفة الفلسفية ، وتكرهان هذه الأخيرة على اعتبار الوضع الجديد الذي سنتناوله بتحليل مفصل قريب ، فالحقوق هي تشريعية تفضيلاً أو مستندة إلى توصيات ومقررات ملكية . وتأتي التربية في المقام الثاني وتأخذ بالتححرر من ربة الكنيسة ، ثم تأتي الأخلاق والفن والدين .

و) نشهد في منظومة الأعمال الحضارية انتصار الطبيعي على ما فوق الطبيعي ، انتصار العقل على الظن والاعتقاد ، ونشهد تطور الفردانية في كل المجالات ، وميلاد فكرة « تقدم الوعي » . إن الحضارة والذهنية الخاصيتين بهذا المجتمع الشامل في لحظة بلوغه ذروته ، تجدان تعبيرهما الأكمل في « عصر

الأنوار» . وهذا العصر يجعل الإنسان واثقاً من نجاحه ونجاح مشاريعه التقنية والصناعية . إن الطبيعي والعقلاني يحبطان ما فوق الطبيعي على مراحل ، فلا يعترفان له إلا بنطاق محدد بدقة ومضبوط ، ويعتبرانه اما محصوراً بالنية السدائية للفرد (البروتستانتية) واما ملحقاً بالحياة القسومية (الغاليكانية) . ولقد سبق لمفكرين ، متقدمين على هذا العصر ، أن افصحوا بلهجات وتدقيقات وملاحظات مختلفة عن المنزع الفكري نفسه ، من فرانسيس باكون ، رابليه ، مونتيني ، ديكرات ، إلى هوبس ، لوك ، سبينوزا ، مونتسكيو ، فولتير ، روسو ، كوندياك ، ديدرو ، دالمير ، دولباخ أو كوندورسيه . . . وتعتبر الأنسكلوبيديا ، التي تحمل عنواناً فرعياً مميزاً Dictionnaire raisonné des sciences , des arts et des métiers هي التعبير الأمثل عن هذه الحركة .

أصبحنا الآن قادرين على البدء برسم صورة للنظام المعرفي المقابل لهذا النمط البنيوي والمجتمعي الشامل .

أ) المرتبة الأولى تتقاسمها المعرفة الفلسفية والمعرفة العلمية . فهما متنافستان في بعض الجوانب ، ومتكاملتان في البعض الآخر ، إلا أنه من المحتمل أن يكون العلم الفلسفي لا يزال نازعاً إلى تحطيم منافسه ، شرط الاستناد إلى اكتشافات العلم الذي ازدهر منذ عصر النهضة ازدهاراً عظيماً ، فبعد الإنقلاب الذي قام به كوبرنيك (1473 — 1543) وكبلر (1571 — 1630) وغاليله (1564 — 1642) على صعيد المعارف الفلكية ، ابتكر نيوتن (1643 — 1727) للحساب المتناهي الصغر ، مثلما ابتكره ليبنتز (1646 — 1716) في الوقت نفسه وبشكل آخر ، وكلاهما مؤسس للميكانيك الحديث . ومع لافوازييه (1743 — 1794) نشأت الكيمياء الحديثة ؛ ونشأت الفيزيولوجيا مع بريستي (1733 — 1804) ، وخلفه بيشا Bichat والدكتور بوردان وسواهما الكثير في فرنسا . وتطورت علوم الإنسان

منقسمة إلى عدة فروع : فقد أسس سميث وريكاردو علم الإقتصاد ، كما أسسه الفيزيوقراطيون بصورة أخرى ؛ وتوطدت العلوم السياسية مع هوبس ، سبينوزا ، لوك ، مونتسكيو ، روسو ، الموسويون ، كوندورسيه وديستوت دي تراسي Destut de Tracy ولقد شعر بعضهم ، لا سيما مونتسكيو ، بحلول علم الاجتماع .

تسارع نمو المعرفة العلمية مع إصلاح التعليم الذي صار علمانياً أكثر فأكثر . فبعد الحركة البدائية عام 1529 مع تأسيس الكوليج دي فرانس ، لمنافسة السوربون ، جاءت مكملته وموسعة لهذه الحركة ، الأكاديميات التي تأسست في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والجمعية الملكية للعلوم Royal Society of science ، ومدرسة المناجم ، فمدرسة الجسور والطرق ، ومدرسة المدفعية الخ . . تسير في نفس الاتجاه ، وتسعى بذلك لتحرير التعليم من طابعه المدرسي والبياني .

إن ترقى المعرفة العلمية يثير الدهشة عندما نتذكر على نحو أفضل العقبات التي أبطأت نحوه خلال القرون الوسطى . فكل الفلاسفة الكبار ، حتى الذين يسجلون تحفظات مثل باسكال ومالبرانش ، يأخذون موقفاً في المساجلات العلمية التي كانت تحفز فكرهم ، وأن علمنة العلم الفلسفي ، المستقل من الآن فصاعداً أكثر فأكثر عن اللاهوت ، إنما تشجع نزوعهم إلى جعلهم العلوم أساساً لتأملاتهم ، غير أن هذين النوعين من المعرفة لا يوجدان في نفس الموقع بالنسبة إلى بعضهما البعض ، لأن المعرفة الفلسفية إذا كانت تنزع إلى جعل المعرفة العلمية الموضوع الأساسي لتأملاتها ، فإن معظم العلماء كانوا يظهرون اهتماماً قليلاً بالعلم الفلسفي كعلم ، ومن المتفق عليه الاعتراف بأنه إذا كان من الممكن للمرء أن يكون عالماً دون أن يكون فيلسوفاً ، فإن فلسفة تهمل في المقابل المعرفة العلمية ، لا تستحق أن تؤخذ بالاعتبار ، بيد أن المعرفة الفلسفية لم تفقد ، مع ذلك ، نفوذها ، أولاً لأنها الأحسن موقعاً للدفاع عن العلم مقابل اللاهوت ، وثانياً لأن الفلاسفة أنفسهم هم الذين

يطرحون ، غالباً ، الفرضيات العلمية حقاً . ومثال ذلك ديكارت وليبنيتز .

وفيما يختص ببروز أشكال المعرفي ، يمتاز العلم الفلسفي هنا (مع دقائق مختلفة) بهيمنة العقلاني على الصوفي (ما خلا استثناءات قليلة ، منها : باسكال ، مالبرانش إلى حد ما ، وسبينوزا - هذا المتصوف العقلاني) ، وهيمنة الأنسب على الرمزي ، واقتران المدركي بالتجريبي ، التأمل بالوضعي ، وأخيراً هيمنة الشكل الفردي على الشكل الجماعي - المتراجع هنا كثيراً .

يعتبر بروز العقلاني في المعرفة العلمية أمراً فريداً ؛ فالمدركي يهيمن على التجريبي ، ويكون الشكل الجماعي مزدهراً ؛ ومن جهة ثانية ، ينزع الشكلان الوضعي والتأملي ، وكذلك الشكلان الرمزي والتناسبي إلى التوازن .

ب (تعود المرتبة الثانية في هذا النظام المعرفي إلى المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . وتأتي بعدها تماماً المعرفة التقنية ، دون ان تبلغ مع ذلك مستوى رفيعاً مثلها . وتعود سرعة ارتقاء المعرفة الإدراكية إلى ابتكار وسائل اتصال جديدة . إن اكتشاف العالم الجديد واتساع التجارة على الصعيد العالمي ، المترتب على ذلك الاكتشاف ، إنما يتضمنان معرفة المحيطات والقارات المجهولة حتى ذلك الحين . وأن توسيع وتحسين الطرقات في البلدان الغربية ، وعربات الجياد المتزايدة الأعداد ، سمحت باتصالات أسرع نسبياً .

وتبدو أكثر أهمية الإدراكات الجديدة وصياغة المدارك عن الأماكن والأزمنة التي يقع العالم الخارجي في نطاقها ، فالأماكن ، المتحررة من طابعها الغيري والمركزي المشترك ، صارت في آن واحد أماكن إسقاطية ومستقبلية . فهي إذ تنبسط وتنقبض دوغماً صعوبة ، تسلط الضوء على جانبها اللامتناهي

وتبدأ بتخطي الحدود المرسومة لمجتمع خاص . وفي الأزمنة التي يتحرك فيها هذا المجتمع ، يكون التنافس بين الزمان المتقدم على ذاته والزمان المتأخر ، المتقابلين مع بنية تجددية ولا زمنية في آن ، معلناً لزمان يسرع ماضيه وحاضره ومستقبله للدخول في الصراع ، وهذا الوضع انفجاري في النهاية ويعود بالفائدة على هيمنة المستقبل . يضاف إلى ذلك أنه ينبغي اعتبار الزمان المفاجيء الذي يهدد بتفجير التنظيمات السطحية القوية . ويفسر هذا الوضع مقارنة الزمان حيث تتطور الظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة وراء هذه البنية : أنه زمان متقدم جزئياً ومتأخر جزئياً بالنسبة إلى البنية . لأن معرفة العالم الخارجي ، الحياة الاقتصادية ، التقنيات الصناعية ، التجارة الدولية ، العلم الفلسفي ، البورجوازية وأيديولوجيتها ، إذا كانت متقدمة جوهرياً ، فإن طبقة النبلاء ، الأكليروس ، الحياة الزراعية طبقة الفلاحين كانت متأخرة ، أن انفجار « النظام القديم » المدهش أكثر من الثورات الأنكليزية والهولندية أو من الحروب الدينية والأهلية (ومنها الحرب لأجل استقلال الولايات المتحدة) ، لن يمحي أبداً من الذاكرة الجماعية للمجتمعات التالية وسوف يؤدي إلى سلسلة انماط رأسمالية أولاً ، وجماعية ثانية . والزمان المركب الذي يعيشه المجتمع الذي نصفه ، يجد نفسه مسغطاً على العالم الخارجي ، الغني بإمكانات مجهولة وجديدة غنى الأزمنة والأمكنة التي يقع فيها .

وتغدو هذه الأزمنة وهذه الأمكنة قابلة للقياس الفعلي ، جزئياً على الأقل . فمن لا يعرف القول الشهير للطبقة البورجوازية حين وعت وجودها : « Time is money » ويمكننا أن نضيف قولاً آخر : « كل الدروب تؤدي إلى الذهب أو إلى الفضة على الأقل » . فلا تقوّم الأمكنة بوسيلة النظام القياسي وإنما تقوم بالوقت اللازم لاجتيازها ، إن العالم الخارجي بقدر ما يأخذ مكانته في مكان وزمان كميين ، من كل جوانبه ، يغدو موضوعاً لدراسة علمية . ومن هذه الزاوية تتصل المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي بالعلم الفلسفي . وهذا الأمر هو الذي يفضي إلى إبراز مميزات لمكانة هذين النوعين

المعرفيين في النظام المعرفي للمجتمع الذي ندرسه أكثر من مكانتهما في كثير من المجتمعات الأخرى . أن المعرفة العلمية تستعد فيه لقفزة ستجعلها في المرحلة التالية من مراحل الرأسالية ، ترقى إلى المرتبة الأولى .

هنا ، بروز أشكال المعرفة هوذاته كما في حال المعرفة العلمية ، مع هذه المفارقة وهي أن الشكّلين التجريبي والجماعي بارزان بشكل قوي جداً .

ج) في المرتبة الثالثة من هذا النظام تقع المعرفة التقنية التي حققت قفزة كبيرة ، لا سيما في الصناعة والملاحة والفرن العسكري ، ولكن اكتمال المعرفة التقنية في كل هذه المجالات ذو علاقة مباشرة ليس بمكتسبات العلم ، وإنما بتحسينات تطبيقية وعملية كما لاحظ ذلك آدم سميث وكارل ماركس على حد سواء . ففي المجالات الكلاسيكية للمنسوجات والتعدين ، كان هذا المسار ملحوظاً على الخصوص في إنكلترا . وكذلك الأمر بالنسبة إلى الغزل والنسيج اللذين انتقلا من المشغل المنزلي الصغير إلى المانيفاكتورة ، فخلّق تقسيم العمل التقني ظروفاً مناسبة لاختراع آلات الحياكة كما صمّمها J. Wyatt عام 1738 والتي ستخرج منها فيما بعد الآلة الشهيرة « Mule — Jeuny » . ولكن عندما تمكن Cartwright عام 1785 إلى مساوقة حركات النسيج والحياكة في آلة واحدة ، عندها فقط صارت صناعة النسيج من أكمل الصناعات ، كذلك على صعيد التعدين (الحديد والفحم الحجري) ، كان لا بد من قرون لأجل اقتران مناجم الحديد والفحم ، ولكن عندما تحقّق ذلك ، أدّى اقترانها بسرعة إلى إنتاج الفولاذ في الأفران العالية . وكذلك انبثقت من السكك الخشبية المستعملة في المناجم لرفع الفحم إلى سطح الأرض ، انبثقت السكك الحديدية التي ستجدد في القرن التاسع عشر وسائل النقل والمواصلات تجديداً كلياً . أخيراً ، كانت الآلة البخارية ، التي كان من روادها الفرنسي دنيّز بابان (1647 — 1714) بحاجة إلى قرن تقريباً حتى تتكامل وتصبح بفضل واط عام 1769 صالحة للاستعمال في المانيفاكتورات .

إذن كان كارل ماركس على حق عندما شدد ، في الجزء الأول من رأس

المال (الباب الرابع ، الفصلين الرابع عشر والخامس عشر) على واقع أن الابتكارات التقنية ليست هي التي أدت إلى فيض المانيفاكتورات ، وإنما بالعكس تماماً أن تقسيم العمل التقني في المانيفاكتورات الكبرى المتزايدة الأعداد ، هو الذي خلق الحاجة إلى تقنيات آلية وأدى إلى إدخال الآلات . كتب قائلاً : « إن المشغل ، هذا النتاج للتقسيم المانيفاكتوري للعمل ، هو الذي أنجب الآلات » . يضاف إلى ذلك أن ظهور الآلات استثار صناعة جديدة ، صنع الآلات ذاتها ، وأن ما نعرفه عن التقنيات الصناعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، يؤكد هذا القول الذي يمكن أيضاً تطبيقه على تقنيات الحرب ، لأن قولة الجيوش أو ثمذجتها وإعادة تنظيمها هي التي أدت إلى ابتكار اسلحة جديدة وإلى تعميمها .

وبالتالي ، نشأ الفن العسكري الجديد . من توحيد جيش تابع للدولة أكثر فأكثر . إن تقديم البزات والتجهيزات المنسجمة ، وتكوين وحدات مؤتلفة ، وتأسيس مخازن للمعيشة ، وثكنات ومستشفيات عسكرية ، إن كل ذلك يعني خلق جسم من المهندسين العسكريين ، ووضع قواعد التكتيك بالذات ؛ وهذا ما أتى عليه كتاب لوفوا Louvois (1639 — 1691) في فرنسا ، وكذلك Vaurban (1633 — 1707) ، هذا المتخصص الكبير في التحصينات ، وبوجه عام بالهندسة العسكرية . وتحت تأثيرهما تطورت المدفعية لتصبح اختصاصاً فرنسياً ما بين القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر . وتعمم في فرنسا استعمال البندقية الفتيلة Le mousquet ، وهي ابتكار ألماني ؛ ثم استبدلت بالبندقية التي تحدث فيها الشرارة من احتكاك صوان بقطعة فولاذ . لقد تبنت ألمانيا هذه البندقية عام 1689 ، وأدخلت إلى فرنسا حيث جرى إكمالها عام 1703 على يدي فوبان الذي أضاف إليها الحربة . ولم ترافق المدفعية الخيالة وتساندها وحسب ، بل دخلت أيضاً في البحرية العسكرية . ومن جهة ثانية ، يعتبر فوبان المحرك الأكبر لتطوير جسم المهندسين العسكريين ، وتلك كانت المحاولة الأولى لمدرسة بوليتكنيك ،

جرى تأسيسها خلال الثورة ، تكوّن الكادر الأرقى من التقنيين الأكثر مهارة في الصناعة ، وتبقى مع ذلك ، ولا تزال حالياً ، مدرسة حربية ، ولقد أثر هذا التطور في التقنية العسكرية بدوره على التعدين والنسيج اللذين وجدا في الجيش المستهلك الأضمن للسلع المتواصلة .

وأما بروز اشكال المعرفة داخل العلم التقني ، فلم تتميز إلا قليلاً عن ميزة المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، إذن لن نعود إلى ذلك .

(د) المعرفة السياسية ، الضمنية والصريحة ، تحتل المكانة الرابعة في هذا النظام المعرفي . ومن الواضح أن المعرفة السياسية الضمنية منتشرة في البلاط بوجه خاص ؛ كما أنها مهيمنة بطابع التنافس بين نبلاء السيف ونبلاء الثوب ، وبين طبقة النبلاء بمجملها والبورجوازية الصاعدة ، والداخلية في عامة الشعب ، وأخيراً بين مختلف شرائح البورجوازية : الصناعية ، التجارية والمالية ، في المقابل ، إن الطبقات الشعبية المثلثة بالعمال في المانيفاكوتورات ، وبالفلاحين ، المتأثرين بتغيرات البنى التي لا يجنون منها أية فائدة ، تجد نفسها محرومة من المعرفة السياسية الفطرية ، فهي لا تعرف كيف تتعاطى مع الأمور المستجدة ، وما هو التكتيك المناسب في وضع غير مؤات لها بمجملة . إن « وعيها الطبقي » و « أيديولوجيتها » لن يبصرا النور إلا في القرن التاسع عشر ، بعد التقلبات الكبرى للثورة الفرنسية .

غير أنه يمكن الإندهاش من رؤيتنا نعزو مكانة متدنية نسبياً للمعرفة السياسية الفطرية لدى التجمعات المتميزة في ظل النظام القديم ، في حين أنها كانت تشكل وسطاً غنياً جداً بالمؤامرات . ولكي ندرك سبب ذلك ، لا بد أن نعتبر أنه في منظور الاستبداد المطلق ، وأن كان متنوراً ، ليس للمنازعات السياسية ، وبالتالي للمعرفة السياسية عند أفراد السرعة مهما ارتفعت مراتبهم ، سوى أهمية ثانوية . وبقدر ما كان النظام القديم مستتباً كان يستلزم سياسة لا تنظر عموماً في أهمية التجمعات ذات المصالح ، مهما تكن امتيازاتها .

إن هذه الجماعات ، لا سيما تلك التي يفتح المستقبل أمامها ، وعلى الأقل الجماعات الأكثر تقدماً وتطوراً ، وجدت تعويضها في وضع « العقائد السياسية » . فتكاثرت آنذاك في انكلترا كما في فرنسا والبلدان المجاورة (هولندا والمانيا) . خلال النهضة في انكلترا مع كتاب اليوتوبيا (1516) لتوماس موروس ، وكتاب Nouvelle Atlantide (الذي ظل ناقصاً) لفرنسيس باكون ، وهما بداية سلسلة الكتابات السياسية . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تطابقت كتابات هوبس ولوك مع تطلعات المورخوآزية الصاعدة التي ستنتصر في نهاية المطاف . وفي فرنسا ، توالى عقائد الفيزيوقراطيين ، والموسوعيين ، وتورغوTurgot وجان جاك روسو التي اثرت منذ البداية وظلت تواصل أثرها خلال الثورة . وكل هذه العقائد تتعلق بالمثال السياسي الأخير مثلما تتعلق بالتكتيك الواجب استعماله لبلوغ المثال . وفي هولندا حمل كتاب سبينوزا Traite Politique (1675 — 1677) بعض آثار فكرة روسو ، وهذا يعدنا لدرس بروز أشكال هذه المعرفة . النظرية والصنعية على السواء .

في الحالة الأولى يندمج الشكل العقلائي مع الشكل التجريبي ، الوضعي مع التأملي ، الرمزي مع التناسبي ، ويتساوى الشكلان الجماعي والفردى . وإما في الحالة الثانية ، الممثلة بالعقائد السياسية ، ففسود الأشكال العقلانية ، المدركة ، والتأملية ؛ وتكون الأشكال الرمزية والفردية أكثر بروزاً وتدقينا من أضدادها . كما أن الأشكال الرمزية ، التأملية ، والمدركة تكون على الدوام بارزة جداً في العقائد السياسية (وفي « الأيديولوجيات » المستوحاة منها) ، وحتى في العقائد الأكثر اتساماً بهاجس العقلانية والتجريبية والموضوعية والتناسبية .

هـ) لا تحل معرفة الحس السليم إلا المرتبة ما قبل الأخيرة . ذلك لأنها في الواقع مضطربة اضطراباً شديداً من جراء الجو الجديد والمفاجيء ، ومن حلول مطلع الرأسمالية واستخدام الآلة . واكتشاف العالم الجديد ، وسياسة

تسوية الملكية المطلقة ، وإضعاف الكنيسة وتوافد جماهير عريضة من السكان إلى المدن ، الخ . وكذلك لأن هذه المعرفة اختبأت بوجه خاص في الحياة الريفية وفي الحلقات الضيقة داخل الأسرة المنزلية - الزوجية ، وكانت من جهة ثانية مبعثرة داخل الأوساط البالغة التنوع ، ومن الواضح أنها ليست هي نفسها لدى البلاطين وممثلي نبلاء السيف ومثلي نبلاء الثوب ، وفي مختلف جماعات البورجوازية ، وفي الجيش المحترف الجديد ، ولدى البحارة ، الخ . وأخيراً لدى العمال المجتمعين في المانيفاكتورات . وربما تكون التناقضات المتزايدة بين شتى المستفيدين من معرفة الحس السليم هي التي ذكرت ديكرت بأن هذه الملكة هي « الأفضل تقاسماً » . لكن هذا الفيلسوف الكبير لا يبحث في هذه الملاحظة فقط عن أسباب مقاومة السعي لإنكار وجود هذا النوع المعرفي بالذات ؟

إن الأشكال البارزة في هذه المعرفة بالغة التنوع بقدر الأوساط التي تشكل إطارات لها . وأن كثرتها تعطينا ، من جهة ثانية ، من دراستها تفصيلاً ، ولنلاحظ فقط أننا نرى فيها تجاور الشكليات الصوفي والعقلاني ، ولا سيما عند الأكليروس والفلاحين .

و (في المرتبة الأخيرة من هذا النظام المعرفي تقع معرفة الآخر والنحن ، من هنا كان تماثل جديد مع الحواضر القديمة المتحولة امبراطوريات . إن تشتت هذه المعرفة في مختلف الأوساط ، ذو علاقة بتجسيد ظواهر الحياة الاجتماعية التي أشرنا إليها كجماهير ، وسياسة تسوية الملكية المطلقة ، وانفكاك التجمعات المتروكة إرثاً من المجتمع الإقطاعي . إن اقتران كل هذه العناصر يشبط كثيراً من معرفة الآخر والنحن (النحن التي تنامي مع « العصبية » المتراجعة بكل وضوح) . وأننا لن نركز على انعدام معرفة الآخر تقريباً في الطبقات الاجتماعية الناشئة ، في الطبقة البروليتارية كما في الطبقة البورجوازية الصاعدة ، المسكونة بأيدولوجية التنافس والمرور الإقتصادي .

واننا لن نجد لها إطلاقاً إلا في -خلقات ضيقة داخل الأسرة المنزلية - الريفية ، لا سيما لدى الفلاحين .

إن هذا الهبوط في معرفة الآخر بوصفه فرداً ملموساً ، يعوض عنه ، تعويضاً جزئياً فقط ، بالنزوع إلى عالمية الشخص الإنساني . ومن أبرز ممثلي هذه النزعة : روسومع نظريته عن « الإرادة العامة المتماثلة لدى الجميع » ، ثم كانط مع مفهومه عن « الوعي المتسامي » و « العقل العملي » (الذي يؤدي إلى الاعتراف بنفس الكرامة المعنوية لدى جميع الناس) . لكن المقصود هنا هو مفهوم عام للآخر ، بعيداً عن كل تجسيد وكل تحقق فردي فعليين .

وهذه المعرفة الجديدة للآخر تشدد بوجه خاص على الأشكال العقلانية ، المدركة ، التأملية والرمزية ، وينزع الشكلاان الجماعي والفردى - دون نجاح - إلى التلاقي في « العام » و « الشامل » .

في ختام تحليل هذا النظام المعرفى ، بقي علينا الشئديد على أن مركز المثقفين الموجين بالحفاظ عليه ، وبتطويره وتعميمه ، قد اغتنى بجماعات جديدة وبأعضاء جدد . فإلى جانب الفلاسفة والعلماء والمعلمين - الأساتذة ، والأكاديميين ، نجد في هذا النظام ممثلين للآداب وكتاباً وعقائدين سياسيين ، كما نجد أخيراً مبتكرى التقنيات الجديدة .

الفصل الثامن

النظام المعرفي للمجتمعات الديمقراطية الحرة

إن النمط البنيوي والمجتمعي الشامل هو الذي يهيمن في أوروبا وأميركا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، على أثر الثورات البريطانية والأميركية والفرنسية بخاصة ، وكذلك على أثر تطور الهيئات والتقاليد البرلمانية في معظم بلدان الغرب ولا سيما في إنكلترا وهولندا والبلدان السكندنافية . الخ ، وأخيراً في فرنسا . . . ويمتاز هذا المجتمع بانتصار المبادئ المعلنة في بيان حقوق الإنسان والمواطن عام 1789 ، المقرونة بالإقتراع الشامل وبسيادة السلطة الإشتراعية على السلطة التنفيذية ، ويمتاز غالباً « بالبرلمانية » (أي بمسؤولية الحكومة وتبعيةها للأكثرية البرلمانية) وبحرية وتأثير أكثرية الأحزاب ، وبالحرية النقابية للعمال وأرباب العمل ، وكذلك بحرية الشركات المغفلة والإحتكارات والكراتلات ، وأخيراً يمتاز بفصل الكنيسة عن الدولة .

وتبقى الدولة الإقليمية الديمقراطية والعلمانية على رأس كل التجمعات العاملة . حتى أنها تضخم صلاحياتها في بعض الجوانب ، فتتدخل في الحياة الاقتصادية - بسياساتها الإستعمارية التي تفتح أسواقاً جديدة ، وبسياساتها الزراعية والجمركية المتنوعة ، وبجهودها المبذولة غالباً دونما أمل لمحاربة البطالة والأزمات الاقتصادية ، وبالتشريع الإجتماعي النازع إلى حماية الضعفاء اقتصادياً والمحرومين ، وكذلك إلى تسهيل إبرام العقود الجماعية للعمل بين نقابات العمال وأرباب العمل ، وينصب جهدها في الحياة الثقافية على تطوير

مجانية التعليم العام في كل مراحله .

بيد أن الدولة الديمقراطية قلما تنجح ، كنظيرها النظام القديم . في السيطرة على الحياة الاقتصادية وفي الحد من نفوذ المنظمات القوية التي تخترق « المجتمع الإقتصادي » . ويعود ذلك لأسباب عدة . أولاً ، لأن الدولة غالباً ما تجد نفسها خاضعة هنا للطبقة البورجوازية (الصناعية ، المالية ، التجارية) سواء كانت بمفردها أم مرتبطة بالطبقات الوسطى وبطبقة الفلاحين الأغنياء ؛ فتضغط مصالح هؤلاء جميعاً على الدولة ، وثانياً تمارس القيادة أو طبقة أرباب العمل داخل المصانع والمنشآت سلطة ضابطة وناظمة خاصة ، تزداد قوتها . ففني هذه المصانع يخضع الملايين من العمال في حياتهم اليومية لسلطة هذه الطبقة التي تحد واقعيًا من سلطة الدولة ، بممارستها هذه السلطة التعسفية الخاصة ، وتهدد بالتحويل إلى نوع من الإقطاعية الاقتصادية (« الإقطاعية الصناعية » على حد تعبير برودون) . وفي المقام الثالث ، تنخفض صلاحيات الدولة وقوتها انخفاضاً كبيراً ، بفعل ازدهار التروستات والكارتلات - الظواهر الأولى للرأسمالية المنظمة - من جهة ، وازدهار نقابات العمال وأرباب العمل من جهة ثانية ، والإضرابات والتسويات والعقود الجماعية المترتبة على المفاوضات والمؤدية إلى تشريعات حقوقية مستقلة . وبالتالي يمكن الكلام عن نزوع إلى « تقطيع سيادة الدولة » . والنشاط الكثيف للأحزاب السياسية - التي تمثل أكثر فأكثر الطبقات الاجتماعية الحاضرة والمتصارعة - يجهز في الواقع على سلطة الدولة ويخفض تفوقها . وهكذا فإن هرم التجمعات الوظيفية ، وعلى رأسه الدولة ، يجد نفسه مهتزاً إلى حد بعيد ، وينزع سلم الطبقات الاجتماعية إلى الحلول محل الهرم المذكور ، الأمر الذي يزيد من خطر اضطراب الدولة . فالدولة هذه - كجهاز تنفيذي للطبقة البورجوازية أو كنتيجة ، في بعض المنعطفات ، لتسوية بين مختلف الطبقات الاجتماعية - تعتمد كثيراً على آلتها البيروقراطية - العسكرية الفخمة ، أكثر مما تعتمد على سمعتها وحتى على سلطتها القضائية أو الاقتصادية .

إن النماذج التقنية أو الاقتصادية (إصلاح المنشأة والعمل) تلعب دوراً حاسماً في هذا النمط البنيوي والمجتمعي الشامل . وأن انتصار الآلة والعمل بالسلسلة في الصناعة الكبرى واستخدام الفحم الأسود والأبيض والأخضر ، وتعميم الكهرباء ، والتقدم المدهش المتحقق على صعيد المحركات ولاسيما في مجال السيارات والطيران ، المقرون بتصاعد مدهش في تطور وسائل النقل والاتصال (تلغراف ، هاتف ، بدايات الإذاعة) ، إن كل ذلك يجعل التجهيز التقني قاعدة الحياة الاجتماعية بالذات . إن أنصار « تفوق التقنية في الحياة الاجتماعية » (مثل مومفورد ، ومن قبله أوغبورن وفيلن) هم على حق إذن - بطريقة ما - لكنهم على حق جزئياً فقط فيما يتعلق بهذا النمط البنيوي والمجتمعي ، لأن البنى الاجتماعية تواصل هنا السيطرة على التقنيات . ولا تغدو هذه التقنيات مستقلة فعلاً ، ولا تبدأ بتشكيل خطر مفجر للبنى إلا عندما تتحول الرأسمالية المنظمة إلى تقنوقراطية .

ونعتقد أنه يمكننا لتحليل بنية المجتمع الديمقراطي الليبرالي إعفاء نفسنا من التعداد المفصل لمزاياها الأساسية طالما أنها لا تزال ماثلة في الذاكرة الجماعية اليوم . لذلك سنكتفي بذكر بعض معالمها بإيجاز .

أولاً على صعيد تجليات الحياة الاجتماعية ، لا بد من التشديد على اتجاه عام إلى هيمنة الجماهير النشطة ، سواء كانت مشتتة أم مجتمعة . فالمتحدثات النشطة تسود في الطبقة البورجوازية وهيئاتها (مثل نقابات أرباب العمل . والجمعيات النشطة تبرز في الطبقة البروليتارية المناضلة (بالأحزاب مثلاً) ، كما تبرز في النقابات العمالية المستقلة أو المرتبطة بالأحزاب السياسية المقابلة . - ومن جهة ثانية تكون النحن محدودة جداً بالنسبة إلى الغير من جماعات وأفراد ناشطين . ويلحظ إلى أقصى حد الطابع التنافسي الخاص بهذه البنية الاجتماعية .

وثانياً تجدر الملاحظة المردود الكامل لتقسيم العمل التقني والاجتماعي على حد سواء هذه المرة . ولا يمكن لتطور الآلات إلا أن يؤدي إلى إعادة توزيع

وإلى تكثيف أشد في هذين النوعين من تقسيم العمل الباحثين عن توازن جديد . وينبغي من جهة ثانية أن نلاحظ تفوقاً بارزاً جداً للمدن على الأرياف ، وللتجمعات الحضرية الكبرى على المدن المتوسطة والصغيرة ، وللصناعة على الزراعة . كذلك يمكننا لحظ التزايد الخارق في تكديس الثروات - المحصورة تقريباً في الشكل المالي وفي شكل الإستثمارات التكنولوجية - والناجم عن أهمية الإنتاج ، واستغلال عمل جماهير عريضة من الأجراء ، والتجارة العالمية التي لا مثيل لها ، ولتدفق المواد الأولية من المستعمرات .

أخيراً فيما يخص بهرم التنظيمات الإجتماعية سيكشف عرضنا للنظام المعرفي المطابق ، عن هيمنة واضحة للمعرفة (المتجلية خاصة في مجلى المعرفة العلمية ، التقنية والسياسية) على كل « الضوابط الإجتماعية » الأخرى . وبالتالي يكفينا التذكير هنا بأهمية التربية والتعليم اللذين اصبحا ، تدريجياً ، في معظم بلدان العالم ، علمانيين ، عامين ، وإلزاميين في المراحل الدنيا ، وبالتالي نلاحظ التراجع الملحوظ في نفوذ الدين وضعف سلطة الكنيسة .

وفي ختام هذا التحصيل للبنية الديمقراطية - الليبرالية ، فلنشدد على أن الأمم تجدد نفسها في حالة تنافس على صعيد التجهيز والمردود الصناعي ، كذلك في داخل كل منها ، يبلغ التنافس بين المنشآت الرأسمالية درجته القصوى من التوتر . في سبيل تحديثها . وفي نهاية الأمر يؤدي تسمير الرساميل في الآلات الأكمل إلى انخفاض كبير في سعر الكلفة . وعلى الرغم من الأزمات الاقتصادية العالمية النطاق ، والبطالة الدورية ، وعلى الرغم من صراع الطبقات المتزايد الحدة ، وعلى الرغم من تطور الحركة العمالية ، السياسية والنقابية ، وعلى الرغم من الأحميات وكومونة باريس ، وأخيراً على الرغم من خطر الحروب الأمبريالية والإستعمارية ، فإن هذا العصر هو عصر الرأسمالية الأجل ، فبالواقع تبدو الرأسمالية التنافسية مغيرة للإنتاج ، محركة للإبتكارات التقنية ، رافعة بالتالي لمستوى معيشة السكان ، حتى الفقراء منهم ؛ وأن هذا التوجه يكون ملحوظاً بقدر ما تكون هذه الرأسمالية ضامنة

لنفسها الأسواق الإستعمارية بكل معنى الكلمة ، وكذلك أسواق البلدان المتأخرة على الصعيد التقني .

آن الأوان الآن ، لطرح المسألة التي تهمننا في المقام الأول : ما هو النظام المعرفي الذي يتطابق مع النمط البنيوي والمجتمعي الديمقراطي - الليبرالي ؟ هذه المسألة تؤدي بدورها إلى مسألة أخرى متممة لها بشكل ما : ما الأثر الذي يمارسه النظام المعرفي المقصود على إطار الإجماعي الشامل ؟

إن السمة المعرفية التي تبدولنا على الفور الأكثر دهشة هنا ، هي التراجع الملحوظ جداً على صعيد العلم الفلسفي ليس فقط بالنسبة إلى المعرفة العلمية ، المزدهرة تماماً ، التي رأيناها تنافسه في المجتمع وبنية بداية الرأسمالية ، بل أيضاً بالنسبة إلى المعرفة التقنية والعلم السياسي ، وأخيراً بالنسبة إلى المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي . وهكذا وصلنا إلى الملاحظة بأن انحطاط الفلسفة بدأ مع الرأسمالية التنافسية المتطورة التي سندرس نظامها المعرفي . سيمتد هذا الانحطاط ويتشدد في عدة أنماط أخرى من المجتمعات والبنى التي تنوي تحليلها : الرأسمالية المنظمة ، الفاشية التكنوقراطية والجماعية المركزية . وأن ملاحظة كهذه تحمل بذاتها السؤال التالي : في أي نمط بنيوي ومجتمعي يكون للعلم الفلسفي فرصة ما للقيام من رماده ، ليحتل مجدداً مرتبة هامة في النظام المعرفي ؟ سنحاول الرد على هذا السؤال في ختام هذا الكتاب .

أ) لا ريب أن المعرفة العلمية تحتل المكانة الأولى في المجتمعات الديمقراطية الحرة . وبما لا شك فيه أن الأولوية هنا تعود للعلوم الطبيعية والعلوم الصحيحة . بيد أن « علوم الإنسان » التي ينبغي الآن إدخال علم الإجماع في نطاقها ، بدأت هي الأخرى تنطلق انطلاقاً فاعلة .

إن ارتقاء المعرفة العلمية إلى المرتبة الأولى يتأكد بعدة طرق . فقد

صار ، أولاً من المسلم به أن المعرفة التقنية ، مهما تكن ، ليست إلا تطبيقاً عملياً للعلوم . وتصح الأطروحة ذاتها على المعرفة السياسية لا سيما المعرفة المتبلورة في عقيدة أو على الأقل في برنامج أحزاب . ولسوف تتاح لنا الفرصة للملاحظة في معرض تحليلنا لهذين النوعين من المعارف أن هذا الإقتناع المجمع عليه تقريباً لا يزال بعيداً عن التحقق بالوقائع وأنه ينبغي أن نرى فيه فقط تعبيراً عن امتياز خاص تتمتع به العلوم في هذا النظام المعرفي .

ففي الواقع لا تزال مجالات واسعة من المعرفة التقنية ، بما فيها المبتكرات والابداعات ، بعيدة كل البعد عن المعرفة العلمية إذا صح القول . وأما المعرفة السياسية ، حتى المعرفة الأكثر تبلوراً والأحسن مثولاً في عقيدة ، فإن أواصرها المزعومة بالمعرفة العلمية (التي تتضمن علم الاجتماع الناشئ) مجرد أواصر وهمية . ذلك أن كل العقائد السياسية ، أكانت رجعية ، محافظة ، ليبرالية ، راديكالية ، جماعية أو شيوعية ، قد تمسكت بإعلان انتهائها إلى علوم الإنسان والمجتمع . وهذا الأمر صحيح بقدر ما تعارضت عقائد اشتراكية شتى بإسم « الاشتراكية العلمية » التي تدعي كل عقيدة الانتساب إليها (مثلاً عقائد السان سيمونيين ، برودون مخترع عبارة الاشتراكية العلمية ، وماركس) ، في سبيل غرض واحد هو إسقاط تهمة الطوباوية على الآخرين ، في الحقيقة أن المقصود هنا هو إبدال أحكام قيمية من أحكام واقعية ، وهذا الإبدال لا يمكن إخفاؤه إلا إذا أدخلت مسبقاً وبلا وعي ، في الواقع الاجتماعي المعتبر ، قيم سيعاد اكتشافها فيه بعد ذلك ، وهكذا تنطرح مسألة المعامل البشري Le coefficient humain أو « الأيديولوجي » الملازم للعلوم الاجتماعية (ومنها علم الاجتماع) : كيف نحرر علوم الإنسان من الدوغمائية ؟ هذه المسألة لا تزال في أيامنا بدون حل .

إن المكانة المتميزة للمعرفة العلمية في النظام المعرفي المقصود ، تتوحد حتى في موقف الفلاسفة أنفسهم ، مهما يكن توجههم . ف « الفلسفة الوضعية » التي أوصلها أوغيست كومت إلى ذروة تطورها بعد عدة محاولات

ناقصة ، لا ترى من جهة ، في العلم الفلسفي سوى تعميم لنتائج المعرفة العلمية فتقترح لها هرمًا ثابتًا ينطلق من علم الفلك إلى علم الاجتماع ، وتعتبر من جهة ثانية أن علم الاجتماع هو بمثابة نوع فلسفي أول تحولته في مراحل متوالية إلى « سوسيوقراطية » أولاً ، وإلى « عبادة المجتمع Sociolatrie » ثانياً ، وإلى « دين الإنسانية » أخيراً ، وتتطور بنفس الطريقة « السياسة الوضعية » التي لا تريد في مطلقها أن تكون شيئاً آخر سوى تطبيق عملي لعلم الاجتماع . وفي ختام هذا التطور ، توصلت الفلسفة الوضعية إلى الاعتراف بـ « النظام » - النظام الأكثر رجعية - وبأولوية « التقدم » الذي أصبح خطراً مهدداً للمجتمع والعقل . والحال ، فإن النظام الكومتي يواصل امتداح المعرفة العلمية في الوقت الذي يلحقه بدين جديد ، موضوع في خدمة سياسة ، وهذه حقاً علامة من علامات العصور ولا أهمية لكون بعض متابعيه ، مثل ليتري وميل ، يحدفون استنتاجات كومت بوصفها هلوسات وانحرافات . فالمهم ، وما هو ذو دلالة خاصة ، هو أنه في هذا المجتمع الديمقراطي الحر وفي النظام المعرفي المطابق له ، لا يبدو أي شيء ممكن دون الاعتراف الأولي بتفوق العلوم .

إن اشد خصوم وضعية كومت ، وفي مقدمتهم برودون وماركس ، اعتقدوا ، على الرغم من فلسفتهم التجريبية والجدلية المفسرة تفسيراً مختلفاً ، ليس فقط بأولوية المعرفة العلمية البينة ، بل اعتقدوا أيضاً بـ « اشتراكية علمية » التي جعلوا منها ، كما نعلم ، قضية كبرى . وأن ماركس ، بوجه خاص ، يقول أن المعرفة العلمية ، بعد استتباب الشيوعية ، ستفقد المجتمع المتحرر دونما صعوبة .

هناك فلاسفة ذوو اتجاه مختلف من الوضعية والماركسية معاً ، مثل الكانطيين الجدد ، من شتى المشارب ، الذين كانوا يحتلون مقدمة المسرح الفلسفي خلال المراحل الأخيرة من المجتمع الديمقراطي الحر ، وكانوا يعترفون من جانبهم بتفوق المعرفة العلمية على كل معرفة أخرى . وبالتالي ، كانوا

يعتبرون أن غاية الفلسفة هي ، حصراً ، تبرير صحة الجهاز المدركي للعلوم ، وبهذا الصدد تميزت مدرسة ماربورغ - وعلى رأسها الفيلسوفان هرمان كوهين وبول ناتورب - تميزاً خاصاً إذا اعتبرت أن كل معرفة حقة تنخفض إلى المعرفة العلمية وحدها ، وأن كل فلسفة تنخفض إلى التأمل في هذه المعرفة . وأن القبليات *les apriori* المبحوث عنها هي فقط قبليات العلم ؛ وينخفض الإنسان ، بوصفه إنساناً ، إلى مالك للمعارف العلمية ، ومن جهة ثانية ، كان أولئك الفلاسفة يعتبرون أنفسهم « ممثلين للعقلانية العلمية الجديدة » .

أخيراً ، حتى أن الفلاسفة المتمردين على « العلموية » *Scientisme* السائدة ، أمثال برغسون في فرنسا ، وويليام جامس وديوي في الولايات المتحدة ، كانوا يتمنون أكثر مما يريدون ، أمام أولوية المعرفة العلمية . مثال ذلك أن برغسون ، بعدما نجح في كتابه « المعطيات المباشرة للوعي » و« المادة والذاكرة » ، في الحفاظ على « الأزمنة النوعية » و« الأمكنة الملموسة » من شر التدمير بواسطة الصياغة المفهومية والمكانية العلمية (وهي نقطة سيعود إليها في كتابه ضد اينشتين) ، عاد فوضع الفلسفة في كتابه « التطور الخلاق » ، تحت الإشراف الرفيع للعلم الإحيائي الذي استخرج منه مذهباً حياتياً *Vitalisme* ساعده على الانتقال إلى الروحانية الدامغة لكتابه الأخير : مصدرا الأخلاق والدين . كذلك سعى وويليام جامس أولاً ، وجون ديوي ثانياً ، لتأسيس البراغماتيكية كعلم على البسيكولوجيا العلمية والإختبارية في عصرهما .

يمكن القول أن العلم الفلسفي يترك مكانته الأولى في النظام المعرفي للمجتمع الديمقراطي الحر ، ويتقبل دون مقاومة فعلية ارتقاء المعرفة العلمية إلى ذروة هرم انواع المعرفة .

وتعتبر الأشكال العقلانية التجريبية ، الوضعية هي الأكثر بروزاً في المعرفة العلمية ؛ وتعتبر بارزة أيضاً الأشكال الرمزية والمدركية المقترنة معاً

والتي لا بد منها للعمل العلمي ؛ ويتوصل الشكلاان الجماعي والفردى إلى التوازن .

ب) فى النظام المعرفى الذى نحلل ، تصعد المعرفة التقنية إلى المرتبة الثانية . ولقد سبق لنا أن سلطنا الضوء على أهمية الناذج التقنية ، المتزايدة اكتمالاً وتكاملاً ، فى البنية والمجتمع الديمقراطيين - الحرّين ، ففى ذروة ازدهار استعمال الآلات ، مع التقدم المتحقق فى « تنظيم العمل » ، وفى الابتكارات الجديدة المتصلة ببدايات الهاتف اللاسلكى ، والإذاعة ، والسينما والطيران ، الخ . لا بد من إضافة الإستخدام المتزايد للكيمياء فى الصناعة ، الخ .

لكن مهما ظهرت كبيرة هذه النتائج ، فإن المعرفة التقنية تصطدم فى المجتمع الديمقراطى الحر بثلاثة حدود جدية ، أولاً ، خطر الإنتاج الفائض وانخفاض الربح وفقاً للإستثمارات الضخمة المفروضة على المبادرة الخاصة ، والأزمات الإقتصادية الدورية وسياسة التوسع الإستعماري التى تؤمن سوقاً للمنتوجات الصناعية القديمة ، تعوق كلها تطور المعرفة التقنية بشكل حتمى .

ثانياً ، كما أشار إلى ذلك العالم الفيزيائى البريطانى الكبير برنال فى كتابه الصادر عام 1953 بعنوان Science and Industrie in the nineteenth century لا تزال المعرفة التقنية والمعرفة العلمية مستقلتين ، إلى حد بعيد ، عن بعضها البعض فى هذا النمط المجتمعى ، ويلاحظ العالم ذاته ، خلافاً لما كان المنطق يفترضه ، أن الابتكارات التقنية الرئيسية تعود بمجملها ، ما عدا بعض الإستثناءات ، إلى المعلمين والمهندسين وحتى للهواة أحياناً ، كما هو الحال فى النمط المجتمعى المدرس سابقاً. وهؤلاء المبتكرون لا يستلهمون من المعرفة العلمية إلا بطريقة لا مباشرة تماماً ، ويحتلبون معلوماتهم من كتب ومؤلفات علمية رائجة (برنال ، مرجع سابق ، ص 151) . وهذا لسبب بسيط أن المنشآت الكبرى لم تكن تملك بعد مختبرات الأبحاث التى يفترض أن تنشئها فيما بعد فيها التروستات الخاصة أو الحكومة ، بغية تشجيع العلاقة بين

العلم والصناعة (المرجع السابق ، ص 151) . واليوم الأمر بخلاف ذلك ، إذ يستحيل تصور الصناعة النووية والألكترونية بدون مختبرات علمية للأبحاث التقنية حيث يتعاون هذان النوعان المعرفيان تعاوناً وثيقاً (المرجع السابق ، ص 153) .

أخيراً ، تباطأت وتيرة نمو المعرفة التقنية بسبب التفاوت في المستوى بين مختلف الفئات الاجتماعية - المتصارعة غالباً مع بعضها البعض - المعنية بهذه المعرفة ، وبالتالي ، فإن الجماهير الواسعة من العمال المشاركة في الإنتاج تفتقر إلى كل أعداد وكل كفاية مهنية . ويعتبر منخفضاً جداً مستوى معرفتهم التقنية ، المكتسبة في الممارسة حصراً . وتصح هذه الملاحظة أكثر في القسم الأمي من السكان الذين لا يعملون في الصناعة ولا في الزراعة ، ويرتفع مستوى المعارف التقنية مع المعلمين الصناعيين الذين يجمعون بين الممارسة والمهارة المهنية ، لكن المهندسين المجازين من المدارس الخاصة هم وحدهم يبلغون مستوى من المعرفة التقنية حيث يمكن جزئياً على الأقل استعمال المعرفة العلمية . وهذا ينطبق أيضاً على الجيش . فلا يوجد إطلاقاً سوى الكوادر العليا ، المتخرجين من مدارس متخصصة ، الذين يكونون قادرين على قرن معارفهم التقنية العسكرية بالمعرفة العلمية .

إن السيد برنال الذي يدور جزء كبير من ملاحظاته التي أشرنا إليها حول مجتمع القرن العشرين الذي ، كما سنرى ، لم يعد قادراً على التمييز بأنه ديمقراطي حر ، يخلص إلى الاستنتاج : « إن الصناعة العلمية الواسعة النطاق تشير . . . توترات تهدد وجود البنية التي أولدتها . والعلم حين يندرج في الصناعة يتأكد في القرن العشرين كعلم قوي جداً بالنسبة إلى منظومة المنشآت الخاصة التي استولدت قبل قرنين » (المرجع السابق ، ص 176) من الواضح أنه يتكلم هنا عما عن الرأسمالية المنظمة وأما عن الجماعة حيث يتحقق بين المعرفة العلمية والمعرفة التقنية اقتران فعلي لا يزال ناقصاً ، ولأسباب التي ذكرناها ، في المجتمع الديمقراطي الحر .

أما بخصوص الأشكال البارزة داخل المعرفة التقنية فهي تتوقف في هذا النظام على مستوى العلم . ففي أدنى مستوى ، تسود الأشكال التجريبية ، الوضعية ، التناسبية والجماعية . وفي المستوى الأعلى تسود في المقابل الأشكال المدركة ، والتأملية ، الرمزية وأخيراً الفردية .

ج (المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي من جهة ، والمعرفة السياسية المتبلورة تفضيلاً ، من جهة ثانية ، تحتلان كلتاها المرتبة الثالثة في هذا النظام المعرفي . لهذا يحدث لهما إما أن تتعايشا سلمياً ، وإما أن تتوافقا وحتى أن تنصهرا ، وإما أن تتنافسا أخيراً .

فلنبداً بمعرفة العالم الخارجي ، أنها تتوسع وتغتنى باستمرار ، بفضل فيضان وسائل التحرك المتزايدة الأكتمال والسرعة ، وسائل الإتصال والنشر المتزايدة الانتشار . وهذا الأزدهار ليس عفوياً وحسب ، أنه عائد ، أيضاً الى أثر المعرفة العلمية ، وبالأخص الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تطول في الوقت الحاضر فئات واسعة من السكان ، حتى عندما لا يتجاوزون مستوى التعليم الابتدائي . لأن قراءة الجماهير الواسعة للصحف اليومية تسهم كثيراً في تعميم الصحافة وتطويرها ، فضلاً عن ارتياد المدارس . وفي الوقت نفسه تفيد المعرفة التقنية على اختلاف مستوياتها من معرفة العالم الخارجي .

إن المكان الذي يوضع فيه هذا العالم لا ينخفض إلى المكان المسور كميّاً ، فالميادين الملموسة تغدو جوهرياً مستقبلية ، ليس فقط من الوجهة الاقتصادية والمهنية ، بل كذلك من زاوية المتعة الجمالية والراحة والترفيه . وهي تنبسط وتنقبض دون صعوبة وفقاً للحاجات ؛ وان طابعها الإلتباسي والمركزي المشترك يتجمد أكثر فأكثر .

إلا أن هذا التوسع في الميادين يصطدم بحدين . الأول متصل بطرائق التحرك بالناقلات المتوفرة للمعنيين : فتوسع الأماكن أو تضيق وفقاً لوسائل النقل المستعملة . ويختلف تماماً مصدر الحد الثاني ، وهو أسوأ بكثير ،

فالمقصود هو أثر المعرفة السياسية ، العفوية والصنعية ، على معرفة الأماكن الموضوع فيها العالم الخارجي ، لأن نزاعات المصالح بين الدول . الأمم ، الأنظمة ، الكتل الدولية ، دون الكلام عن الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية ، غالباً ما تحول الميادين إلى مناطق عداء أو صداقة ، من هنا الخطر في معاودة ظهور ميادين ملتبسة وحتى ذات مراكز مشتركة ، وهنا يظهر بوضوح التنافس القائم بين المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي والمعرفة السياسية ، في النظام المعرفي للمجتمعات الديمقراطية الحرة ، بيد أن المعرفة السياسية لم تنجح بعد في اكتساب مكان رفيعة فيه ، بلغتها ، كما سنرى ، في أنماط أخرى من البنى والمجتمعات ، مثل الرأسمالية المنظمة والموجهة . الفاشية التكنوقراطية ، وأخيراً الشيوعية المركزية .

إن المجتمع الديمقراطي الحر ، وهو يعيش في زمن مبكر ، متقدم على نفسه ، يقترن من جهة بزمان الضربات غير المنتظمة وغير الإيقاعية ، الخاص بالأزمات الاقتصادية وبالمصاعب السياسية ، ومن جهة ثانية يقترن بزمان الإيداع المتفجر ، إنما ينزع إلى إسقاط هذا الزمان المعاش على ذلك الزمان الذي يكون العالم الخارجي موضوعاً فيه . وليس هناك صياغة مدركة ولا مقياس أو تسوير كمي ، ولا أزمة اجتماعية ، ولا الزمان الذي يتحرك فيه العالم الخارجي ، توصلت إلى حرمان الأزمة كلياً عن هذه العناصر النوعية . ولقد توجب على الفيزياء الميكانيكية ذاتها أن تتخلى على مراحل عن هذا الزعم .

أما الأشكال المبرزة في المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، فإن تدخل المعرفة العلمية ، المعرفة التقنية والمعرفة السياسية ، إنما يعدل من خصوصيتها .

والآن آن أوان النظر عن قرب في المعرفة التي تنافس ، هنا ، معرفة العالم الخارجي : أنها المعرفة السياسية ، الواسعة الحضور في المجتمع الديمقراطي الحر . لأن إحدى سماتها كونها في كل مناسبة وفي آن واحد معرفة

فطرية وصناعية . وبالتالي أن حرية الأحزاب السياسية وكثرتها ، التي تخاطب ببرامجها الواسع الانتشار جماهير من الناخبين لا تنتمي إلى أي حزب ، تقود إلى تداخل التكتيات ، والأمتزجة والتفاعلات والأهداف المحددة . يضاف إلى ذلك ، أن المعرفة السياسية ، بكل تجلياتها ، تنفعل بصراع الطبقات مثلما تنفعل بالتركيبات البرلمانية والانتخابية ، المليئة غالباً بالمفاجآت .

علاوة على ذلك ، لا تزال تستعر في الطبقة البورجوازية بفعل الحاجة إلى المقاومة الفكرية للحركة العمالية الواسعة النطاق ، من هذه الوجهة ، لعبت كومونة باريس 1871 - أول تظاهرة للشورة الإجتماعية - دور جرس الإنذار . وأدت حركة الإضراب من جهة ، والحركة النقابية من جهة ثانية ، وكذلك « عقود العمل الجماعية » إلى إظهار معرفة سياسية فطرية كثيفة لدى البروليتارية ، غريبة عن كل عقيدة واضحة . أخيراً استطاعت طبقة الفلاحين ذاتها ، لا سيما في فرنسا أيام الجمهورية الثالثة التي كانت سندها الأساسي ، أن تتوصل في المجتمع الديمقراطي الحر إلى معرفة سياسية فطرية ودقيقة في آن .

من نافل القول إن العقائد السياسية الكثيرة قد جرت منهجيتها بدقة وسط جو كهذا ، وفيما يتعدى برامج الأحزاب والمعرفة السياسية الفطرية للطبقات الإجتماعية ولقاداتها . وإذا اكتفينا بفرنسا كمثال نلاحظ بالتالي أنه في المجتمع الديمقراطي الحر تتجاوز العقيدة الملكية الرجعية عند شارل موراس ، مع العقيدة الراديكالية - الاشتراكية المؤسسة على تضامنية ليون بورجوا ، ومع العقيدة الاشتراكية الأخلاقية عند جوريس التي تغلبت على النزعات الأكثر يسارية عند Guesdes والنزعات الإصلاحية بكل معنى الكلمة ومع عقيدة النقابية الثورية ، وأخيراً ، مع العقيدة الشيوعية اعتباراً من 1920 . ولقد تجابهت العقائد الجماعية من مختلف البلدان ، في الأُممات الاشتراكية ، وبالأخص في الأُممات الثانية ، وفي الأُممات الثالثة ، بعد حلول العقيدة الشيوعية ، ولا داعي للإضافة أنه في هذه الأُممات ، كما في المؤتمرات القومية

لشتى الأحزاب ، تتدامج البرامج والعقائد والمعرفة السياسية العفوية . . .
أما أشكال المعرفة المبرزة هنا ، فإن التجليات المتبلورة وبالأخص
العقائدية للعلم السياسي تظهر خصوصيتها على أوضح وجه . ويبقى الشكل
العقلاني مهيمناً لكن ليس بدون بعض الإشارات المبشرة بهالة معية من
الصوفية (« معجزات الاضراب العام » ، « المساء الكبير » الخ . بالنسبة إلى
اليسار المتطرف ؛ وحلم التضامن ، بالنسبة إلى الوسط ؛ والإعتقاد بحسنات
الرجوع إلى الملكية ، بالنسبة إلى اليمين المتطرف) . وبدورها تغلب الأشكال
المدركية ، التأملية ، الرمزية (الذاهبة إلى حد الأسطورة) والجماعية ، على
الأشكال المضادة لها .

(د) إن المعرفة الفلسفية لا تفسح المجال أمام المعرفة العلمية
وحسب ، بل تهبط إلى المرتبة الرابعة أيضاً ، لقد سبق أن أشرنا إلى أن العلم
الفلسفي ، سواء كانت تسيطر عليه الوضعية أو الكانطية الجديدة أم
الماركسية ، يجد نفسه محبباً إلى مرتبة أدنى من العلوم والمعرفة التقنية والمعرفة
السياسية . وهكذا ينخفض دورها الاجتماعي انخفاضاً كبيراً بالنسبة إلى ما
كانت عليه في بداية الرأسمالية . فالمعرفة الفلسفية ، الأكاديمية في جوهرها
والجامعية ، تخاطب من الآن فصاعداً جماعات أضيق فأضيق . وهي لا
تسترعي انتباه « الجمهور الكبير » إلا بصفة استثنائية ، وحصراً بواسطة
العقائد السياسية ، النادرة ، التي تحاول الإفادة منها .

أما لأشكال المبرزة في هذا النوع المعرفي ، فقد اتاحت لنا الفرصة ،
أيضاً للكلام عن ارتقاء المعرفة العلمية إلى المكانة الأولى ، فلنشدد فقط على
كون الشكل الفردي يهيمن كلياً على الشكل الجماعي في العلم الفلسفي في هذا
النظام المعرفي .

(هـ) ويجب وضع معرفة الآخر والنحن في المرتبة ما قبل الأخيرة ، في
هرم الأنواع المعرفية المطابقة للمجتمع الديمقراطي الحر . لكنها ، قياساً على ما

كانت عليه في مجتمع النظام القديم ، تبدو هنا بارزة أكثر . ذلك أن فيضان الأحزاب السياسية وفروعها المحلية ، وغو النقابية وخلاياها في المصانع (بسبب عقود العمل الجماعية) وتشكيل « فرق عمل » لتنفيذ الأعمال « بالسلسلة » في الصناعة الكبيرة ، وأخيراً المجالس الممثلة للعمال في المصانع ، تفتح كلها أمام معرفة الآخر والنحن آفاقاً جديدة . ومن جهة ثانية أن الأسرة المنزلية ، المقاومة لانحلالها ، تواصل تأكيد ذاتها كمركز لهذه المعرفة التي يمكن أيضاً أن نلاحظ تدخلها في المكاتب الإدارية وفي صفوف التعليم الابتدائي والثانوي .

إلا أن معرفة الآخر والنحن ، لأسباب ودوافع مختلفة ، لا تزال موجزة وبدون أهمية فعلية في هذا النظام المعرفي ، كوحدات أو كليات ، إلا بمقتضى فعاليتها الخاصة والمشتتة . وبدورها تكون البسيكولوجيا العلمية ، القائمة على إشاعة الوعي المغلق ، المنكمش على ذاته ، ميالة أكثر إلى إنكار إمكان معرفة الآخر ، وأن هذه البسيكولوجيا الفردانية تجد سنداً لها في فكرة صادرة ومكررة من جهة عدة مدارس فلسفية عن أنا نوعي (صادر عادة عن ذات أو عن وعي متسام) متماثل لدى الجميع .

في المعرفة الملموسة للآخر ، القائمة على فعاليات المحدودة ، تكون الأشكال التجريبية ، الوضعية والتناسبية هي الأبرز . وبالمقابل ، في معرفة الآخر المأخوذ بمعناه النوعي ، تنتصر الأشكال العقلانية ، التأملية والرمزية .

و (تحتل معرفة الحس السليم المرتبة الأخيرة . غالباً ما تتبدل بسرعة كبيرة ظروف الحياة والتقنيات ودوامه النماذج في المجتمع الديمقراطي الحر ، فكان لا بد لهذا النوع المعرفي من التقلب . اللهم إلا في العائلات المنزلية - الزوجية ، وفي الأرياف ، وفي بعض الحلقات التقليدية (مثل الجوكي كلوب) وبين البقايا الأخيرة لطبقة النبلاء ، فإن هذا النوع ينزع إلى الزوال بشكل متزايد ، لا سيما في الحياة الحضرية . وحيناً يحدث أن يظهر مجدداً في فروع الأحزاب السياسية والتقانات . لكن هذا يبقى استثنائياً .

إن المراكز المخصصة للحفاظ على المعرفة وترقيتها ونشرها ، تبدأ مع هذا النظام المعرفي بالتشتت المتصاعد إلى أن تفقد الصلة فيما بينها .

الفصل التاسع

المعرفة المتوافقة مع الرأسمالية المنتظمة والموجهة

هذا النمط المجتمعي الشامل هو الأبرز في الولايات المتحدة الأمريكية والمانيا ، قبل النازية وبعدها (في المانيا الغربية طبعاً) ، وكذلك في فرنسا خلال السنوات الأخيرة هذه ، لا سيما في ظل الجمهوريات الخامسة . وتحذو حذوها بريطانيا وإيطاليا وبلدان أوروبا الصغيرة . وفي الشرق الأقصى استقرت نفس البنية في اليابان ، جزئياً تحت ضغط الولايات المتحدة .

ولم يعد الإقتصاد متروكاً للتنافس الحر ، لكن الدولة ذاتها هي التي تخططه - لصالح البورجوازية العليا ، الصناعية والمالية المهيمنة - ، كما تخططه أيضاً الكارتلات والتروستات الخاصة (القومية والدولية) غالباً . بمساندة الدولة التي تضع عندئذ في خدمتها آلتها الإدارية والبيروقراطية العريضة . فلنحاول إيجاز بنية هذا المجتمع الشامل .

أ) إن الدولة من جهة ، والتروستات والكارتلات من جهة ثانية ، تهيمن اما بالإتفاق معها ، واما بالاستقلال عنها ، تهيمن بوصفها هيئة تخطيطية تخدم مصلحة البورجوازية العليا ، على كل التجمعات الأخرى التي تبذل قصارها لإفسادها . وتكون الأحزاب السياسية ، اللعبة الحرة للمؤسسات الجمهورية ، الحريات الديمقراطية والمدنية متورطة بشكل خطير . فالرأسمالية الموجهة تهيمن وتستبطن كل الحياة السياسية والاقتصادية داخل البلد وخارجه ، وفي الولايات المتحدة غالباً ما تكون النقابات العمالية

محطمة معنوياً إن لم نقل ملغومة من الداخل ، من جانب خصومها ، نظراً لأن الرأسمالية المنظمة لا تتلکأ عن استخدام أية وسيلة لتشويه كل جماعة أو كل قوة لا تكون خاضعة لها تماماً ، وهذا أمر يسير جداً في بلاد تكون فيها الصحافة والإذاعات والتلفزة والقسم الأكبر من الجامعات ومعاهد الأبحاث خاضعة للمصالح الخاصة .

لقد شكلت سياسة روزفلت الجديدة محاولة يائسة لانتزاع التخطيط الإقتصادي ، لمواجهة أزمة لا سابق لها ، من أيدي التروستات والكراتلات ، وإناطته هيئات ثلاثية : الدولة ، أرباب العمل ، النقابات العمالية ، المتحررة من تدخل أرباب العمل المباشر أو غير المباشر . لكن هذه التجربة فشلت .

ب) من الوجهة الميكرواجتماعية ، تسود الجماهير السلبية دون شك في مجتمع الرأسمالية المنظمة الموجهة ، وهي تدفع المتحدات نحو أجهزة التخطيط العامة أو الخاصة ، عندما تكون هذه المتحدات ناشطة ، وتدفعها نحو التجمعات المحلية عندما تكون سلبية .

ج) أن هيئات السيطرة المنظمة (السيطرة على الأمتة والآلات الألكترونية) وهيئات التخطيط الإقتصادي تحتل المرتبة الأرفع من المراتب العميقة . ويأتي بعدها الجيش الذي صارت كوادره العليا قوية جداً نظراً لامتلاكها القنابل الذرية والصواريخ العابرة للقارات والكواكب وأسرار استعمالها . أما النقابات العمالية فإنها حتى عندما تنجح مقابل نضالات مجهودات متواصلة في البقاء مستقلة (كما هو الحال بخاصة في فرنسا وانكلترا) لا تتجنب التحول البيروقراطي الواسع لقياداتها النخبوية . إن النماذج التقنية والشعارات الدعائية والسياسية ، المعجمة بوسائل تقنية تزداد كمالاً ، إنها تخلق نزعة إلى توحيد اشكال السلع المصنوعة ، لا سيما السلع الرائجة الإستعمال . وعلى هذا الصعيد تضرب الولايات المتحدة كل الأرقام القياسية) .

(د) إن بدايات الأتمتة تحد من التقسيم التقني للعمل ، وبالمقابل تحد من تقسيم العمل الاجتماعي .

هـ .) سنرى كيف تحتل المعرفة التقنية المرتبة الأولى في النظام المعرفي وفي مرتبة التنظيمات الاجتماعية معاً ، مع أخذ التربية والترفيه والأخلاق والحقوق بعين الاعتبار .

و) إن التحول التكنولوجي لا يطول فقط مجمل المعارف والتنظيمات ، بل يطول أيضاً العلاقات الإنسانية بكل تنوعها ، التي يعتبر الأميركيون أنفسهم بمثابة كبار المتخصصين فيها لدرجة أنهم أنشأوا مناصب لهذه الغاية وكونوا جهازاً متخصصاً في ذلك .

ولنذكر ببضع كلمات أن عقيدة « Managers » الشهيرة قد ظهرت في الولايات المتحدة ، ومن هذه العقيدة سيخرج نظام جديد : نظام التكنولوجراطية التي سنحلل بنيتها ونظامها المعرفي في الفصل القادم . بمعزل عن الأنظمة الفاشية (التي سعى بورنهام Burnham لجعلها مقبولة لدى الأميركي المتوسط) استند بوجه خاص الى استطلاع قام به بيرل ومينز (1934) بعنوان الشركات المغفلة والملكية ، وبين هذا الاستطلاع أن 65% من أسهم أكبر الشركات الصناعية الأميركية تتوزع بين أيادي مديريها الذين يشكلون بذلك طبقة جديدة قائدة . ولكن هذه النتائج انتقدها فيما بعد عدد من الباحثين . فبرهنوا أن الملاحظات التي تستند إليها لا تتعلق إلا بظرف اقتصادي خاص وعارض . إذ أنه حصل بعد عدة سنوات تمركز جديد لأسهم هذه الشركات الصناعية بين أيادي المصارف الكبرى التي فرضت أراداتها على المديرين . ومن جهة ثانية يقول بيرل في كتاب حديث له ، بعنوان :

The 19th century capitalist revolution (1954)

إن الأمر الجوهري ليس انتقال ملكية الأسهم من أيدي مديري التروستات ، بل كون السلطة الخاصة بالترستات والكارتلات في الولايات

المتحدة قوية جداً ، أن لم نقل أنها أقوى من الدولة ، نظراً لأن مديري الإحتكارات يسيطرون على قرابة 65% من كل الملكية الصناعية في الولايات المتحدة ، ويخططون الأقتصاد على منوالهم ، وهذا يقوم على منافسة سياسة الدولة القومية والعالمية .

إن أهمية بورنهام والعقائد بين الآخرين ، « الليبراليين » المزعومين ، للتقنوقراطية ، لا تكمن في القول - المشكوك به جداً - إن هذه البنية « محتومة » ، بل تكمن في ملاحظاتهم ، غير المعلنة ، أن الرأسمالية المنظمة والموجهة تتجه دون أن تنشئ ذلك أو تعلمه دائماً ، نحو فاشية تقنوبورو قراطية مؤولة تأويلاً مختلفاً ، وهي الوسيلة الوحيدة المتوفرة ، ظاهراً ، لبقاء الرأسمالية والدفاع عن ذاتها بمواجهة الأخطار المتفاقمة التي تضغط عليها . بدون تصفية الرأسمالية لا يمكن للديمقراطية الإستمرار . هنا تكمن النقطة الجوهرية .

في الحقيقة تبذل الرأسمالية المنظمة جهودها لتقديم البديل . فهي تنكب في الولايات المتحدة بوجه خاص على تحسين شروط العمل داخل المنشآت : وذلك بمكافحة الضجة وثقل الهواء ، وبمعالجة مصاعب التنوير المتفاقم جداً ، وبتأهيل فرق منسجمة . وعما قريب قد يجري تشغيل العمال على صوت الأوركسترا السمفونية ، وذلك لبلوغ غايتين ، أولاهما إرضاء العمال ، وثانيهما زيادة إنتاجيتهم إلى أقصى حد ممكن .

في فرنسا ، وفي ظل الجمهورية الخامسة ، كانت الرأسمالية الموجهة الظاهرة مع تقنو- بيروقراطيتها من كل المشارب والنزعات ، تأمل في إخفاء خط الإنحراف الفاشي لنظام يزداد استبداده أكثر فأكثر . عن طريق مهزلة الاستفتاءات وكوميديا الإنتخابات المباشرة لرئيس قوي جداً . ثمة موضوع آخر للتنمويه ! السياسة الخارجية « المستقلة » زعماً ، والمفيدة في الواقع فقط لمصالح البورجوازية الصناعية والمالية العليا ، وبشكل خاص لمصالح التروستات والكارتلات القومية والدولية ؛ ويرفع أيضاً علم « مصلحة العمال

في أرباح المنشأة » التي لم تتحقق أبداً في ظل أي نظام رأسمالي ، والتي لا تشكل سوى تضليل حقيقي .

إن كل هذه التمويهات والأضاليل تشهد فقط على عجز الطبقات الحاكمة ومثليهما عن لحظ الأخطار التي تتعرض لها الإنسانية من جراء الرأسمالية المنظمة : استعباد الناس والجماعات للصواريخ ، تدمير البنى الاجتماعية والأعمال الحضارية بتقنيات مستقلة أكثر فأكثر ، وبني متصاعد لحقوق العمال ومنظماتهم النقابية وبوجه أعم بنفي حقوق المواطنين من كل الفئات (المنتجين والمستهلكين) في حكم أنفسهم بنفهم وضبط كل سلطة تفرض نفسها عليهم . إن استبدادية متعلمي السحر ، سواء تعلق الأمر بالحكام السياسيين ، وأرباب العمل وتروستاتهم وكارتلاتهم ، أم تعلق بالتقنوقراطيين الذين يخدمونهم ، تتقوى وتتعزيز بدون انقطاع ، ولم تنجح أية ظاهرة من ظواهرها في السيطرة على القوى المتفجرة التي اطلقتها من عقالها . وعليه ، فإن الرأسمالية الموجهة والمنظمة تنزلق أكثر فأكثر نحو النمط البيوي والمجتمعي المتميز بالفاشية التقنوقراطية التي سنتناولها في الفصل التالي .

فلنتناول ، بادئ الأمر ، النظام المعرفي الخاص بها .

أ (تعود المكانة الأولى للمعرفة التقنية بدون شك ، انها أولوية منطقية ، ومحتومة ، على ما يبدو ، في عصر الأتمتة والآلات الإلكترونية ، وهي ترسخ في كل المستويات إلى حد أن جميع التجليات الأخرى للمعرفة تتأثر بها تأثراً كبيراً لدرجة أنها تكتسب الطابع التقني على قدر الممكن . فلا تستطيع المعرفة العلمية ولا المعرفة الفلسفية ولا المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي أن ترد بفعالية على هذا الحضور الكلي للهيمنة التقنية .

وبادئ الأمر ، لا مناص من الإيضاح أن العلم ، الذي غزته المعرفة التقنية ، والذي تفكك بفعل غزوها على نحو معين ، لم يعد قادراً على بلوغ

حالة الدفاع عن النفس . وهذه الظاهرة مدهشة بخاصة في مجال العلوم الصحيحة وعلوم الطبيعة . ولا ريب أنه من المحتوم في عصر الطاقة الذرية ، الأتمتة الصناعية ، التلفزيون ، الصواريخ العابرة للقارات والكواكب ، ان تتوجه المعرفة التقنية لاستيعاب العلم . حتى في الرياضيات وفي علم الأحياء يكون العمل كله متوقفاً على كمال التقنيات الصناعية والطبية والزراعية .

يضاف إلى ذلك إن الاختبار العلمي يفترض ، في الوضع الراهن ، جهازاً كبيراً للتنظيم التقني ، عاماً أو خاصاً ، تكون « المختبرات » المختلفة بمثابة مراكزه الأساسية .

كما أن التقنية تطول « علوم الإنسان » إلى حد أنها تقارب المهزلة غالباً . ان ممثلي العلوم الإنسانية ، لا سيما ممثلي علم النفس (الفردى ، « الاجتماعى » والجماعى) وعلم الاجتماع يرغبون في أن يكونوا فنيى الحياة النفسية والحياة الاجتماعية ويطالبون أكثر فأكثر بلقب « التقنوقراطيين » . كما أن المتقلدين للسلطة الاقتصادية وللسلطة العامة غالباً ما يستعينون بكفاءتهم المزعومة في مختلف فروع الخدمات العامة وذلك لغرض واحد هو تبرير التدابير غير العاقلة وغير الشعبية ، والاستبدادية .

هكذا يظهر هؤلاء العلماء النفسانيون والاجتماعيون كأنهم في الواقع « تقنوقراطيون من قش » ، يلعبون فقط دور الستائر المخصصة لإخفاء ارتجال واستبداد السلطات العامة من جهة ، والإحتكارات والكارتلات الخاصة ، القومية ، والدولية من جهة ثانية . إن هؤلاء العلماء الملفقين ، الذين لا علاقة لهم مع العلم الحقيقي الذي يزعمون تمثيله (مثل منظمى « استطلاعات » الرأى العام ودراسات الأسواق ، الخ) . لا ينجحون في غير توريط العلوم الإنسانية . فلا يتوصلون لغير مكنته وتقننه « العلاقات الإنسانية » والمسائل الواقعية التي تطرحها الحياة الفكرية والحياة الاجتماعية الراهنتان ، وذلك بهدف واحد هو إخضاعها لشعارات موضوعة سلفاً . إن هذا الوضع ، الفاضح بوجه خاص في الولايات المتحدة (حيث بدأ يستثير ردود فعل مبررة

تماماً) ، أخذ ينتشر في كل البلدان التابعة مالياً لأميركا . ولسوء الحظ ، تأثرت فرنسا بهذه الأساليب ، على الرغم من تناقضها مع تقاليدها الثقافية ، وأخذت تلجأ إليها بشكل متزايد ، مقدمة بذلك دليلاً جديداً على الإجتذاب الذي تمارسه عليها حالياً سياسة التوجيه الفاشية والتقنوقراطية .

ب) إن المعرفة السياسية ، التي تشكل موضوع ارتقاء هام في هذا النظام لأنها تحتل فيه المكانة الثانية ، تعاني هي الأخرى من الأثر الشديد للتقنية ، وهو تأثير ملموس سواء في تحلياتها العفوية أم في برامج الأحزاب والعقائد السياسية الأشد تبلوراً . والمقصود هنا هو إتقان استخدام البشر أكثر من تقنية استخدام الصواريخ والآلات ، إن الخلط بين السلطة السياسية والسياسة الاقتصادية على كل المستويات في الحياة الاجتماعية ، والعقبات والحواجز التي تفرضها الكارتلات والتروستات ، بالاتفاق مع الدولة ، على حرية تحرك النقابات العمالية ، وأخيراً أن الصراع بين هذين المركزين للسلطة وهما الدولة من جهة ، والإحتكارات الكبرى من جهة ثانية ، دون الكلام عن التنافس بين الإحتكارات نفسها ، هي كلها أسباب تستلزم وجود تجهيزات تقنية قوية ، وفضلاً عن هذا الطريق لتغلغل التقنية في العلم السياسي ، يدخل أيضاً في عين الإعتبار الموقف المشترك المتخذ تجاه كل مراكز هذا العلم ، ليس فقط بمواجهة التخطيطات ، بل أيضاً بمواجهة الإختراعات الجديدة ، ومنها تلك التي تنظم الأتمتة الصناعية والأدوات الإلكترونية . وسواء تعلق الأمر بعقائد سياسية أم تعلق فقط ببرامج الأحزاب الرافعة شعارات ورموزاً سياسية جديدة ، فإن ارتباطها بالمعرفة التقنية أو التشويه الذي تفرضه هذه المعرفة ، لا يلحظ فقط من خلال المنظمات والآلات المستخدمة ، بل ينعكس حتى في مثالاتها .

إن العمى السياسي لدى أولئك الذين يتقلدون السلطة في هذا المجتمع ، يتجلى أولاً من خلال انعدام التمييز في مواجهة خطر التدمير المتزايد الوضوح الذي تفرضه التقنيات المنفلتة من عقالها على كل البنية الاجتماعية ،

ونحن نراهم يلعبون لديها دور المستعلمين السحر الذين نددنا بهم في مناسبة سابقة .

ج (أن المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي التي تأتي في المرتبة الثالثة ، تحمل هي الأخرى آثاراً ملحوظة للتقنية ، الناتجة عن التلفزيون ، وبالاخص عن إمكانية بلوغ الأماكن بواسطة الآلات ؛ وبذلك تعود هذه الأماكن مجدداً ذات مراكز مشتركة أو ملتبسة منذ أن تنعدم الوسائل التقنية .

د (أخيراً ، المعرفة الفلسفية ، المدفوعة في هذا النظام إلى مرتبة أدنى بكثير مما كانت عليه في النمط المجتمعي المدروس سابقاً ، نظراً لأن المعرفة العلمية تندمج مع المعرفة التقنية ، إنما تعاني هي أيضاً من أثر التقنية شبه الكاملة . وفي الواقع ، إن « المنطق الرمزي » و « البديهية الوضعية » ينزعان إلى احباط كل التوجهات الفلسفية الأخرى ، فالوجودية المتعددة المشارب ، التي أثارت ضجيجاً كبيراً خلال فترة قصيرة لتتهار بعد ذلك بسرعة صاعقة ، لم تمثل سوى محاولة ، بإسم الأنا والآخر ، والجماعيات ، لمقاومة تقنية الفلسفة . وأما في مواجهة المنطق الرمزي ، المخفوض بدوره أكثر فأكثر إلى مستوى تقنية معينة ، فلم تصمد إلا الماركسية ، والتجريبية الجدلية والفلسفات الدينية أخيراً ، دون أن يفلح أي من هذه المواقف في تشكيل سد بمواجهة هذا التيار .

هـ (تتدخل المعرفة التقنية حتى في معرفة الحس السليم ، التي تكمن الآن بوجه خاص في معرفة استعمال الآلات المنزلية (الغسالة ، المكينة الكهربائية الخ .) والتي لا تزال تتدخل في بعض الدوائر الضيقة من مجالس إدارة التروستات والكارتلات ، وفي الهيئات القيادية للنقابات والأحزاب الخ . . لكنها لم تعد تلاحظ داخل الأسر المنزلية إلا في الأرياف المنعزلة نسبياً .

و (إن معرفة الآخر والنحن تقاوم وحدها تغلغل المعرفة التقنية (على الرغم من القول المخالف الذي يقوله علماء التحليل النفسي وانصار

البسيوكودراما) . ولهذا السبب نجدها ، من جهة ثانية ، تحتل المرتبة الأخيرة في هذا النظام المعرفي ، وبفضل وجود فرق العمل ، نجدها مع ذلك مستمرة في لجان المنشآت وجماعات الرفاق السياسيين والأصدقاء السخ ، وفي الأسر المنزلية من جهة ؛ وفي الدساكر المعزولة من جهة ثانية . كما أن آثار معرفة الآخر والنحن هذه تعتبر مهددة جداً في ظل نظام الرأسمالية الموجهة ، كما تدل على ذلك مكننة العلاقات الإنسانية ، الغالية جداً على قلب ارباب العلاقات العامة Managers الأميركيين .

سنحاول الآن إيضاح بروز الأشكال المعرفية في مختلف أنواع هذا النظام المعرفي .

إن الحضور القوي للمعرفة التقنية سيساعدنا على التمييز ما بين مستوياتها العديدة . فهي تبرز على صعيد معرفة الحس المشترك الشكليين الوضعي والجماعي . أما معرفة العمال الماهرين قليلاً أو المبدومي المهارة ، فإنها تبرز في آن واحد الأشكال التجريبية ، التناسبية ، شبه الجماعية وشبه الفردية . وعلى مستوى المعلمين الصناعيين والمهندسين ، تظهر الأشكال العقلانية ، المدركية ، شبه الرمزية وشبه التناسبية والفردية أخيراً . تظهر كأنها هي الأشكال الأكثر حظوة . وتنتصر على مستوى الخبراء والمخترعين الأشكال الرمزية ، التأملية والفردية .

أما المعرفة السياسية فهي تفسح في المجال امام ظهور بعض التلوينات الصوفية ، مع إحاطتها بمعالَم عقلانية تخفي الأشكال الصوفية . وتتسبب الأشكال المبرزة الأخرى إل الشكل المدركي ، الرمزي والجماعي .

وفي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، تظهر بوجه خاص الأشكال التجريبية ، الوضعية ، التناسبية والفردية . على الرغم من معاناتها ، إلى حد معين ، من تقييدات يفرضها الشكلاَن الرمزي والجماعي ، وهي إما صادرة عن استعمال اجهزة تقنية كالتلفزيون مثلاً ، وأما صادرة عن التسييس الذي لا

تنجو هذه المعرفة في غمط المجتمع الشامل المعين إلا نادراً جداً .

ويرتدي الشكل العقلاني في المعرفة الفلسفية الطابع التقني والرمزي معاً ، كما يرتدي الطابع المدركي . إن التوجهات الفلسفية ، المتعارضة مع « المنطق الرمزي » الذي يتقنن الفلسفة ويشدد على الأشكال التأملية ، التناسبية والتجريبية . وفي الحالتين يسود الشكل الفردي .

ولا تنطرح مسألة بروز الأشكال على صعيد معرفة الحس السليم سواء أكانت متقننة أم مسيسة . وإن معرفة الآخر والنحن ، على قدر ما تصمد ، تستخدم أي شكل يساعدها على البقاء .

المصل العاشر

المعرفة المتوافقة مع المجتمع الفاشي التقني - البيروقراطي

نصل الآن إلى المجتمعات التقنوقراطية وإلى النظام المعرفي المتطابق معها . لقد أجريت التجارب الأولى لهذا النمط المجتمعي والبنوي قبل الحرب العالمية الثانية في كل من إيطاليا وألمانيا ثم في الأرجنتين . ولم يؤد انتصار الحلفاء العسكري ولا السقوط المتأخر لبيرون في الأرجنتين ، إلى القضاء السريع على النزعة المؤدية إلى هذه البنى .

يمكن للفاشية التقنوقراطية إن ترتدي اشكالاً بالغة الاختلاف ، كما تبين ذلك الأنظمة المقارنة بين فرانكو في إسبانيا وسالازار في البرتغال ، والنظام الذي حلم به - أو لا يزال يحلم به - أنصار منظمة الجيش السري في فرنسا . وبعد الحرب ، لم تقض سياسة الحلفاء على الخطر .

فمن جهة تكون البلدان الخاضعة لنظام الرأسمالية المنظمة في الغرب ، كما سبق أن لاحظنا ، تكون مهددة بالثورات الاجتماعية ، بقدر ما يكون هذا النظام هو السبيل الوحيد لوقايتها من الانفجار ، وينطبق هذا الكلام أيضاً على الولايات المتحدة مثلما ينطبق على ألمانيا الاتحادية (المألئ ببقايا الآثار النازية) وعلى فرنسا لاسيما في ظل الجمهورية الخامسة التي تمثل من زاوية معينة ، مرحلة بين الرأسمالية الموجهة وبين تفسير معين للفاشية التقنوقراطية .

ومن جهة ثانية ، يمكن ليقظة العروبة أن تشجع الفاشية التقنوقراطية :

فبالواقع تدعو ديكتاتورية عبد الناصر في مصر وديكتاتورية بن بللا في الجزائر -بعد الإستقلال- إلى التفكير بهذا النمط المجتمعي ، مع مزايا مختلفة، -وكذلك نظاما العراق وإيران، ومن المدهش أن البلدان التي لا شك في تخلفها تقنياً واقتصادياً. تبذل جهودها لحرق المراحل حتى تجتلب من الرأسمالية الموجهة نزعها إلى الفاشية.

سنكتفي بعرض موجز لهذا النمط البنيوي وما يقابله من نظام معرفي ، تاركين جانباً معظم التفاصيل الدقيقة ، وسنحيط بأمور عامة جداً من شأنها أن تساعدنا على إبراز السمات الأساسية للفاشية التقنوبيروقراطية المتعددة المعالم .

إنها تقوم في جوهرها على صهر كامل للدولة الكلاسية مع هيئات التخطيط الاقتصادي ومع مؤسسة الجيش التي تديرها جماعات تقنوقراطية . وهذه تتأني في أن واحد من الجيش نفسه ومن الجهاز الإداري الرفيع ، وعند اللزوم من التروستات والكراتلات والمصارف أو من « قدامى » منظمات « التحرير الوطني » (مثل قدامى جبهة التحرير الوطني) . الخ . وتكون الديكتاتورية والعبودية كبيرتين ، لدرجة أنه حتى عندما يجري التلاعب على سبيل الإستعراض الإعلاني (كما هو الحال في البلدان العربية) بالفاظ التسيير الذاتي العمالي والفلاحي ، يتحول التسيير الذاتي إلى نوع من عبودية المعنيين الذين هم بذلك ضحايا الخداع وأغواره .

إن الأحزاب السياسية والنقابات محظورة ، ما عدا الحزب الرسمي الأوحده الذي يقوده رئيس الدولة ذاته . فهذا الزعيم شبه الباهر الذي يتوج البناء يمكنه حسب الأشكال المختلفة لهذه البنية الا يكون سوى رجل من قش في أيدي التقنوقراط أو مصالح الرساميل والتروستات الأجنبية (فرانكو ، سالازار) أو رجل لعب دور الدهماوي - القائد للجماهير الفقيرة (هتلر ،

موسوليني) ، لكنه يستطيع كما فعل عبد الناصر وبن بللا وسواهما من الديكتاتوريين الآخرين ، الاعتماد على التسرع الذي تظهره الأمم الغنية لحرق كل مراحل الرأسمالية . دون التوقف عند اختيار الوسائل .

وأن إحدى هذه الوسائل هي التخصيص الإعتباطي والمطلق الذي يتبدل المستفيدون بتبدل الأحوال والذي تظل ضحاياه هي نفسها دائماً ، أما العمال والفلاحون وأما الجماعات الأثنية الأقلية . . . وليست الميثولوجيا الشوفينية والعنصرية سوى إحدى الستائر التي يتخفى وراءها الإستبداد الفاشي من مختلف الاتجاهات والمشارب ، وتميز أهمية الميثولوجيا والتعصب والشعارات الجو العام للنظام .

واليكم فيما يلي مزاياه الأساسية .

أ) عبودية جميع الطبقات الإجتماعية وكل التجمعات الخاصة ، على قدر ما تكون موجودة ، للدولة التي تخضع بدورها لسيطرة زمر أما تقنوبيروقراطية وأما عسكرية ، وأما « تحريرية قومية » ، الأمر الذي يمكنه إخفاء الخضوع للرأسمال القومي أو الدولي ، كما يمكنه أخفاء مقاومته .

ب) تجسيد إيلافات واسعة في الحقد أو في الغيوبة ، غالباً ما تستثار بشكل مصطنع . وهي تنافس من قبل جماهير سلبية واسعة النطاق ، مقهورة ومضللة .

ج) تكون أجهزة الدولة المنظمة في أيدي محيط الرئيس ، الحزب الواحد ، والشرطة القوية جداً (مثل « الغيستابو » النازي) . ويمكن للتقنيات المقرونة بالأساطير والشعارات والهلوسات ، إن تصب في تقنيات اختبارية كاملة . وتكون القاعدة المورفولوجية والبيئية ، المسيسة في جوهرها ، مسكونة بالتعصب والميثولوجيا (مثل المجال الحيوي -

Lebensraum - الشهير عند النازيين) . ويسير تكديس الثروات جنباً إلى جنب مع مصادرة ممتلكات الأخصام والجماعات الأثنية المضطهدة أو المباددة .

(د) تهبط الحقوق والأخلاق إلى المرتبة الأخيرة من هرم التنظيمات الاجتماعية ؛ وتنخفض التربية إلى الترويض باستثناء الفاشيات الدينية التي تضع التعليم الديني السلفي في المكانة الأولى ، مع الحفاظ على الجامعات التي أنشأها المستعمرون القدامى ، عندما تتقبل الأوهام والهذيان والشعارات الخاصة بالنظام الجديد وتشجع على انتشارها ، وإذا اعتبرنا الجو العام ، فمن السهولة بمكان أن نتخيل إلى أي حد في هذه الظروف يجد النظام المعرفي الخاص بهذه البنى ، نفسه ساقطاً ومقلوباً .

وقبل أن نجعل من ذلك موضوعاً لدراستنا ولكي نختم هذا التحليل الموجز ، نكتفي بالملاحظة أن النمط البيوي يكون أشد انفصلاً عن الظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة مما كانت عليه الرأسمالية الموجهة المنظمة ، وبالتالي ، على الرغم من كل جهود الفاشية التقنوقراطية لاستيعاب المجتمع الشامل برمته والهيمنة عليه ، فإنها لم تتوصل إلى الحد من الفارق ، الذي يظل كبيراً ، بين بنيته وهذا المجتمع . والظاهرة الاجتماعية الكلية المضمرة لا تتضمن جميع المقاومين والمضطهدين وحسب ، بل تتضمن أيضاً كل الجماعات والأحزاب المحظورة رسمياً ؛ وهي فضلاً عن ذلك تشتمل على الجمهور الأكبر من السكان التي تنجو من طغيان الهلوسات الهذيانية عند الزعماء الفاشيين ، فتواصل قدر الإمكان العيش في حياة عائلية ومتابعة الكدح اليومي . وكما سنرى ، يكمن في هذا الأمر كل ما يبقى من أنواع المعرفة وأشكالها بتأى عن مفاصد البنية الفاشية التقنوقراطية .

يمكننا الآن أن نحاول تحليل النظام المعرفي المقابل لهذه البنية .

I . إن سمته الأبرز هي عملية الصهر التام بين المعرفة السياسية

والمعرفة التقنية والمعرفة العلمية . لكن هذا الصهر يتحقق في ظروف لا ينطبق فيها حد العلم على أي من هذه الأنواع الثلاثة . فمن المؤكد أن المعرفة العلمية هي تلك التي تبدو الأكثر تشويهاً واختناقاً . لقد خسرت كل أثر علمي مستقل . وأما المعرفة التقنية بكل معنى الكلمة ، فهي مصابة في صميمها ولا تستمر إلا بقدر ما تكون خاضعة لسياسة الحكومة ويمكنها عند اللزوم أن تستخدم لأغراض الإيادة والحروب . وكذلك لا يمكننا الكلام عن معرفة سياسية حقيقية بهذا الأسم . نظراً لاستبعاد العلم الفعلي في الممارسة ، من البين أن تبقى معرفة سياسية فطرية : فهي تتجلى في الحث الإصطناعي للسكان ، كما تتجلى أيضاً في خيبة الأمل والقلق اللذين تشعر بهما البلدان الأجنبية التي تنخدع بـ « الأهداف السلمية » التي يعلنها ممثلو النظام فقط ليكسبوا الوقت اللازم لاستخدام اسلحتهم . ولا يزال من الممكن لحظ معرفة سياسية فطرية معينة في المكائد التي تحاك حول الزعيم أو في داخل الحزب الواحد . لكن عندئذ تنخفض إلى فن استخدام الكذب الواعي نسبياً ، فلا يبقى لها دور آخر سوى دور التبخير للعقيدة السياسية القائمة على ترتيب الشعارات وصف الهتافات والأساطير المضخمة زوراً وبهتاناً ، وعلى التعصب أخيراً ، وبقدر ما نستطيع اعتبارها بهذه الصفة ، فإن المعرفة هي تلك التي تهيمس في انصهارها الكلي مع « المعرفة التقنية » ومع « معرفة علمية » منحلة .

وكما شهد على ذلك زملاء المان وأيطاليون . لم يكن من الضروري أن يكون المرء مقاوماً ولا يهودياً ، حتى يطرد من الجامعات في ظل النازية أو الفاشية . فقد كان كافياً أن يرغب المرء في متابعة تعلم المعرفة التقنية أو المعرفة العلمية ، حتى المتقن ، دون أن يأخذ بالإعتبار الشعارات والخرافات والهلوسات الفاضحة للطغمة المسيطرة .

II . في هذه الظروف ، ليس مفاجئاً أن تكون المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، التي تحتل هنا المرتبة الثانية ، قد اخترقتها في العمق (وبقدر

ما تتوافق مع البنية) العناصر الغربية عن العلم والمسيسة بكاملها . ولا تظهر مركزية وملتبسة الأماكن التي يوضع فيها العالم الخارجي (وهي مركزية بالنسبة إلى بعض البلدان وملتبسة بالنسبة إلى البعض الآخر) وحسب ، ولا تظهر دورية أو مستبقة بالوهم الأزمنة الملازمة لهذه الأماكن فقط ، بل يمكن القول إن هذه المعرفة ، بمجملها ، تبدو كأنها مطبوعة بطابع العمائة التي تخفي منها إلى حد كبير ، واقع العالم الخارجي .

III . تأتي المعرفة الفلسفية ، المتقننة والمسيسة في آن ، في المرتبة الثالثة من هذا النظام المعرفي . وهي ليست سموحة إلا بقدر ما تبرر النظام بكل منعطفات سياسته . ومثال ذلك أن فلسفة هيدغر ، في ظل النظام النازي ، صارت على الرغم من وجوديتها الظاهرة ، تمجيداً للإنسان المتقاد ، في ليل الجهالة ، بالأنوار الزاهية التي يعكسها الفوهرر ومحيطه . بيد أن النازية فضلت تبريرات أسهل وأوضح ، تقوم مباشرة على الوضعية العنصرية .

ويبدولنا وضع المعرفة الفلسفية في الديكتاتوريات الفاشية العربية أكثر تعقيداً ليس لأنها لا تسهم ، هنا أيضاً ، في تبرير الإجراءات الحكومية ، بل لأنها تقترن فيها مع الفقه الإسلامي ؛ وليس من صلاحياتنا تفسير هذا الفقه .

IV . بيد أن معرفة الحس السليم ، الأخيرة في النظام المقابل للبنية ، تلعب دوراً كبيراً في الظاهرة الإجتماعية الكلية المضمرة ، لأن كل عناصر المجتمع غير المدرجة في النظام ، حتى وإن لم تكن مهددة مباشرة ، تستعين بهذا النوع المعرفي لكي تصون كل المعارف الأخرى من ليل العلم الذي يقودها النظام اليه ، بحيث أننا نكتشف هنا مجدداً المعرفة التقنية ، والمعرفة العلمية ، المعرفة السياسية ، المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، معرفة الآخر والنحن بكل معنى الكلمة ، غير الموجودة في النظام المعرفي الرسمي . وهكذا تغدو الظواهر الإجتماعية الكلية المضمرة هي القيمة حقاً على العلم ، بانتظار التحرير الذي سينهي الهذيان المهلوس الذي يضعه النظام المعرفي الرسمي .

أما اشكال المعرفة البارزة في المراتب المقابلة للبنية ، فإنها وحيدة الشكل بالنسبة لكل ما يتصل بالعلم . وهناك غيمة كثيفة من الأساطير الكاذبة من الصوفية الملفقة ، وصوغ المدارك ، من الرمزية والتأمل المحرف ، وأخيراً من الشكل الجماعي المفروض فرضاً مصطنعاً ، تضغط كل النظام المعرفي الرسمي أو شبه الرسمي .

إلا أن مختلف الأنواع المعرفية التي استطاعت الانفلات من سلطان النظام ، بفضل الظاهرة الإجتماعية الكلية المضمرة ، تكون في حالة تفاوت بالمقارنة مع البنية ، وتشدد على الأشكال العقلانية ، التجريبية ، الوضعية ، التناسبية ، وبالمفاضلة الأشكال الفردية ؛ ومع ذلك فهي لا تنجح في التحرر من طابع صوفي معين يجب عزوه إلى يأس جماعات المجهورين ، المؤمنين ، المقاومين أو المحكومين بالأيادة .

إن تجارب الأنظمة الفاشية الغربية - والتجارب الأحدث للديكتاتوريات العربية لم تدم إلا لأمد قصير نسبياً . ولا يمكننا أن نحلم دوماً ارتعاب بهذا الليل العلمي المرعب حيث يمكن للإنسانية أن تنغمس فيها لو استطاعت البنى التي حللناها بإيجاز ، أن تبقى ثابتة لمدة طويلة . . .

الفصل الحادي عشر

النظام المعرفي للدولانية الجماعية المركزية

إن روسيا السوفياتية منذ ثورة أكتوبر 1917 ، على الرغم من شتى تطورات النظام (بما في ذلك التطور الأخير) ، وإن الصين منذ 1949 ، وقبل نزاعاتها مع الاتحاد السوفياتي وبعدها ، و « الديمقراطية الشعبية » التي تنوعت منازعها غالباً (ما عدا يوغسلافيا التي أخذت تتجه منذ 1949 — 1950 إلى جماعية لا مركزية) تشكل كلها أمثلة على هذا النمط المجتمعي . ومن جهة ثانية لا تعتبر بنيتها ثابتة ونهائية في نظر ممثليها الأكثر صلاحية ، بل تعتبر « مرحلة » ضرورية نحو « المرحلة الثانية من الشيوعية » . وهذه لم تتحدد بدورها عند ماركس ولا عند تلاميذه ، الذين رأوا زوال الطبقات الاجتماعية و « انحلال الدولة في المجتمع » ، لكنهم امتنعوا عن إيضاح الطريقة التي يتوجب بمقتضاها أن ينبني هذا المجتمع وينتظم .

تعتبر المرحلة الأولى من الشيوعية مترتبة على ثورة اجتماعية كانت بوجه خاص جليلة في روسيا ، فتزال منها المنشآت الرأسمالية والطبقة البورجوازية . وتتلشى « السلطة المطلقة للربح الخاص » و « الإقطاع الصناعي » . وتعلن في بنية هذه المجتمعات الطبقة البروليتارية ، وحيدة أو متحدة مع طبقة الفلاحين ، طبقة « ديكتاتورية » رسمياً . بيد أن هذه الديكتاتورية لا يمارسها المعنيون أنفسهم بل يمارسها الحزب الشيوعي الذي أصبح الجهاز الأعلى في الدولة ، الجهاز المولج بمراقبة التخطيط الشامل للإقتصاد ، وتنفيذ

الخطط ، وأخيراً « الخط السياسي » و « الخط الأيديولوجي » لكل الأجهزة العامة ، بما في ذلك النقابات المدولة ، وصولاً إلى الجمعيات المقبولة والمشجعة ، كجمعية الكتاب مثلاً . إن أجهزة التخطيط الإقتصادي التي تضع المخططات وتراقب تنفيذها ، ذات أهمية كبيرة جداً ، ولكن لا يتمثل فيها مباشرة لا العمال ولا الفلاحون ولا جمهور المستهلكين العريض .

إن التقنوقراطية الصناعية والإدارية والعسكرية والتخطيطية ، على الرغم من كونها أصبحت قوية جداً في ظل ديكتاتورية ستالين الشخصية . فقد استمرت منذ وفاته وتصفية اسطورته ، مطيعة للدولة ولجهازها الأعلى الحزب الشيوعي ، وللنقابات أيضاً . إن اللامركزية الإقليمية لأجهزة التخطيط الإقتصادي ، الطارئة منذ بضع سنوات ، وأن الديمقراطية الجارية على مستوى السوفييات الأعلى للإتحاد السوفياتي ، وديمقراطية الحزب الشيوعي ذاته (الذي يتزايد عدد اعضائه دون انقطاع) ، وأخيراً السياسة الخارجية القائمة على « التعايش السلمي » (هي الدلائل المبشرة بتبدلات عميقة تنهياً في هذه البنية . ويمكن لضغط الصين وحده (على الرغم من تأخرها عن الإتحاد السوفياتي في كل الجوانب) أن تبطئ سرعة هذا المسار ، وتدور المسائل المطروحة في الصين حول ثورة قومية آسيوية أكثر مما تدور حول ثورة اجتماعية ، وعناصر الثورة الاجتماعية تعتبر ثانوية في هذه الثورة القومية .

ليس في واردنا من جهة ثانية القول أن رقابة المعنيين المباشرة قد تحققت في الإتحاد السوفياتي (ما عدا الكولخوزات) حيث أنه ينبغي حتى على هيئات الحزب الشيوعي النضال ضد السلطة المفرطة التي يمارسها « رجال الجهاز » داخل الحزب . أن الحرية والديمقراطية الفعليتين ، سواء على الصعيد الإقتصادي لتخطيط العمل الصناعي أم على الصعيد السياسي والثقافي ، تظهران فقط في أفق أقرب فأقرب . وليس تحقيقهما الكامل مأمولاً إلا في « المرحلة الثانية من الشيوعية » المعلنة عنها كمرحلة قريبة . إلا أن المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الذي لم تلغ قراراته مع سقوط خروتشيف ، كان قد

دعا إلى « تسيير الجماهير ذاتها مباشرة » وإلى « التبديل الدوري للقادة » ، وأعرب عن التمني بتحقيق ذلك كله في أشكال مباشرة أكثر ويستطيع الجميع مراقبتها . لكن لا بد من الصبر . . .
فلنوجز هذه البنية .

إن الدولة التي يسودها الحزب الشيوعي ، تخترق في العمق كل الحياة الاقتصادية ، وتهيمن على كل التجمعات الخاصة ، سواء كانت رسمية أو مقبولة فقط ، ولندكر عن التجمعات الرسمية المصانع والمنشآت ، النقابات ، المتاجر ، تجمعات الشبيبة (كوسمول) . التجمعات المحلية ، السوفكوز الخ . ولندكر من التجمعات الخاصة المقبولة ، التجمعات العلمية والثقافية ، جمعية الكتاب . وكذلك الكنيسة الأرثوذكسية ، بأديرتها ومنتدياتها ، وكذلك كل المنظمات الأخرى المذهبية (ومنها الهيئات الملتزمة بالإسلام) . كما تسود الدولة على الطبقات الثلاث الأساسية الحاضرة ، البروليتارية ، الفلاحين (60% من السكان) ، الطبقة التقنى بيروقراطية ذات الشرائح المتعددة والمتنوعة . وتعتبر طبقة الفلاحين هي الأقل خضوعاً . ومرد ذلك في آن إلى كونها الطبقة الأكثر عدداً بين الطبقات كافة ، وأنها في معظمها منتظمة في الكولخوزات التي تدار ذاتياً ، وأنها تهيمن في كل مراتب الجيش الأحمر ، وكونها أخيراً الأكثر إخلاصاً للمعتقدات الدينية الأرثوذكسية .

أما الطبقة البروليتارية - التي شكلت الرافع الأساسي لثورة أكتوبر ، بفضل « مجالس القاعدة » التي استولت على السلطة في المصانع والتي جرى حلها بعد ذلك - فهي بعكس ذلك ، على الرغم من الكلام بإسمها ، تجدد نفسها في وضع من الحرمان غير المرتقب ، إذ ليس للنقابات حرية عمل كافية ، واللجان العمالية المتسحدثة لا تمارس سوى « وظائف إعلامية » . وترجم الترقية البروليتارية أساسياً في الإمكانية المتاحة أمام الأكثر طاعة وموهبة لاجتياز كل مراتب التعليم مجاناً ، الأمر الذي يقودها إلى مغادرة الطبقة العاملة ؛ أو في إلزام الدولة بتوفير العمل لكل عامل ومنع إدارة المصنع أو

المنشأة من تسريح العامل بدون سبب خطير ؛ يضاف إلى ذلك الحق المستحدث والمعترف لكل عامل بتقديم شكوى للمحاكم عن تجاوزات السلطة المرتكبة بحقه من قبل مدير المصنع الذي يعمل فيه .

ومن الوجهة الميكرواجتماعية ، تكون النحن اشد بروزاً من العلاقات مع الآخر ، وتكون في مجمل السكان سلبية تارة وفاعلة تارة أخرى وفقاً للأوضاع والظروف . ففي الطبقة البروليتارية تكون الجماهير فاعلة ، إلى جانب المتحدرات ، التي تبرز في المصانع والنقابات ، في اللجان العمالية وصحفهم المعلنة على جدران المشاغل . أما الطبقة الفلاحية ، بقدر ما تفصح عن نفسها في « الكولخوزات » ، تهيمن المتحدرات الناشطة فيها ، وتلاحظ الجماهيات الناشطة في مختلف جماعات الطبقة التقنوبروقراطية من جهة ، وفي بعض الشرائح داخل الحزب الشيوعي ، لا سيما في ظروف خاصة ، من جهة ثانية .

أما بخصوص المراتب في العمق ، فإن الخطط المركزية او اللامركزية ، المتعلقة فقط بالاقتصاد وأيضاً بخلق « الإنسان الجديد » ، والتي تشكل نظاماً من الرموز والمثل الخاصة ، فهي في قمة الهرم . تأتي بعدها الأجهزة المنظمة في الحزب والدولة ، وهيئات التخطيط الخ . وأخيراً تلعب دوراً هاماً القاعدة السكانية - البيئية ، المتغيرة وفقاً للدول والمناطق في الاتحاد السوفياتي ، والتي اتسعت كثيراً خلال العقد الأخير في اتجاه الميادين الكونية .

إن تقسيم العمل التقني المترابط مع تقسيم العمل الاجتماعي ، والمتطورين كليهما على أثر التقدم الكبير الذي أحرزه التصنيع والأتمتة ، لا يزالان واسعين بفضل اقترانهما مع المخططات . ويتحقق التراكم بوجه خاص في الصناعة الثقيلة والطاقة الذرية والأجهزة الإلكترونية والكونية الفضائية .

ونجد في سياق التنظيمات الاجتماعية المعرفة أولاً (الفلسفية والسياسية بادئاً ، العلمية والتقنية تالياً ، كما سنرى ذلك عما قريب) ، وأخلاقية الصور

الرمزية للتمثل والإبداع والتربية والتعليم ثانياً ، والحقوق والفنون والفن الأدبي خصوصاً ، وأخيراً .

إن الحضارة الجديدة تبحث عن التوليف ، قدر الإمكان ، بين إنسانية متسعة وبين التقنية ، وهذه مهمة صعبة جداً يستلزم تحقيقها جهوداً كبيرة ومتواصلة .

يمكننا الآن تناول تحليل المنظومة المعرفية المتطابقة مع هذا النمط البنيوي والمجمعي الشامل .

I . نجد في المرتبة الأولى المعرفة السياسية العقائدية والمعرفة الفلسفية اللتين يجري العمل للربط بينهما ، وهذا الربط ، بدوره ، ميسر بفضل الهيمنة التي يمارسها التراث المعرفي الماركسي - اللينيني . إلا أن الماركسية ، سواء بجانبها الفلسفي أم بجانبها العقيدي الاجتماعي - السياسي ، إذ تتقبل التأويلات المتنوعة جداً ، لم تكن قادرة أبداً على مجانبة كثرة التوجهات الفلسفية والسياسية العقائدية ، على الرغم من جهود الحزب ، وبالتالي يلاحظ في الإتحاد السوفياتي ، على اختلاف المراحل والظروف ، بروز اتجاهات مختلفة في الماركسية - اللينينية التي لم تصبح دوغمائية كما يشاع عنها ، وذلك على الرغم من التعليم الإلزامي لـ « Diamat » (المادية التاريخية) لكل طلاب السنة الأولى في الجامعات . من الواضح أننا لا نستطيع الدخول في التفاصيل . وأن ما يهمنا هنا هو كون الحاجة إلى معرفة فلسفية (حتى إذا انكرت وحدة المادية الجدلية) هي حاجة حية جداً وعميقة في النظام المعرفي هذا .

إن هذه النزعة إلى الربط بين المعرفة الفلسفية والمعرفة الاجتماعية - السياسية المتبلورة في عقيدة ، تستحق تحليلاً خاصاً . فالمعرفة الفلسفية حتى حين تنزع إلى الانفصال « لاضحك ولا بكاء » على حد تعبير

سبينوزا) ، تظل مع ذلك معرفة متحيزة ، كما استخلصنا ذلك سابقاً . ففي النظام المعرفي هذا ، يرتبط الطابع التحزبي باتخاذ موقف سياسي . ولكن بما أن المعرفة الاجتماعية - السياسية ، المتبلورة أو المفطورة تكون خاضعة ، فيما يختص بها ، لاتخاذ هذا الموقف بالذات ، فيترتب على ذلك تسييس شديد للمعرفة الفلسفية . بيد أن المسائل التي تطرح حالياً في الإتحاد السوفياتي لم يتوقعها ماركس أو لينين ، فتتزع المعرفة الاجتماعية ، السياسية حالياً ، إلى الإنسلاخ عن المعرفة الفلسفية ، على مراحل . وبقدر ما تبذل الجهود للربط بينهما بأي ثمن ، يترتب على ذلك جهود عقائدي يؤدي المعرفتين معاً . . . ومن هذه المواجهة ، فإن المعرفة السياسية العفوية البالغة التنوع وفقاً لشرائح الحزب الشيوعي الكثيرة ، ووفقاً للطبقات الاجتماعية والظروف والأوضاع ، تكتسب أولوية غير مرتقبة ، إن النزاعات مع الصين والحركة نحو تصفية الستالينية نهائية ، ونحو الديمقراطية ، والإدارة الطموحة في المجتمع الشيوعي للحفاظ على السلام في العالم ، إنما تميل إلى تصفية الجمود العقائدي على صعيد المعرفة السياسية والمعرفة الفلسفية معاً . وأن هذا الطموح الفكري هو نقيض الطموح المميز للتوتاليتارية الفاشية ، في ذلك توتاليتارية البلدان العربية المتحررة حديثاً . ومن هذه الزاوية ، تشكل كل محاولة تقريب بين المعرفة المتوافقة مع الدولانية الجماعية المركزية وبين المعرفة الخاصة بالتوتاليتارية ، خطأ جوهرياً .

II . تأتي المعرفة العلمية في المرتبة الثانية ؛ وهي لا تنهاى ، كما في مجتمعات الرأسمالية الموجهة مع المعرفة التقنية . وهذا يفسر بكون روسيا ، في اثناء ثورة اكتوبر 1917 ، بلداً متخلفاً من الوجهة التقنية ، وبكون العلوم الصحيحة والطبيعية ومختبراتها قد نعمت بمساعدة ودعم خاصين من جانب الحكومة السوفياتية ، ولقد صار هذا الدعم تقليداً لا يزال مستمراً حتى أيامنا هذه . فهذه العلوم تعتبر كعلوم لا سياسية في جوهرها . وما تجدر ملاحظته ، على الرغم من التطور الواسع عدداً ونوعاً ، الذي شهدته جامعات كل مناطق

الإتحاد السوفياتي ، إن العلوم الصحيحة والطبيعية قد احتفظت بالأولوية في التعليم وفي البحوث ، ليس فقط بالمقارنة مع علوم الإنسان (حيث تقدم التاريخ وعلم الأنام فقط) ، بل أيضاً بالمقارنة مع المعرفة التقنية . ومهما بدا ذلك متناقضاً ، فإن المجتمعات الشيوعية تذكرنا من حيث نظامها المعرفي بالمجتمعات الديمقراطية الحرة ، أكثر مما تذكرنا بمجتمعات الرأسمالية الموجهة . وليس من المستحيل ، من جهة ثانية ، بعد ما تم بلوغ المستوى التقني للبلدان الغربية حالياً ، أن يتواصل الربط والصهر بين المعرفة العلمية والمعرفة التقنية . ولكن الحال ليس كذلك حتى الآن .

III . وعليه ، ففي الإتحاد السوفياتي والمجتمعات الشيوعية الأخرى ، لا تحتل المعرفة التقنية إلا المرتبة الثالثة ، وتظل ملحقة بالعلم . وهذه السمة تثير الدهشة حتى في المجال الذي يكون فيه الإتحاد السوفياتي معتبراً ، حقاً ، كأنه بلد طليعي ، نعني مجال المواصلات بين الكواكب والأجهزة وفنون الملاحة الجوية ، والآلات والصواريخ العابرة للقارات ، وتحفظ علوم الفلك والفيزياء والكيمياء الخ ، بالرقابة . ومن جهة ثانية ، فإن عدد المهندسين المتخرجين من المعاهد العليا للتعليم التقني ، لأجل رفع الإنتاجية الصناعية ، هو عدد مدهش حقاً ويتزايد تزايداً كبيراً كل عام لكن المعرفة العلمية تلعب حتى في تأهيل هؤلاء المهندسين ، دوراً أهم من الدور الذي تلعبه في بلدان الغرب .

IV . في المقام الرابع نجد المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، التي تحظى بأهمية وانتشار أعظم مما تحظى به في معظم المجتمعات الأخرى ، سواء لأنها تتعلق بآسيا وأمريكا وأوروبا وأفريقيا ، أم لأنها تعتبر بجاذبيتها أكثر مما هي عليه في أي مكان آخر . وهي بالتالي أقل غرضية وتسيساً مما هي عليه في نظام الرأسمالية المنظمة ، واستطراداً في الأنظمة الفاشية .

V . تلي ذلك معرفة الآخر والنحن . ومعرفة النحن هي بكل وضوح أكثر وأعم من معرفة الآخر . وهي راسخة الأقدام خصوصاً في المشاغل

والمصانع ، في أجهزة التخطيط وفي هيئات الحزب ، كما في الشرائح المتصارعة داخله ، وأخيراً ، تلاحظ هذه المعرفة داخل النقابات والهيئات العمالية من جهة . وفي الكولخوزات من جهة ثانية .

في المقابل ، تلجأ معرفة الآخر إلى الحياة الحميمة داخل الأسر - المنزلية التي لا تزال شديدة التدامج ، وذلك ليس بدون أبوية معينة . كما نجدها في الكولخوزات الصغيرة النطاق . وأما في كل الجماعات الأخرى ، والمصالح العامة ، ووحدات الجيش ، والأوساط والطبقات الاجتماعية أخيراً ، فإن معرفة الآخر لا تزال ، على قدر وجودها ، معرفة سرية ، نظراً لأن قوالب الآخر مفروضة رسمياً ، مثل قالب الإنسان السوفياتي المخلص 100% للنظام ، للحزب ، لقضية الشيوعية ، والمفعم بالحماس لكل ما يعتبر انجازاً وكسباً . ويمكن التساؤل عما إذا كان المقصود بذلك هو الآخر المحسوس والمنفرد .

VI. يجب وضع معرفة الحس السليم في آخر مراتب هذا النظام المعرفي . فانتشارها مع ذلك كبير لا سيما في أوساط الريفيين والعائلات الفلاحية . وتعمل معرفة الحس السليم بكثافة معينة في الكولخوزات حيث تستوعب غالباً عناصر معرفية تقنية ومعرفية سياسية فطرية ، أما في الجماعات والأوساط الأخرى ما عدا العائلات المنزلية ، فإنها توجد بالكاد . وتتجلى بشكل نادر .

وبخصوص الأشكال المعرفية البارزة في هذه المنظومة المعرفية . يحدث للمعرفة الفلسفية والسياسية العقيدة أن تفسح المجال لتغلغل بعض العناصر الصوفية ، وذلك على الرغم من عقلانيتها المناضلة . وهي مع ذلك تشجع الأشكال المدركة ، التأملية ، الرمزية والجماعية ، التي يحد منها أحياناً الشكل التجريبي والنزوع إلى الشكل المناسب . ففي المعرفة العلمية ، يسود الشكل العقلاني بدون شك ، في حين أن الأشكال المدركة والتجريبية ، الوضعية والتأملية ، الرمزية والتناسبية ، الجماعية والفردية ، تبدو متكاملة .

والوضع عينه في المعرفة التقنية والمعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، وأن معرفة الآخر مدينةً للقبول الجاهزة - المذكورة آنفاً - والمفروضة عليها ، ببروز الأشكال الرمزية والمدركية . وأما معرفة الحس السليم فتسودها ، حسب القاعدة العامة ، الأشكال الوضعية ، التجريبية ، الرمزية والجماعية .

في ختام تلخيصنا للنظام المعرفي المتطابق مع المجتمعات التي تتمثل بنيتها في الدولانية الجماعية المركزية ، يمكن القول أن مراتب الأنواع المعرفية (إذا لم نأخذ بالإعتبار معرفة الآخر الجاهزة في قبول) تفسح في الأمل بتقدم ثابت وسريع لمعظم فروع المعرفة ، وذلك على قدر استمرار تعليمها المعمق وتعميمها الواسع جداً . ولكن هذا النظام يتضمن عيباً خطيراً يكمن في الربط بين عقيدة سياسية خاصة وتوجه فلسفي خاص ، وكلاهما مفروض بشكل صناعي ، في صورة متبلورة ومتبدلة في آن واحد . وبالتالي ، يتعرض هذان النوعان المعرفيان تعرضاً خطيراً للتشويه والتحريف من جانب دوغمائية تخضعهما لـ « شعارات » مفروضة من فوق . ومن المناسب إذن التساؤل عما إذا كانت بنية جماعية مستصلحة بشكل آخر ، لا تستطيع أن تؤدي في مستقبل قريب نسبياً ، إلى نظام معرفي متحرر من عيوب كهذه ، ومستقل كلياً . إن الأمر يتعلق بالجماعية اللامركزية ، القائمة على التسيير الذاتي يمارسه جميع المعنيين .

الفصل الثاني عشر

النظام المعرفي للجماعية التعددية اللامركزية

ليس المراد في نظرنا غمطاً مجتمعيّاً وبنوياً مثالياً ، إطلاقاً . وليس المقصود أيضاً وبالضرورة المرحلة الثانية من الشيوعية « ؛ ومن جهة ثانية ليس في واردنا التساؤل عما إذا كان التوصل إليها يستوجب على كل البلدان أن تجري تجربة « المرحلة الشيوعية الأولى » . ولكن ، لأجل الانتقال من الرأسمالية الموجهة والمنظمة ، واستطراداً من التقنوقراطية الفاشية ، الى بنية المجتمعات المخططة وفقاً لمبادئ الجماعة التعددية اللامركزية ، القائمة على التسيير الذاتي من جانب المعنيين ، يبدو لنا من الصعب اجتناب الثورات الاجتماعية . وهذه يمكنها بدورها أن ترتدي اشكالاً متنوعة جداً ، وفقاً للبلدان التي ستحدث فيها ، ومن المؤكد أنها قد لا ترتدي الطابع عينه في البلدان الشمالية أو في بريطانيا (التي كان تطورها الاجتماعي السياسي ذا خصوصية مذهشة دائماً) الذي سترتديه في الولايات المتحدة وفرنسا وأميركا اللاتينية الخ . كذلك فإن الفروقات قد تزداد بروزاً فيما بين البلدان الآسيوية ، كالهند واليابان مثلاً ، والفيتنام الشمالية والجنوبية أو أندونيسيا ، دون الكلام عن الصين حيث ينتصر حالياً اثنان : الشيوعية المركزية القومية الآسيوية المناضلة . في المقابل ، لا سبيل للشك في أن البلدان التي تطرح كثيراً من المسائل في « العالم الثالث » قد تنجح نجاحاً خارقاً في حرق المراحل ، وذلك بتحررها من الهيمنة الاقتصادية للبلدان الغربية ، فتصل من خلال أشكائها الخاصة بالثورة الاجتماعية إلى تفسيرات خصوصية لـ « الجماعة اللامركزية » .

مما لا شك فيه أن النمط المجتمعي والبنوي الذي تناوله هنا والذي يتضمن كثرة من الأنماط الثانوية ، لم يجز اختباره بعد حتى النهاية ، أي أنه لم يختبر اختباراً كاملاً وفعلياً ، حتى في أوروبا ، حيث أجريت بعض المحاولات المحدودة جداً ، في هذا الاتجاه .

إلا أنه لا مناص للجماعية اللامركزية من الانخفاض انخفاضاً كبيراً إلى بناء ذهني عفوي أو إلى مثال كان برودون رائده ، وهو مثال واقعي أكثر بكثير مما يتخيل عموماً . فالجماعية اللامركزية تبرمج المنازع الواقعية وحتى أنها تقودها إلى متنهاها ، وهذه المنازع ملحوظة اليوم في بعض الديمقراطيات الشعبية ، خصوصاً في يوغسلافيا (منذ تصفية الستالينية عام 1948) حيث جرى ، على الرغم من سلسلة عقبات ومصاعب ، الحصول على نتائج هامة للتسيير الذاتي والجماعية اللامركزية . وفي الأعوام الأخيرة ، بدأت بولونيا وهنغاريا تنهجان سبيلاً مماثلاً ، يبدو أنه يغوي تشيكوسلوفاكيا منذ أمد قريب أيضاً . حتى في الاتحاد السوفياتي ، بعد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب ، وبقيادة خروتشيف ومنذ سقوطه ، وفي الوقت الحاضر ، تبدو النزعة ذاتها ترسخ أقدامها أكثر فأكثر . ولو بشكل غير ملموس بعد . وأخيراً في بعض البلدان الشمالية التي لم تمر بعد بثورات اجتماعية ، كالسويد والنرويج ، وبالأخص كفلندا التي يبرز فيها نفوذ الاتحاد السوفياتي بروتاً قوياً بحكم جواره المباشر لها ، فإن الشيوعية المركزية قد تحسنت تحسناً ملحوظاً من جراء الإقتران بين التخطيط والتسيير الذاتي .

فلنوضح باختصار سمات الجماعية التعددية اللامركزية ، كما بدأت بالبروز من خلال شتى النزعات التي أخذت ترتسم حالياً .

إن المقصود جوهرياً ، هو البحث عن توازن - ينبغي أقامته ومعاودة أقامته دون انقطاع - بين الدولة الجماعية الديمقراطية والتخطيط الإقتصادي القائم على التسيير الذاتي لكل العمال والمزارعين ، نظراً لأن التقنيين بحصر المعنى خاضعون للرقابة المضاعفة من هذه الدولة ومن المنظمة الإقتصادية التي

قد تكون مستقلة عنها ، والتي سيديرها العمال والمزارعون أنفسهم . هذا بالذات اكتشفه برودون بطريقة عبقرية وهو يبحث عن كيفية تمكن « الديمقراطية الاقتصادية » و « الديمقراطية السياسية » من التعاون معاً و « التوازن طردياً » . من الواضح أن ديمقراطية الدولة الجماعية يفترض أولاً الرجوع على الأقل إلى حزين إن لم نقل إلى عدة أحزاب سياسية ، معززة بارتباطها واتصالها بالتقسيمات الجديدة لـ « الديمقراطية الاقتصادية » ، وهذه تستلزم بدورها قيام فدرالية اقتصادية تمتاز على الأقل بأربع سمات مختلفة للوصول إلى مشاركة وإدارة جميع المعنيين : نعني ،

1 = فدرالية المشاغل ، المصانع ، المنشآت الصناعية ، فدراليتها كلها مع المنظمات الزراعية كافة (« تعاونيات الإنتاج الزراعي » ، « الكولخوزات » ، « الزادروغات » الخ .) المجتمعة بدورها في إتحادات ؛

2 = فدرالية اقتصادية ، مكونة حسب المناطق ومشملة في آن واحد على الصناعة والزراعة مجتمعتين ؛

3. = فدرالية التخطيطات حسب المنشآت والأحياء ، ومآلها فدرالية موحدة تبلغ ذروتها في خطة اقتصادية جامعة لكل البلد ؛

4 = ملكية فدرالية لوسائل الإنتاج الصناعي والزراعي ، التي ستعود بذلك وفي وقت واحد إلى كل المجتمع الاقتصادي ، وإلى كل منطقة ، وكل فرع من فروع الصناعة والزراعة ، وكل جماعة خاصة من العمال والمزارعين ، وأخيراً لكل من يشارك في المسار الاقتصادي ؛ ويكون الانسحاب الفردي أو الجماعي من هذه الملكية الجماعية غير ملغ بكل وضوح لهذه الملكية ، ولا تتعين نتائجه إلا بالنسبة إلى الأفراد أو الجماعات الذين قاموا به ، فهذه الملكية الفدرالية ، التي تكفلها الدولة الجماعية ، كما يكفلها التخطيط الاقتصادي للبلد بأسره ، على الرغم من فدرالية الخطط ، هي ملكية لا تقبل الحل ولا أي رفض ممكن .

إن أجهزة التسيير الذاتي العمالي والفلاحي تبدأ بـ مجالس الرقابة ،
المكملة بـ مجالس الإدارة والإنتاجية ، التي يكون مديرو المنشآت مسؤولين
أمامها ، ويمكن لهذه المجالس أن تبعدهم من مناصبهم دائماً . وبلي ذلك
المجالس الاقتصادية الإقليمية ، المسؤولة عن التخطيط ، والمكونة من ممثلين
عن مجالس الإدارة والإنتاجية ، ومن عدد أقل من ممثلي المديرين الفنيين
والمستهلكين والحكومة السياسية . وأخيراً ، هناك المجلس الاقتصادي
المركزي للبلاد ، الذي تنتسب إليه جميع المجالس الإقليمية ، وحيث يجب أن
يعود القرار إلى العمال والفلاحين ، المتدبين من مجالس الإدارة والإنتاجية
الذين يشكلون الأكثرية ، لأنه في هذا المجلس الاقتصادي المركزي الذي
يضع الخطة الاقتصادية الشاملة ، لا يمثل ممثلو الحكومة السياسية وممثلو الفنيين
سوى الأقلية من حيث المبدأ .

إن المصاعب التي واجهها التسيير الذاتي والتخطيط في يوغسلافيا ،
والمنسوبة غالباً إلى اللامبالاة أن لم نقل إلى المنشآت الزراعية (زادروغات
Zadrugas) ، إنما يمكن عزوها ، برأينا ، في الواقع إلى انعدام الربط بين
أجهزة التخطيط وأجهزة التسيير الذاتي . وبالتالي ، في جهاز التخطيط
المركزي ، المكون من الحكومة السياسية ، لا يشكل ممثلو العمال والفلاحين
سوى عدد ضئيل جداً ، وهم لا ينتخبون دورياً من قبل مجالس الرقابة
والإدارة في المنشآت الصناعية والزراعية .

ويمكن لحظ الوضع نفسه في مجالس التخطيط الإقليمية ، ونعتقد أن
إصلاحاً عميقاً لتركيبه هيئات التخطيط يمكنه وحده أن يسمح للجمعية
اللامركزية ، في بداياتها ، بأن تتحقق كلياً في يوغسلافيا . سواء على الصعيد
الاقتصادي أولاً ، أم على صعيد البنية الشاملة ، ثانياً .

نستخلص من كل ما تقدم عرضه بكل وضوح أن الأمر في هذا النمط

المجتمعي لا يتعلق بمسألة زوال الدولة السياسية . ولكن بما أن الدولة ذاتها لا مركزية ، وأنها من حيث المبدأ على الأقل محدودة الوظائف ، فإنها تسعى للبحث عن توازن مع التنظيم الإقتصادي المستقل الذي يمسك بمقاليده الملكية الفدرالية لوسائل الإنتاج .

فالمسألة هنا تثار حول معرفة نوع تنظيم الحكومة السياسية في ظل نظام كهذا ، وتبعد عدة حلول ممكنة ، وفقاً لظروف البلدان المعنية وتقاليدها . فمن الممكن أن نتصور تمثيلاً سياسياً قائماً على تفوق البلديات والمناطق ؛ أو أن نتصور تمثيلاً للمهن والوظائف الممارسة : ومهما يكن الأمر ، أن ما يفرض نفسه ، هو إصلاح عميق للحكومة السياسية التي تحتفظ ، على الرغم من حصرها من جانب الحكومة الإقتصادية في بعض وظائفها القديمة ، المرتكزة على التسيير الذاتي والملكية الإتحادية ، تحتفظ بالكلمة الأخيرة في موضوع السياسة الخارجية والقوة العسكرية .

وفي كل الأحوال ، لا بد من وجود هيئات قضائية نزيهة ، مدعوة للفصل في النزاعات الممكنة بين التنظيمين والحكومتين ، لأجل حسن سير النظام المقصود . فلنلخص بإيجاز شديد السمات الرئيسة للجماعية التعددية اللامركزية .

أ (تعادل التنظيم الإقتصادي المخطط والدولة السياسية الجماعية ، اللذين يتبادلان المراقبة والتوازن ؛ فكلاهما قائم على ديمقراطية تامة .

ب (زوال الطبقات الإجتماعية القديمة وظهور طبقات اجتماعية جديدة ، نازعة إلى التوافق مع مختلف الوظائف أو المهن ، وتحظى بتعويضات مختلفة الأنواع ، من شأنها أن تؤكد وتحافظ على المساواة فيما بينها ، وجود حزبين أو عدة أحزاب سياسية ، متصلة بالطبقات الإجتماعية الجديدة أو بالأحياء والمناطق .

ج) من الزاوية الميكرو إجتماعية ، هيمنة التحديات والجماعيات الناشطة . التي تبعد بروز الجماهير قدر الإمكان .

د) في عداد المراتب في العمق ، تأتي أولاً التخطيطات التي يضعها المعنيون أنفسهم والتي تكون مسكونة بالأفكار والقيم الإبداعية ؛ ثم يلي ذلك الأدوار الإجتماعية المبتكرة وغير المرتقبة ، والتنظيمات الإقتصادية والسياسية المفتوحة أمام الجميع ، والأحكام القضائية ، غير الموضوعة وفقاً لنماذج أو قواعد ، بل المستعينة خاصة بالقانون العفوي الحي . إن القاعدة البيئية المورفولوجية ، المتحولة بعمق عن طريق هذه العناصر كلها ، وأيضاً عن طريق تطوير تقنية متكاملة أكثر فأكثر ، ليس لها سوى أهمية ثانوية .

هـ) هناك حضارة جديدة تنتصر ، حيث ينجح الإنسان ، النحن ، الجماعات ، البنى في إعادة وضع اليد والسيطرة كلباً على التقنيات الأكثر تقدماً والآلات الأشد قوة . ويستبعد خطر التقنوقراطية ، ليس بفضل التسيير الذاتي لكل المعنيين وبفضل القوة الخاصة بهذه البنية وحسب ، بل أيضاً بفضل انتصار الإنسانية على التقنوية . إن أنسنة كل تقنية بحدود الممكن ، هوذا توجه الجماعة اللامركزية .

يمكننا الآن رسم الخطوط الأساسية للنظام المعرفي التي من شأنها أن تتوافق مع هذا النمط النبوي والمجتمعي .

إن ما يميز هذا النظام ، بالإضافة اللاتسيسي الشديد الذي سبقت الإشارة إليه في معظم الأنواع المعرفية ، هو أولاً ترقى معرفة الآخر والنحن بشكل لا مثيل له سابقاً ؛ وهو ثانياً تصفية الجمود العقائدية في المعرفة الفلسفية ، المتحررة من كل إكراه ، بحيث تصبح مجدداً تعددية الاتجاهات ، وهو ثالثاً أخيراً الإستقلال الكبير للمعرفة العلمية بالمقارنة مع العلم التقني الذي تسهم في أنسنته ، بينما ترفع علوم الإنسان إلى مرتبة مساوية ، إن لم نقل أرفع ، من مرتبة علوم الطبيعة .

I . في هذا الهرم لمراتب الأنواع المعرفية، تحتل المعرفة الفلسفية من جهة ، ومعرفة الآخر والنحن من جهة ثانية ، المكانة الأولى ، تارة بالتوكيد على تكاملهما ، وتارة باقترانها وتداخلهما ودخولهما في علاقات تضمين متبادل ، لكنه من النادر جداً أن تدخل في حركة تنافس وأن تتبلورا في قطبين ، بحيث يكون كل حاجز مصطنع بين علوم الإنسان والفلسفة ملغى سلفاً .

إن المعرفة الفلسفية مهما يكن اتجاهها ، لم تعد مخفوضة إلى التأمل المحض في المعرفة العلمية أو في أي نوع علمي آخر . فما أصبح الآن موضوعاً للتأمل هو كل فعل وكل حالة ذهنية ، وكل وعي فردي وجماعي ، منغمس في صميم حقيقة العالم بالذات ، وقبل كل شيء في الواقع الاجتماعي الذي يشارك فيه ، وأخيراً كل ما هو خلق ، تقرير ، خيار وتحقق إبداعي ، وباختصار كل تحول للعالم الاجتماعي ولعالم الطبيعة على سواء . وعليه ، فإن كون الفلسفة معرفة من الدرجة الثانية حتى من الدرجة الثالثة أحياناً ، لم يعد قادراً على إبعادها من تأدية مهمتها الأولى : مهمة الإنسانية العميقة التي تربطها بكليات لا متناهية وواقعية ، حيث يجد الناس والنحن والجماعات والطبقات والمجتمعات الشاملة ، أنفسهم مندججين في الخلق المتواصل وهم يشتركون في التمويل . ويمكننا تقديم تفسيرات شتى لهذه الإنسانية الواقعية ، ولكن لا يمكن انتزاعها من أي معتقد فلسفي يرفض الركض وراء الظلال أو الأوهام . وهكذا تكون الطريق مفتوحة ليس فقط أمام الأصولية ، بل أيضاً أمام الأنطولوجيا والديونطولوجيا ، وذلك بشرط واحد هو التخلي عن الطبعانية والروحانية والمادية . وبالطبع عن الوضعية ، فالمعرفة الفلسفية موجودة هنا لكي تفتح آفاقاً جديدة أمام المعرفة الإنسانية ، وليس لكي تسد عليها الآفاق .

إن معرفة الآخرين ، النحن ، التي تحظى بتشجيع من مسار التسيير العمالي ذاته ، ومن تعدد الجماعات ، والمساواة التعويضية بين الطبقات الخ ،

تبدأ بإدراك عفوي ، متجاهل قصداً لكل قالب جاهز . فهي تبحث وتجد الآخرين والنحن الملموسين والمنفردين . ولكن لتحويل هذا الإدراك إلى صور منسجمة ، تطراً مدارك وأحكام لا يمكن بدونها توفر أية معرفة ؛ فإن هذه المعرفة لا تتقبل الحصر ولا التعميم الغامضين كثيراً . وحتى نتمكن ، إنطلاقاً من الآخرين الذي نعمل في أوساطهم ، ومن النحن الذين ننتمي إليهم ، التوصل إلى الإنسان الكلي وإلى توجهه في العالم ، يلزمنا بالضرورة أن نمر بفلسفة ومعرفة العلاقة بين الفردية والكلية الملموسة اللامتناهية : من هنا ، تكامل العلم الفلسفي ومعرفة الآخر ، اللازمين جداً للجماعية اللامركزية ، واللذين تتجه الجماعية إلى تشجيع نزوعهما للتدامج المتبادل . وكلما نجحنا في بلوغ ذلك ، تعاظمت فرص الإزدهار أمام هذين النوعين المعرفيين ، وإن هذا الإزدهار يسير جنباً إلى جنب مع أنسنة العلوم والتقنيات على حد سواء .

II . ينبغي وضع المعرفة العلمية في المقام الثاني من هذا النظام المعرفي . فالعلوم لا تتأمن وتنجح في إنقاذ استقلالها تجاه المعرفة التقنية وحسب ، بل ، فضلاً عن ذلك ، تتنافس علوم الإنسان مع علوم الطبيعة ، وتسيطر عليها أحياناً . إن هذا النظام المعرفي هو النظام الوحيد حقاً الذي تكون فيه علوم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس (الفردي ، الجماعي والاجتماعي على حد سواء) ، والاقتصاد السياسي و«العلم السياسي» الخ ، علوماً غير مسبقة فعلاً ، ومتحررة من معوقات الأيديولوجية ، فتستطيع أخيراً أن تعطي الحد الأقصى من المردود .

III . هنا تشغل المعرفة التقنية المرتبة الثالثة . فعلى الرغم من كمالها اللامحدود ، تكون خاضعة لضبط رباعي من جانب العلم الفلسفي ، معرفة الآخر والنحن ، المعرفة العلمية و«علم الإنسان» بوجه خاص ، أما الأخلاقية الخلاقة ، اخلاقية الفضائل ، الأخلاقية الأمرة ، وكذلك الحقوق بكل أشكالها ، فإنها تتعاون مع الأنواع المعرفية المشار إليها ، لأجل أنسنة المعرفة التقنية وصونها من كل تقنية مغالية .

IV . تأتي المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي ، في المرتبة الرابعة ، كما هو الحال في النظام المعرفي للمجتمعات المخططة وفقاً لمبادئ الدولانية الجماعية المركزية ، مع مفارقة وهي أنها أكثر اتساعاً ، وأكثر تحوراً من رتبة السياسة لأنها تشتمل على العالم الأرضي بمجمله .

V . هنا تهبط المعرفة السياسية إلى ما قبل المرتبة الأخيرة ، نظراً لأنه ما من حاجة إلى إرضان هذا النوع المعرفي ، ولا إلى وضعه في عيضة العقائد السياسية بوجه الخصوص . وحول هذه النقطة ، يبدو الطلاق كاملاً بين المعرفة السياسية من جهة والفلسفة والعلم وحتى التقنية من جهة ثانية . صحيح أن المعرفة السياسية العفوية مستمرة : فهي تملك مبرر وجودها ، وتظهر في العلاقات المتبادلة بين مختلف الجماعات التي تعمل داخل الملكية الفدرالية لوسائل الإنتاج ؛ كما أنها تمارس أيضاً داخل التنظيم الإقتصادي والتنظيم السياسي اللذين يحتاجان ، هما أيضاً ، إلى توازن يكفل لهما البقاء ، ويتكون بدوره من عناصر دائمة التجدد . لكن هذه المعرفة السياسية الاستراتيجية تنزع إلى الانضمام من جهة لمعرفة الآخرين والنحن ، ومن جهة ثانية لمعرفة الحس السليم التي ينبغي علينا الكلام فيها أيضاً .

على هذا النحو نصل إلى خطر الوقوع في مفارقة . ففي الأوضاع والظروف المألوفة والعادية ، تكون المعرفة السياسية ذاتها معرفة بعيدة جداً عن السياسة داخل النظام المعرفي الذي نحاول وصفه . الأمر الذي لا يمنع ، من جهة ثانية ، أنه في حال نشوب أزمات ومصاعب ، يمكن حدوثها داخل بنية الجماعية اللامركزية ، كما يمكن حدوثها في أي غط بنيوي آخر ولو بشكل نادر جداً تنزع المعرفة السياسية للجماعات وللطبقات وهيئات التخطيط والهيئات المحلية أو الدولانية أن تظهر وتعم ، لكن إذا توصلت إلى التبلور في عقائد متعارضة ومتنافسة ، فإن ذلك ربما يكون من عوارض الانهدام ، وحتى أنه قد يكون نذيراً بتفجير البنية المعنية ، نظراً لأنه ما من غط بنيوي خالد ولأن الواقع التاريخي يواصل حركته مبدلاً غطاءً مجتمعيّاً جديداً من غط آخر .

VI . تأتي معرفة الحس السليم هنا في المطاف الأخير ، كما هو الحال في عدة أنظمة معرفية أخرى ، اتينا على ذكرها في هذا الكتاب . وبما أن الذبوع الكبير للمعرفة الفلسفية ، العلمية والتقنية ، بفضل تعليم ثانوي إلزامي للجميع ، فإن معرفة الحس السليم لا تعود تضطلع ، عادة ، بأي دور في تربية الأطفال ما قبل سن الدراسة . ولكنها تستطيع الظهور أيضاً في بعض الظروف ، في بعض المنعطفات ، وبقدر ما تتدمج مع معرفة الآخر من جهة ، والمعرفة السياسية العفوية من جهة ثانية ، تكون جزءاً لا يتجزأ منها . وهي ، في كل حال ، لا تتلاشى كلياً من المنظومة المعرفية التي ندرسها .

أما الأشكال المبرزة داخل هذه المنظومة ، فإنها تسجل الانتصار الكامل للعقلانية ، فيمكننا القول إن المراد بذلك تراتب للمعارف عقلاني تماماً . وفيما يختص بالأشكال المبرزة الأخرى ، فلنشدد على أننا نكتشف في كل منها ، توازناً بين التجريبي والمدركي ، الوضعي والتأملي ، الرمزي والتناسبي ، الجماعي والفردى ، لكن مع فوارق ومتغيرات تبعاً للظروف ، أي غير متوقعة .

ومن الممكن الاعتراض بالقول إننا حين نصف نظاماً معرفياً لم يعمل أبداً بشكل فعلي بعد ، فإننا لا ننجو من غواية التثبيت لمثلنا الخاص بتراتب أنواع المعرفة وأشكالها . والحال ، فإننا نصر على البرهان أن الأمر ليس كذلك ، وإننا تدليلاً على ما نقول ، لا نتردد في التشديد على كل عيوب والتباسات النظام المعنى . فهو أولاً يشكو من عقلانية مفرطة من شأنها أن تدخل في نزاع مع إنسانيته الواقعية . وهو ثانياً ، وهذا عيبه الأساسي ، يشكو من وقف أو على الأقل من إبطاء تقدم معظم الأنواع المعرفية ، لكي يتجنب التشكيك بتراتبها وتوازنها المكتسبين بصعوبة بالغة . في هذا المنظور ، من الممكن القول إن هذا النظام المعرفي وهذه البنية الاجتماعية يخشى عليها الانزلاق إلى مذهب محافظ من نوع جديد . وكذلك يمكن التساؤل عما إذا كانت المعرفة التقنية ، الوثيقة الخضوع لرقابة الأنواع المعرفية الأخرى ، لن

تفقد دينامييتها ، ومن جهة ثانية ، يؤكد صحة هذه الانتقادات والشكوك كون الحقوق ، الأخلاق (لا سيما أخلاق الفضائل والأوامر) والتربية والتعليم أخيراً ، تنزع في هذه البنية إلى الاستعلاء على مضمون النظام المعرفي ، وإلى مزيد من إبطاء تقدم المعرفة .

كذلك ليس من الوارد إنكار هذه العيوب والإلتباسات ، بل المراد أن نعتبر أنه لا يوجد أي نمط مجتمعي وبنوي شامل ليس له حسناته وسيئاته التي تنعكس بدورها انعكاساً حتمياً على النظام المعرفي المقابل . لهذا فإن كل الأنماط ينتهي بها المطاف إلى الفساد والزوال . ولكننا أردنا فقط أن نبين أن بنية المجتمعات المخططة وفقاً لمبادئ الجماعة التعددية اللامركزية ، القائمة على التسيير الذاتي من جانب المعنيين كافة هي بدون حدود بنية مؤاتية للمعرفة أكثر من بنى الرأسمالية المنظمة والتقنوقراطية الفاشية والشيوعية المركزية . وليس مستحيلاً في مستقبل بعيد أو قريب ، أن تظهر أنماط مجتمعية أخرى بدورها إنطلاقاً من منظومات معرفية أخرى ، لكننا لسنا بقادرين على توقع سماتها وتجلياتها منذ الآن .

ملحق

استطلاع اجتماعي حول معرفة الآخر

اعداد : جان كازينيف ، بول موكور ، والبير ميمي

تقديم : جورج غورنيس

1 . التقديم

استأثرت مسألة معرفة الآخر باهتمام العقول منذ الربع الثاني من القرن العشرين ، رداً على العقلانية والمثالية اللتين كانتا قد سيطرتا على مدى عدة قرون . فحتى وإن كنا لا نوحدها ماهية الآخر مع الممثلين النوعيين ، العاميين ، للعقل البشري الواحد لدى الجميع ، على منوال كانت Kant ، فقد كنا ننطلق من الوعي المغلق ، المنكمش على نفسه ، الأمر الذي كان يتضمن إمكان وضرورة معرفة الذات ، لكي نعرف الآخرين فيما بعد . وحتى وإن كنا نستبعد الاستعانة بالتأمل والإسقاط المباشر لأحوالنا الخاصة على الآخرين ، فإننا نلجأ إما لمعرفة الآخر (Einfühlung) التي كان ليبس Lipps رائدها ، وأما للتأهلي التناقضي أو الذاتي مع الآخر ، وفقاً للمدرسة الفرويدية ، الأمر الذي لا يطول الواقع الملموس للآخرين ومقاومتهم الناشطة لأفعال الأنا التي كان فيخته Fichte وحده - بين مفكري القرن التاسع عشر - قد شعر بها شعوراً قوياً جداً .

أما شيلر Scheler ، فإنه حين شدد على خصوصية معرفة الآخر وعلى تعادها ، إن لم نقل تفوقها بالنسبة إلى معرفة الأنا ، وكذلك على تداعجها الوثيق مع الواقع الاجتماعي ، إنما شق طريقاً جديدة . لكنه سرعان ما

سدها . لأنه حين أراد حصر تأسيس هذه المعرفة في المودة والمحبة بوصفهما من المدركات الحدسية المباشرة ، ارتكب أخطاء كثيرة . لقد تجاهل التنوع البالغ للتجليات الملموسة التي يمكن للآخر أن يظهر بها في الواقع الاجتماعي . فيمكن للآخر أن يظهر كأب ، أخ أو غريب ، كشريك أو منافس ، كصديق أو عدو ، كرفيق ، كأدنى أو أعلى ، كملاذ أو هم ، كحماية أو تهديد ، كمركز اجتذاب ، انتباز أو لمبالاة ؛ كذلك يمكنه أن يتسم بسمه مثنوية فيجمع بين مزايا متعارضة . وفي هذه الشروط ، من يستطيع الإندهاش من إمكان تلون ادراك الآخر بلون عقلائي تارة . وانفعالي تارة ، وإرادي تارة أخرى ، ومن إمكان أن يكون أيضاً عقلائياً وصوفياً ، الخ . ؟ يضاف إلى ذلك أن شلر قد خلط الإدراك الحدسي المباشر ومعرفة الآخر ، بينما تفترض الثانية إرصاناً أو صوغاً لصور الآخر المدركة الممنهجة ، قائماً على أحكام تدعي الصحة والحقيقة ؛ كما أنه في الوقت نفسه تجاهل الإدراك الخارجي للآخر ، فقام في آن واحد بإلغاء شخصية الآخر وإلغاء الجدل المعقد بين إدراك ومعرفة الآخر ، اللذين يكونان تارة في علاقة تكاملية أو تضمينية متبادلة ، وتارة في علاقة استقطابية ، ولقد افتقر إلى الجدل ذاته بصدد تحليله متغيرات التعالي والتلازم ، الائتلاف والاختلاف بين الأنا والآخر والنحن ودرجات تداخهما في الجماعات الخاصة والطبقات الاجتماعية والمجتمعات الشاملة . يضاف إلى ذلك أنه يبدو لنا من المؤكد في حالة معرفة الآخر بالذات ، بأن المعايير التي توفرها المجاميع الوظيفية العليا والعريضة تميل نحو الحد من عفوية الصور الظاهرة في دوائر أضيق .

وتبدو أكثر دوغمائية وحسراً من مفاهيم شلر ، مفاهيم ميد Mead المتعلقة بمعرفة الآخر . ومع ذلك فقد كان ميد نفسانياً - اجتماعياً أكثر مما كان فيلسوفاً . ففي كتابه (Mind, self and society 1934) ⁽¹⁾ يعتبر ميد أن

L'Esprit, le soi et la société, P.U.F. (1)

معرفة الآخر تقوم على ملكة الإضطلاع بأدوار مختلفة ، وبتبديلها ، فيضع نفسه موضع الآخرين . وربما يكون هذا التبادل للأدوار وراء الاتصال بالإشارات والرموز الذي يحدث ضرورة في معرفة الآخر ، والذي سيكون ختامه العقل ، المتماهي مع المجتمع ، فكلاهما لا يتمثلان سوى الآخر العام . والحقيقة إن هذا الخلط العجيب بين البراغما تيكية والعقلانية لا يأخذ بالإعتبار تغاير الإطارات الإجتماعية ولا واقعها الفعلي ، ولا معالم الآخر المتنوعة ، ولا تقلبات السهات أخيراً التي ترتديها معرفته ، والتي يكون فيها الإدراك ، خلافاً لما حدث عند شيللر ، إدراكاً منحللاً تماماً . إن ميد يستوحى من الفرق الرياضية وجماعات اللاعبين الصغار ، حيث تكون الأدوار الملعبية قابلة للتبادل فعلاً ؛ فينسى بذلك أن هذه الأدوار لا تكون كذلك في معظم المتحدثات الإجتماعية الأخرى (دون الكلام على الأدوار المتميزة) فضلاً عن كون الاتصال ، الإشارات والرموز ليست إلزامية وضرورية لمعرفة الآخر ، وأن أهميتها بالغة التفاوت .

بهذين المثليين من النظريات الحديثة حول معرفة الآخر (وهما مثلان اخترناهما بعدما تحليلنا عن أمثلة أخرى عديدة) ، ستمكن من الإحاطة بمدى حاجة كل هذه النظريات إلى التجمد العقائدي . إن مهمة علم اجتماع المعرفة هي تدمير سلسلة كاملة من المواقف التي لا يسلم بها في الأصولية Epiotémologie ، دون الإدعاء أبداً من جهة ثانية بالحلول محل هذه الأخيرة (2) . إنها بوجه خاص مهمة علم اجتماع معرفة الآخر وهي مهمة مسرة نظراً لأنه لا يوجد نوع معرفي آخر ذو علاقة وظيفية وثيقة الصلة لمباشرة بالواقع الاجتماعي مثل معرفة الآخر . لهذا فإن الأبحاث الميدانية في هذا المجال ستظهر لنا أيسر من سواها في ميادين أخرى .

إننا حين اقترحنا إجراء استطلاع حول تقلبات الطباع بخصوص إدراك

الأخر ومعرفته وفقاً لاختلاف الإطارات الاجتماعية ، ظهر لنا أن انماط التجمعات الخاصة عن ذوات البنية كانت تبدو الأفضل تكيفاً مع مقارنة أولى . وذلك لعدة أسباب : فمن الوجهة التقنية ، تم استجواب جميع المشاركين في المجموعات المختارة ، الأمر الذي ساعد على مجابة كل لجوء إلى العينات واستطلاعات الرأي ؛ ومن الوجهة النظرية ، كان أمامنا جماعات متداخلة في المجتمع الشامل ذاته وقابلة جداً لاختراقاته وتأثيراته ؛ ومن جهة ثانية كانت الجماعات المدروسة ، مثل كل الجماعات ، تمثل في آن واحد عوالم صغرى من تجليات الحياة الاجتماعية ، ووحدات فعلية داخلية في العالم الأكبر للتجمعات .

ولقد كشفت ابحاثنا عن تغيرات كبرى في سمات ادراك الآخر ومعرفته ، وأكدت فرضية الترابط الوثيق بين الإدراك والمعرفة وبين انماط الاطارات الاجتماعية - وهي نتيجة مشجعة لمتابعة ابحاث أخرى في مجال علم اجتماع المعرفة .

[جورج غورفيتش]

قام فريق الأبحاث حول علم اجتماع المعرفة ، وعلم اجتماع الحياة الأخلاقية ، بإشراف السيد جورج غورفيتش ، بإجراء سلسلة ابحاث ميدانية حول ادراك الآخر ومعرفته في مختلف التجمعات المبنية . فبعد استطلاع أولي pré — enquête أجري في الصف الأول العالي في مدرسة لويس الكبير ، ساعد على وضع التعليمات اللازمة للباحثين ، دار البحث نفسه حول 8 مجموعات يمكن توزيعها على النحو التالي :

1 . مجموعتان سنطلق عليهما ، اصطلاحاً ، تسمية « المجموعتين المثقفتين » : صف فلسفة في مدرسة تورغو ، وفرقة ممثلين تحمل اسم « مسرح اليوم » ، بقيادة ميشال دي ري ؛

2 . اربع مجموعات مأخوذة من القطاع الصناعي : مجموعة من العمال العاملين في سلسلة مؤتمتة في مصانع شركة رينو (صناعة كارتيرات) (أحواض) ؛ ومجموعة من العمال العاملين في سلسلة نصف مؤتمتة في المصانع نفسها ؛ ومجموعة عمال عاملين في مصهر فولاد (مصانع — Legenisel Blanchard) ؛ وفريق من المهندسين ، الكيميائيين ، مساعدين للكيميائيين ، ومساعدين مخبريين يعملون في مختبر للمواد البلاستيك في مركز أبحاث Pécchiney ؛

3 . مجموعة مستخدمين إداريين يعملون في فرع للتفتيش الخاص في التعليم التقني ؛

4 . مجموعة ريفية مكونة من سكان قرية صغيرة في Seine et Marne

وكان المنهج المستعمل هو منهج المقابلات ، مع مميزات : 1) كانت التعليمات المعطاة للباحثين محددة بكل وضوح ، بحيث يمكن اجتياز تشتت كبير جداً في الإجابات . ويمكن قدر المستطاع إزالة « المعامل الشخصي » الخاص بكل باحث ؛ 2) لكن ، كان من المتفق عليه أن هذه التعليمات لم تكن إلا منطلقات مشتركة بين الجميع ، يجدر بها الإحاطة الواسعة بشخصية الأفراد وعفوية المقابلة (راجع تفاصيل هذه التعليمات في الملحق 1) .

كانت المقابلات تدور حول 4 موضوعات بحثية . الموضوعة الأولى كانت غايتها جعل الشخص المستجوب يفصح عما يدهشه بشكل خاص لدى الأشخاص في مجموعته (نعني ما يتصل بالإدراك المباشر للآخر) . وكانت الموضوعة الثانية مركزة على السؤال التالي : « إذا تفكرتم ملياً في الأمر ، ما الذي يساعدكم على تكوين صورة أدق عن الآخر ؟ » . فكان المقصود تحديد الدور الذي يمكن أن تلعبه ، في تكوين معرفة الآخر ، الصور المثالية أو القوالب الجاهزة ، الجاه الإجتماعي والموقع في الجماعة ، الأحاديث والعمل المشترك . والموضوعة الثالثة كانت توجه المقابلة بحيث يجري إيضاح كيفية

تبدل الصورة المكونة لدينا عن الآخر (بواسطة الإدراك أو المعرفة) وذلك بعدما نكون قد اعتقدنا أنها مصورة واضحة ، وإلى أي حد يعتقد الأشخاص أنهم يعرفون زملاءهم معرفة جيدة أو رديئة أو أنهم معروفون لديهم . أما الموضوعة الرابعة فكانت تدور حول المسألة المعنونة : « الإتصال والمعرفة » وكان يفترض بها توفير المعلومات حول السهولة أو السرعة النسبية في العلاقات المعرفية بين الأشخاص وحول دور الكلام والأحاديث والاتصالات دون كلام .

أجريت بالنسبة لكل بحث ، مقارنة تقارير الباحثين ، جرى وضع تقرير منفصل ومفصل . ثم جمعت الملفات الثمانية لإجراء مجردة عامة ، ولأجل التوصل إلى النتائج العامة للبحث حول معرفة الآخر ، جرى توقع سلسلتين من الأعمال : أعمال تنطلق من تحليل كمي حازم للوثائق ؛ وأعمال أخرى تستند إلى تحليل نوعي . والتقارير الحالي يتطابق مع نتائج التحليل الكمي . ونتائج التحليل النوعي ستكون موضوعاً لتقرير سينشر فيما بعد . وبالطبع ، هذان الجانبان من نتائج البحث ، المصنولان لأجل وضوح العرض ، هما في الواقع متضامنان ومتكاملان .

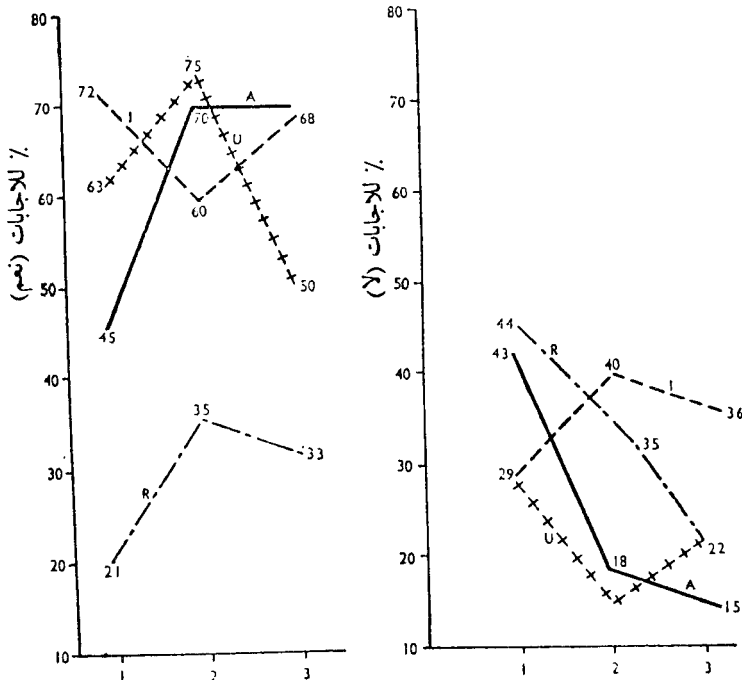
ولجرد كمي لنتائج الأبحاث والاستطلاعات الجارية لدى المجموعات الثماني التي كانت موضوعاً للمقابلات ، جرى تبني التقنية التحليلية المسماة بـ تحليل المتغير ، وفقاً للأسس التي أعلنها السير . أ . فيشر عام 1936 . ومن جهة ثانية ، جرى تصنيف الجماعات الثماني في 4 فئات ، على النحو المشار إليه أعلاه ، وبالتالي تناول التحليل أربعة أنماط من التجمعات التي أطلقت عليها التسميات التالية : 1 (فكرية (I) 2) عمال ومستخدمي المصانع (U) ، 3 (مستخدمي القطاع الإداري (A) ، 4 (الريفيين (R) . وعلى الرغم من كون نتائج البحث تشكل كلاً لا يتجزأ ، فمن المناسب ، لأجل العرض ، تقديمها وفقاً لنسق الموضوعات الأربع المشار إليها أعلاه . الموضوعة الأولى : لأسباب استنساوية ، جرى تصنيف الإجابات ،

على الرغم من تعقدها (الذي سيظهر دون شك في التحليل النوعي) ، في ثلاث فئات : فيزياء الآخر ، سلوك الآخر ، مواقف الآخر الاجتماعية . ما هي الأهمية التي يعلقها أفراد الجماعات المستجوبة ، على هذه العناصر الثلاثة في إدراك الآخر ؟ يجب القول ، منذ البداية ، إن مجمل المعطيات المتوفرة حول هذه المسألة يبدو ذا دلالة رفيعة على الصعيد الأرجحي . فإذا تصورنا ، مثلاً ، الإجابات الإيجابية والإجابات السلبية عما إذا كان كل عنصر من هذه العناصر هاماً في إدراك الآخر ، نلاحظ أن المعطيات تتغير وفقاً لنمط الجماعات ، وبالتالي ليس توزيع الـ « نعم » والـ « لا » متروكاً للصدفة اطلاقاً (فالحسابات تبين أن الفرضية القائلة أن الإجابات الإيجابية والسلبية موزعة عشوائياً حسب الصدفة ، هي فرضية ساقطة عند مستوى أرجحية 0.02) لكنه رهن بالفعل التداخلي للمتغيرات المضافة اختبارياً . ومن جهة ثانية ، أن تفكيك المتغير (حسب تقنية فيشر السابقة الذكر) ، الذي يسمح بتعيين حصة كل عامل أو مجموعة عوامل من المسؤولية على مستوى الظواهر الملحوظة ، يبين أن واقعية الظواهر تقع في المستوى الأرفع للتركيب المعقد . وبالتالي ، فإن الإجابات تختلف باختلاف أنماط الجماعات وخصوصية الإدراكات . إذن للنتائج المتحققة ، من هذه الوجهة ، قيمة سوسيولوجية مؤكدة . وأخيراً ، كما يظهر ذلك الشكل رقم 1 تعتبر خطوط الإجابات الإيجابية الخاصة بأهمية العناصر الثلاثة (الجسدية ، السلوكية ، المواقف الاجتماعية) لإدراك الآخر ، خطوطاً معاكسة مباشرة لخطوط الإجابات السلبية ، بالنسبة لكل من أنماط الجماعات الأربعة . وهذا يعني أن اللارودود ، والردود التهريبية أو المشبوهة ، على الرغم من تواترها المألوف لا سيما عند الريفيين وبنسبة أقل ، عند العمال والمستخدمين (ذلك أن المثقفين يمتازون بوضوح إجاباتهم وصلابة التزاماتهم) - لم تؤثر على المنطق الداخلي لنظام البحث وتركيبه ولم تفسد ببعض التناقضات ، التأويل العام للنتائج .

وبعد تحديد مدى هذه النتائج وصلاحيتها ، ما هي المؤشرات التي

تعطيها بخصوص المسألة المركزية في الموضوعة الأولى ؟

1 (المنحنيات الخاصة بمجموعات المصنع والمجموعات الإدارية تمثل سمات متقاربة جداً من حيث أهمية فيزياء الآخر وسلوكه . لكن الدور المناط بالمواقف الاجتماعية للآخر هي أكثر هيمنة وبروزاً عند المجموعات الإدارية مما هو عليه عند مجموعات المصنع . ويبدو هذا الدور عاكساً تماماً للشروط التي يتم فيها عمل هاتين الفئتين من الأشخاص . وبالتالي ، فإن المكننة المتصاعدة تجعل العمال ، في القطاع الصناعي ، يزدادون انعزالاً عن بعضهم البعض . ومن الطبيعي أن يعلق مستخدمو الإدارات أهمية كبرى على الاتصالات البين شخصيته ، سواء تعلق الأمر بأشخاص متساوين ، أعلى أو أدنى (انظر الشكل 1)



الشكل 1

تفاعل الخيارات (نعم - لا) وعناصر إدراك الآخر

في الصورة اليسرى نقرأ النسبة المئوية للإجابات الإيجابية (المتعلقة بأهمية عوامل معرفة الآخر) ، وفي الصورة اليمنى نقرأ النسبة المئوية للإجابات السلبية .

على الخطوط الأفقية نقرأ على التوالي العناصر الثلاثة المعتبرة (1 - الفيزياء ، 2 - السلوك ، 3 - المواقف الاجتماعية) .

خط المثقفين (I) يمثل بخط منقط (.)

خط الإداريين (A) يمثل بخط مليء (—)

خط العمال (U) يمثل صلبان (+ + + + +)

خط الريفيين (R) يمثل بخط متقطع (. - . - . - .)

نرى مثلاً فوق خط الريفيين أن النسبة المئوية القصوى لإجاباتهم الإيجابية تتعلق بالسلوك (35% من الإجابات الإيجابية) . وهكذا هو الحال أيضاً بالنسبة إلى خط العمال ؛ لكن هذا الخط يتضمن نسباً من الإجابات الإيجابية أرفع بكثير (75% فيما يختص بسلوك الآخر) .

2) تختلف الجماعات الفكرية اختلافاً واضحاً عن انماط الجماعات السابقة ، إذ أنها تعلق أهمية خاصة على الفيزياء والمواقف الاجتماعية على حساب السلوك الذي ، بنظر الأفراد المكونين للجماعات الأخرى ، يلعب دوراً أقل في إدراك الآخر . ومما يلفت الانتباه كون المثقفين متأثرين أكثر من سواهم بالجانب الطبيعي عند الآخر ، ويمكنه استثارة فرضيات شتى . فهل مرد ذلك إلى تطور ادق في الحس الجمالي أم إلى حرية أكبر تجاه بعض العادات التي تحط من قيمة دور الجسد بالنسبة إلى دور الأخلاق ؟ أما الاهتمام الخاص بالمثقفين تجاه مواقف الآخر الاجتماعية ، فرمما تنجم من وعي أكثر تحيلاً وتوتراً وتبدلاً .

3 (تتفرد الجماعة الريفية تفرداً أوضح بالنسبة إلى الأنماط الثلاث الأخرى من الجماعات . فلا يبدو أي عنصر من عناصر الإدراك هاماً حقاً في نظر الريفيين . فالسلوك المحكي والمتحرك هو ، نسبياً ، الأقل حظوة في إجاباتهم ، ولا يحظى إلا بعدد صغير من إجابات الإستحسان . فالأهمية المعلقة ، على المواقف الاجتماعية ، في العلاقات مع الآخر ، هي بكل جلاء أدنى من الأهمية التي تعلقها عليها الجماعات الأخرى ؛ والأهمية المعلقة على الجسد ضئيلة جداً . ويمكن الافتراض أن العزلة الاجتماعية التي يعيش فيها العمال الزراعيون وصغار الملاكين في المناطق ذات الإستثمارات الضخمة ليست غريبة عن هذا الانعدام للإدراك المباشر للآخر ، أو بشكل أدق لما يمكنه أن يكون مدهشاً فيه . ومن جهة ثانية ، بما أن التجمعات الريفية هي تجمعات محلية ، فهي مثل هذه الأخيرة تقبل بوجه خاص اختراق المعايير الصادرة عن المجتمع الشامل .

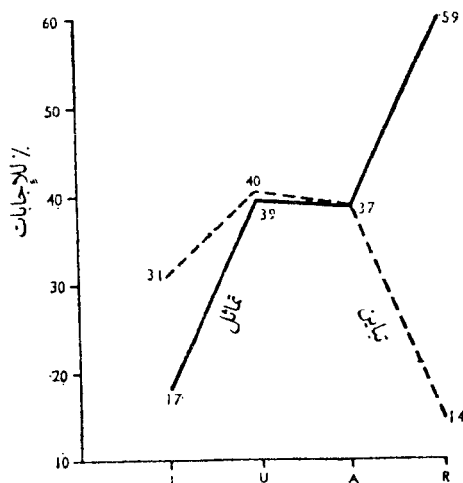
4 (فضلاً عن التناظر النسبي في رد الفعل الملحوظ لدى الأشخاص في الجماعات الإدارية والصناعية ، مقابل رد فعل الجماعات المثقفة ، وفضلاً عن الفرادة الصريحة للجماعة الريفية على صعيد إدراك الآخرين ، لا بد من لحظ نزعة معينة ، بخصوص المواقف الاجتماعية للآخر ، إلى التجمع العام ، أو بشكل أدق لا بد من لحظ انحرافات في إجابات كل الجماعات أقل أهمية ، مثلاً ، مما هي عليه بخصوص الفيزياء ، الجسدية التي يدور حولها الحد الأقصى من الخلافات .

الموضوعة الثانية : لنذكر أن هذا الجزء الثاني من المقابلات كانت غايته تحديد ما يسمح للشخص المستجوب ببلوغ صورة متروية وأدق عن الآخر ، أي بلوغ معرفته المبنية على الأحكام . ويوفر التحليل الكمي معلومات حول جانبيين في هذا المسار المعرفي .

1 (الأهمية التي يعلقها الأشخاص على التماثل أو التباين بين الآخر

وبينهم في المسار الذي يقود إلى صورة معقولة عن الآخر . ولا بد من الملاحظة أولاً ، بخصوص مجمل أنماط الجماعات المختلفة ، إن الآراء المعلنة تتوزع ، إجمالاً ، بشكل متساوٍ تقريباً بين طرفي هذا الخيار . بكلام آخر ، إذا ألقينا نظرة شاملة على الأفراد المستجوبين كافة ، نلاحظ أن أهمية مساوية تعلق ، في تركيب صورة الآخر ، على التماثلات والتباينات التي يمكن لحظها بين الذات ورفقاء العمل . فالمسار الذي يقوم على طرح الذات بتعارضها مع الآخر ، وعلى اعتبار الآخر مثل لا - أنا ، والمسار الذي يقوم على إسقاط المرء على نفسه صورته الشخصية ، هما إذن مساران شائعان جداً بموجب هذه الإجابات ، إذا أخذنا بالإعتبار مجمل الأشخاص فقط ، دون الوقوف عند الجماعات التي ينتمون إليها .

في المقابل ، إذا تصورنا هذه الجماعات كلاً على حدة ، سنلاحظ أن الأهمية الخاصة بالتماثل أو التباين في معرفة الآخر ليست هي نفسها في كل الأحوال . وفيما يختص بالتباين وفقاً لمختلف أنماط الجماعات ، نلاحظ ثلاث سمات مميزة (انظر الشكل 2) :



الشكل 2

تفاعل الخيار « تماثل - تباين » مع أنماط الجماعات

أ) يعتبر العمال وبالأخص متسخدمو الإدارة . التائل والتباين كعوامل تسهل معرفة الآخر على نحو متساوٍ ؛

أنماط الجماعيات الأربعة (مثقفون ، عمال ، إداريون وريفيون) ، على الخط الأفقي ،

النسبة المئوية للإجابات ، على الخط العمودي

التائل مع الآخر يتمثل بخط ممتلىء

التباين عن الآخر يتمثل بخط منقط

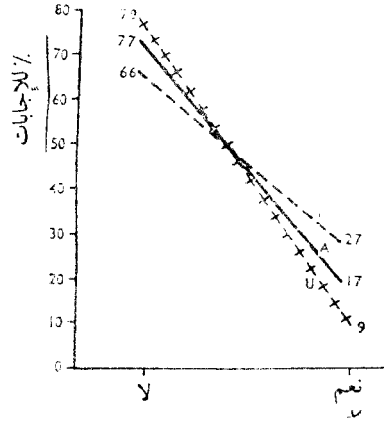
ب) في المقابل ، يتفرد المثقفون بنسبة مئوية ضئيلة جداً تتعلق بالتائل ، فهناك نسبة كبيرة جداً من الإجابات تعلق الأهمية الكبرى على الاختلاف مع الآخر ؛

ج) الريفيون بمعظمهم يتبنون موقفاً معاكساً ، مباشرة ، لموقف المثقفين ، ولا يعرفون قريتهم إلا في سبيل التائل والتناظر معه .

إن هذه الفوارق واضحة تماماً ولا تترك للمصادفة سوى مكانة ضئيلة جداً . يجري البحث بشكل طبيعي عن إيجاد تفسير لها . ولا شك في أن المثقف أشد اتجاهاً إلى أن يلاحظ لدى الآخر ما يدهشه ويبدوله فاضحاً ، وما يفتقر اليه في شخصه . في المقابل ، لا يعترف الفلاح الحذر إلا بآخر مماثل لشخصه بالذات . وربما مرد ذلك أيضاً إلى انعدام التخيل ، فنراه يتجه ، أكثر من المثقفين ، لمعرفة الآخر من خلال الذات .

2) الأهمية المقارنة للتجليات الخاصة بالحياة في الجماعة (رفيق

مثالي ، دور في الجماعة ، محادثات وتعاون) . هنا أيضاً ، يبدو بوضوح الأثر التبايني الذي تمارسه أنماط الجماعيات . وبالتالي (راجع الشكل 3) . خلافاً لشغيلة المصانع والإدارة ، يبدو المثقفون أقل اكترائاً بهذه المسائل ،



الشكل 3
تفاعل الخيارات وأنماط الجماعات

الخياران « نعم » و « لا » على الخط الأفقي

النسبة المئوية للإجابات على الخط العمودي . بالخط المنقط : المثقفون

بالخط الممتلئ : الإداريون

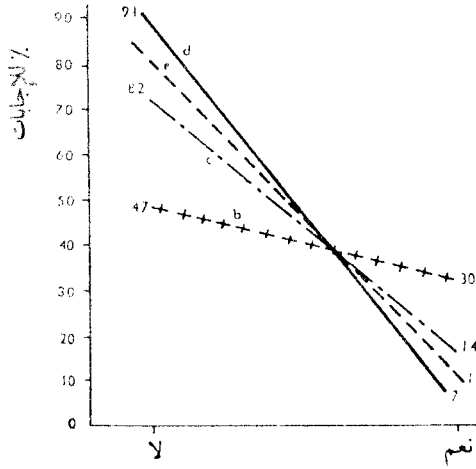
بالخط المصلوب : العمال

الريفيون غائبون لأنهم لم يستجوبوا لأسباب خاصة .

ويقدمون الدليل على ردود فعل فردانية . أن هذه الملاحظة لا تنافض النتائج المستخلصة بشأن الموضوع الأولى ، حيث كان المثقفون يظهرون بشكل خاص حساسين بمواقف الآخر الاجتماعية . فإدراك الآخر وفقاً لمواقفه تجاه الآخرين هو أمر مختلف عن تكوين صورته المعرفية بالانقياد وراء معايير مفروضة من جانب الجماعة . والحال فإن تدامج المثقفين في الجماعات المدروسة لم يكن إلا تداجماً نسبياً جداً .

من جهة ثانية ، إن العوامل الأربعة لمعرفة الآخر المنظور إليها (بمعزل عن التماثل والتباين) ، نعني مثال الرفيق الأمثل ، درجة التأثير ، المحادثات

والعمل المشترك ، لا ترتدي الأهمية ذاتها في نظر أفراد الجماعات من مختلف الأنماط . هناك إجماع حول هذه النقطة ، ويستخلص تراتب من الإجابات الصادرة عن مجمل الجماعات التي تناولها الإستطلاع (انظر الشكل 4) . إن المحادثات ، المبادلات اللفظية في رأي الأشخاص المدرومين ، التي تمهد تمهيداً فعالاً لمعرفة الآخر بالذات . ويلى ذلك العمل المشترك .



الشكل 4

محادثات (d) بخط ممتلئ ؛ عمل مشترك (e) بخط منقط ؛ الدور في الجماعة (c) بخط ونقاط ؛ رفيق مثالي (b) بخط مصلوب

على الخط الأفقي : نعم ولا

على الخط العمودي : العوامل الأربعة في معرفة الآخر ، الواردة في الموضوع 2 (أما عامل التماثل - التباين فقد جرى تصوره على حدة) .

والدور الذي يؤديه الآخر في الجماعة . وأخيراً تأتي في المقام الأخير ، الفكرة التي تكونها عن الرفيق ، المشارك في الفريق . ومن البين أنه يمكن التساؤل عما إذا كانت القوالب الجاهزة ، المتعلقة بما يجب أن يكون عليه رفقاء

العمل في كل جماعة ، هي حقاً دون فعل وعما إذا كان الأشخاص غير واعين لها فلا يدركونها لأنهم لم يفتكروا أبداً بهذه المسألة . لكن ، إذا كانت الاجابات عن هذه النقطة الخاصة لا تبدو مفصحة دائماً عن آراء بالغة الوضوح ، فإن تلك التي تتعلق بأولوية المبادلات اللفظية والدور الهام جداً نسبياً للعمل المشترك في معرفة الآخر ، هي بخلاف ذلك ذات وضوح كبير وتعطي نسباً مئوية مألوفة جداً (راجع الملحق 2 ، الفقرة 2 ، البابين d و c في الجدول)

الموضوعة 3 - .

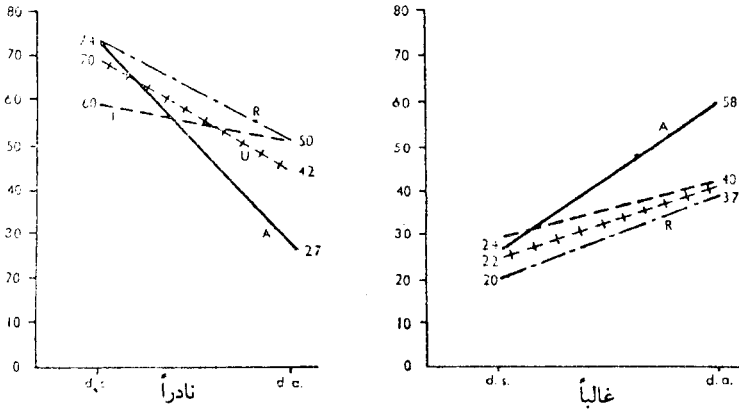
1 (تتبدل معرفة الآخر في الزمان وبمقتضى الظروف . فمن المؤلف ، أن لم نقل من المبتدل ، أن نلاحظ ليس فقط أننا نملك رؤية عن الآخر ، بل أننا نملك معرفة مشبوهة ، موضوعة على المشرحة ومتناقضة غالباً . وهذه التبدلات ، مهما تكن وتيرتها ، تتم فجأة (بإدراك جديد ، مثلاً ، مرده إلى الظروف) أم تدريجياً ؟ في كل الجماعات التي تناولها الاستطلاع ، كانت أغلب الإجابات مؤيدة لتطور بطيء لمعرفة الجماعات داخل نفس النمط الاجتماعي (مثلاً ، بين مختلف مجموعات القطاع الصناعي) . هي نسبياً بالغة الأهمية حتى تكون الفوارق بين انماط الجماعات قادرة ، في تحليل كمي صرف ، على ارتداء دلالة معينة . بعبارة أخرى ، أن التغيرات الداخلية الخاصة بكل جماعة تخنق الانحرافات التي تحدث ما بين انماط الجماعات . وهذه الانحرافات الأخيرة تبدو من جهة أخرى عديمة الأهمية . كما يشير إلى ذلك الجدول التالي⁽³⁾ :

R	A	U	I	R	U	A	I
%42	%57	%49	%33	%24	%40	%30	%30

(3) مثقفون = I ؛ عمال ومستخدمو مصانع = U ؛ مستخدمون إداريون = A ؛ ريفيون = R .

علاوة على ذلك يمكن أن نلاحظ (لكن دون أن تبلغ الدلالة الإحصائية ، هذا الصدد ، عتبة أرجحية تسمح بإعلان نتائج) أن المثقفين هم بكل وضوح أقل من الآخرين اتجاهاً لتغليب التبديل البطيء على الطفرة المفاجئة . وأن الريفيين في المقابل يمتنعون أكثر من سواهم من ترك الأحداث المفاجئة تفعل فعلها الشديد في تبديل الصورة التي كونوها عن الآخر . لكن ، فلنكرر ، أنه على الرغم من هذه الفوارق بين الجماعات ، يبقى أن الجميع يعتقدون بتبديل بطيء أكثر مما يعتقدون بتغيرات مفاجئة في هذا الموضوع ، نعني أنهم يعطون الأولوية للمعرفة على الإدراك . والحقيقة أن الإستطلاع يقدم هنا معلومة تتجاوز خصوصية الجماعات .

2 (إن وتيرة التبدلات ليست بكل وضوح هي المسألة الوحيدة الهامة التي تطرحها التقلبات في معرفة الآخر . ولقد سعى الباحثون أيضاً لاستجواب الأشخاص



شكل 5

تفاعل الخيارين (نادراً - غالباً) والمقترحات (تحدد اتجاه أحكامه على الآخر ؛ تحدد اتجاه أحكام الآخر عليه) وأنماط الجماعات (وهي ممثلة هنا بنفس الخطوط السابقة) .

في الخطئين الأفقيين : التحدي تجاه الذات (نادراً - أحياناً) والتحدي
تجاه أحكام الآخر

في الخطئين العموديين : النسب المثوية للإجابات .

حول شعورهم بالثقة أو بالحيلة الذي يمكنهم الشعور به أمام
أحكامهم الخاصة التي يطلقونها على الآخر وأحكام أقربائهم عليهم بالذات .
إن تحليل الوثائق المتوفرة جمعها لهذه الغاية يؤدي إلى النتائج التالية (راجع
الشكل 5) :

(أ) لجموع المعطيات دلالة عالية وهي غير ناجمة عن توزيع عشوائي :

(ب) إذا نظرنا في النتيجة الإجمالية للإستطلاع نلاحظ بالنسبة إلى كل
أنماط الجماعيات المعتبرة أن الواقع الدماغ يكمن في الثقة التي يوليها الأشخاص
عموماً لمعرفتهم الآخر ؛

(ج) بيد أنه يوجد درجات ودقائق في هذه الثقة بالذات ، وأن فحص
النتائج وفقاً لأنماط الجماعات يسمح بإدراك الفوارق الملحوظة فيما بينها على
صعيد الاتجاهات ، فمن جهة ، مقابل عمال القطاعات الصناعية ، الإدارية
والريفية ، لا يؤكد المثقفون إلا بتردد وتحفظ ثقتهم في أحكامهم على زملائهم :

(د) في المقابل يبدو العمال والمستخدمون بوجه خاص ، وهم يعلنون
أنفسهم متأكدين نسبياً من تقويمهم الآخر ، أنهم دون شك هم الأريب
والأكثر تحدياً لأحكام الآخر عليهم . وربما ينزعون إلى الزعم أنهم غير
مفهومين في أغلب الأحيان .

في الختام ، تبرز هذه النتائج واقعيتين كبيرتين : من جهة ، غالباً ما يعيد
المثقفون النظر في معرفة الآخر التي يعتقدون أنهم يمتلكونها ، فغالباً ما ينقلب
يقينهم إلى شك . وليست نادرة كثيراً التبدلات المفاجئة في الصورة التي كونوها

عن الآخر . ومن جهة ثانية ، يعتبر عمال المصانع ، وكذلك مستخدمو الإدارة بخاصة ، أنهم يتلقون أحكاماً سيئة ويتقاسمون مع الريفيين ثقة قوية في طريقتهم بمعرفة الآخر . .

الموضوعة الرابعة : الإتصال ومعرفة الآخر .

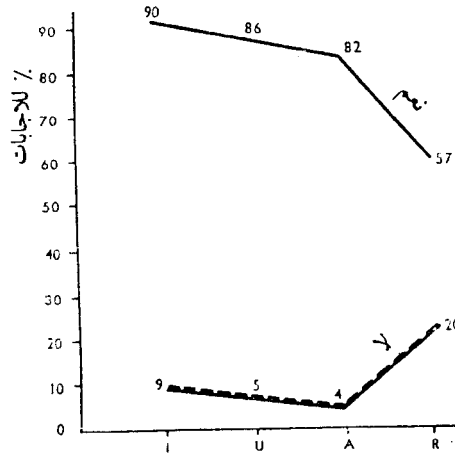
يسمح التحليل الكمي للوثائق التي تقدمها المقابلات حول هذه الموضوعة باستخلاص ما يلي :

1) يعتبر الأشخاص من المستجوبون ، مهما تكن الجماعة التي ينتمون إليها ، أنهم في غايتهم العظمى يدخلون بسهولة وبسرعة في علاقة مع رفقاتهم بالعمل . فلا يبدو عامل « نط التجمع » أنه يلعب أي دور حاسم هنا . غير أن الريفيين إذا اتصلوا بجيرانهم دون صعوبة فإنهم يتصلون بهم ببطء . فعندهم الإجابات ، خلافاً لما حصل في أنماط التجمعات الأخرى ، متوازنة من حيث النسبة المثوية توازناً دقيقاً بين الخيار « سريعاً » والخيار « ببطء » (راجع الملحق 2 ، الفقرة 4) . ومن الممكن مقارنة هذه النتيجة مع النتيجة المعروضة أعلاه حول السؤال الأول في الموضوعة 3 ، والتوصل إلى استخلاص النتائج عينها .

2) النتائج المتوفرة على أثر مقابلات هذه الموضوعة الرابعة ، جرت مقاربتها مع النتائج المتوفرة من بعض الأسئلة حول موضوعات سابقة ومقارنة بها إحصائياً على صعيد دور المبادلات اللفظية في معرفة الآخر . وأن مجمل هذه المعطيات يؤكد بوضوح الأفضلية المعطاة ، بعامة ، للمحادثات في تكوين هذه المعرفة . والخلاصة أن 83٪ من الأشخاص يؤكدون الأهمية الكبرى للمحادثة في هذا الموضوع ، وينكرها 7٪ فقط إنكاراً متميزاً جداً ، وأن 10٪ لا يجيبون أو يجيبون إجابات ملتبسة .

3) لكننا بعد هذه النتيجة الإجمالية المتحققة بكل وضوح ، نلاحظ مع ذلك فوارق بالغة الدلالة بهذا الشأن (انظر الشكل 6) بين أنماط الجماعات .

وبالتالي يعلق الريفيون على الإتصالات الشفهية أهمية أقل مما يعلقه عليها الآخرون . ويمكن الإيجاء بعدة فرضيات ، في سبيل تقديم تفسير لهذه الظاهرة ، أولاً ، كما سبق القول ، تعيش الجماعات الريفية في حالة معينة من العزلة الاجتماعية . ومن جهة ثانية ، إن المشتركين فيها لا يثقون إلا بالمسالك ، ويرون أن لا وزن يذكر للكلمات البيانية والبلاغية الفضفاضة . وهم أخيراً من أشد المتمسكين بمعايير المجتمع الشامل .



الشكل 6

المحادثات ومعرفة الآخر
تفاعل الخيارات (نعم - لا) وأنماط الجماعيات

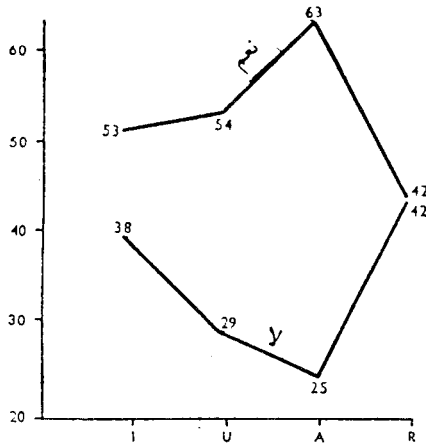
في الخط الأفقي : نمط الجماعة (مثقفون ، عمال ، إداريون ، ريفيون)

في الخط العمودي : النسب المثوية للإجابات .

4) كانت المقابلات موجهة بشكل يرمي إلى إبراز أنواع المحادثات التي كانت تبدو هي الأنسب لتيسير معرفة الآخر . والأجوبة المتحققة مردها بالأحرى إلى التحليل الكمي . فمن الواجهة الكمية المحض ، تبدو الدقائق

عديدة جداً. وتَعَقَّد الصياغات يبدو كبيراً جداً حتى يكون بالإمكان تقديم مصنف منهجي هنا . بيد أنه يمكن أن نشير إلى أن المستخدمين الإداريين والريفيين هم الذين يولون على صعيد معرفة الآخر أهمية كبرى للمحادثات المتعلقة بالعمل . وغالباً ما يجري ذكر المحادثات حول المواضيع الثقافية على لسان المثقفين أكثر من سواهم ، كما هو متوقع عادة .

(5) كان القسم الأخير من الإستطلاع يدور حول معرفة ما إذا كان الإتصال دون كلام مع رفقاء العمل يساعد على معرفتهم بشكل أفضل . يبين التحليل أولاً أن الخيار الإستحساني يتغلب بطريقة لها دلالتها الإحصائية ، على الخيار الرفض (34%) . ومن جهة ثانية ، إذا كانت إجابات المثقفين ، وبالأخص الريفيين ، تعطي نسباً مئوية مساوية تقريباً للردود الإيجابية والسلبية ، فإن المستخدمين الإداريين ينفردون ، في المقابل ، بالتواتر الملموس في الإجابات المؤيدة . أما المجموعات الصناعية فإنها تعلق بوضوح أقل ، أهمية أكبر .



الشكل 7
اتصالات دون كلام

في الخط الأفقي : شتى أنماط التجمعات

في الخط العمودي : النسب المثوية للإجابات (إيجابية = نعلم ،
سلبية = لا) .

على الاتصالات دون كلام . وأنا ندرك جيداً ، في المصانع الضجاجة ،
كيف أن الإشارة غالباً ما تحل محل الكلام . ومن الممكن في المكاتب ان يكون
احترام الصمت الضروري للعمل مؤدياً إلى النتيجة عينها . فعندما تغطي
الآلات على الصوت أو عندما لا يراد أحداث ضججة ، يتم اللجوء إلى
الاتصالات دون كلام .

نتائج .

من كل هذه النتائج التي سنكملها ونوضحها بتحليل نوعي ، يمكننا
الآن استخلاص بعض النتائج العامة . أولاً أن الأهمية المتوالية للعوامل التي
من شأنها المساعدة على إدراك الآخر ومعرفته ، تتباين في كثير من الأحوال وفقاً
لأنماط التجمعات . وهذا التباين واضح بشكل خاص فيما يتعلق بنتائج
الموضوعة الأولى . وعليه ، فإن المعطيات الإحصائية تظهر تعارضاً صارماً بين
الإجابات الصادرة عن جماعات المثقفين من جهة ، وعن جماعات المستخدمين
والعمال من جهة ثانية ، وهي تبرز أيضاً الحالة الخاصة جداً للتجمعات الريفيين
فيما يختص بطابع إدراك الآخر .

في الموضوعات الأخرى ، تبدو خصوصية الجماعات أقل بروزاً ، لكنها
مع ذلك ظاهرة من خلال اتجاهات واضحة جداً . مثال ذلك أن جماعات
المثقفين والريفيين تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض . من حيث الدور
الذي يلعبه التماثل والتباين في معرفة الآخر ، في حين أن الجماعات
الأخرى تحتل مكانة وسيطة في هذا المجال . ولقد رأينا أيضاً ان أنماط
التجمعات تختلف هي الأخرى من حيث الثقة بالأحكام الصادرة من الآخر
وعلى الآخر . وأخيراً ، أن تقويماتهم لأهمية المحادثات والاتصالات دون
كلام تتصافر بمجملها ، لكنها تختلف اختلافاً واضحاً في الدرجات .

وفي المقام الثالث . تظهر بعض نتائج الإستطلاع اجماعاً عاماً حول عدة قضايا . ولقد اشرنا إلى ذلك بخصوص المبادلات الشفهية والاتصالات الصامتة . وهذا صريح أيضاً بالنسبة إلى تصنيف تراتبي للعوامل المساعدة على تعميق معرفة الآخر ، وكذلك بالنسبة لوتيرة التبدلات البطيئة (أكثر مما هي شديدة) التي تميل هذه المعرفة إلى معاناتها . ويبدو من المحتمل جداً ، في هذه الحالات حيث أن أنماط التجمعات المعنية تعطي إجابات مماثلة ، يبدو أن تأثير المجتمع الشامل هو الذي يبرز في الدرجة الأولى .

باختصار ، تحمل نتائج التحليل الكمي المحض لهذا الإستطلاع إجابات واضحة عن بعض الأسئلة الهامة بالنسبة إلى المسألة السوسولوجية لأدراك الآخر ومعرفته : وهي تظهر استحالة نظريات عامة جداً في هذا المجال ، كاشفة عن تغيرات شديدة وفقاً للجماعات الخاصة وهذا في نطاق نفس النمط للمجتمع الشامل .

أخيراً ، إذا درسنا نتائج هذه التحاليل الموزعة بين مختلف الموضوعات لتكوين فكرة إجمالية عن كل من الأنماط الإجتماعية الأربعة ، نلاحظ أن مزايا كل منها تنعكس انعكاساً واضحاً في طريقة تعارف المشتركين على بعضهم البعض . فنرى مثلاً المشاركين في الجماعات المثقفة مندهشين أولاً من الهيئة (الجسد) والمواقف الإجتماعية ، وقليلي التأثير بالسلوك ، وأنهم يوضحون تصورهم للآخر بتشديدهم على ما يميز قريبتهم منهم ، ولا يعلقون إلا أهمية معتدلة على ظروف الحياة في الجماعة ، ولا يخشون كثيراً من جعل الآخر يتعرض لتبدلات مفاجئة ، وهم أخيراً ليسوا واثقين كثيراً من معرفة الآخرين جيداً . أما المشاركون في مجموعات المصنع فإنهم يدركون أولاً سلوك رفقاءهم في العمل وقلما يهتمون بهيئتهم الجسدية ؛ وإجاباتهم الخاصة بالتائل والتباين في معرفة الآخر وبخصوص البطء أو المفاجأة في تقلب صورة الآخر ، هي إجابات مترددة جداً على العموم ؛ وهم أشد ثقة بحكمهم الخاص على الآخرين من حكم الآخرين عليهم . والمشاركون في الجماعات

الإدارية هم كالمشاركين في المصانع ، يتحسسون أولاً بالسلوك ،
وقلما يهتمون بالهيئة ؛ لكنهم يعلقون أهمية كبرى على المواقف الاجتماعية ؛
وهم يعطون إجابات مماثلة جداً لإجابات العمال بخصوص دور التماثل
والتباين اللذين يترددون بشأنها ؛ فهم مثلهم أيضاً متأثرون على نحو شديد
بالتجليات الخاصة للحياة في الجماعة ؛ لكنهم نادراً ما يدلون بالصورة التي
كونوها عن الآخر ؛ وهم أشد ثقة ، كالعمال ، بتقويمهم الخاص ، من ثقتهم
بتقويم الآخرين ، وأخيراً ، يمتازون بالأهمية الخاصة التي يعلقونها في معرفة
الآخر على المحادثات الخاصة بالعمل والاقتصاد دون كلام . وأما الجماعات
الريفية فإن إدراكها ومعرفتها للآخر يكشفان كثيراً عن المزايا الخاصة .
فالإدراك بالمعنى الدقيق للكلمة غير موجود هنا عملياً ، وتستند المعرفة الى
التماثل والتناظر مع الذات ، والتوافق مع قالب صادر غالباً عن المجتمع
الشامل . وفي التجمعات الريفية تخشى النساء فقط أن يكن معروفات كما هن
في الواقع ؛ وأخيراً ، مع إعطاء أهمية معينة للمحادثات في معرفة الآخر ،
تبدو هذه الجماعة أقل توكيداً من سواها حول هذه النقطة ، لأنه يوضع في المقام
الأول السلوك وتطابقه مع القالب الجاهز .

ختاماً ، تكشف جماعات العمال ومستخدمي الإدارة ، في عدة نقاط ،
عن تماثلات في تكوين معرفة الآخر ؛ وفي المقابل ، تظهر جماعات المثقفين
والريفيين نزعات متعاكسة في هذا المجال . ومهما يكن الأمر ، وكما سبق أن
لاحظنا ، فإن الإحصاءات تكشف عن فوارق خاصة ملحوظة ، وفقاً لأنماط
التجمعات ، على صعيد إدراك الآخر ومعرفته .

المركز الوطني للبحوث العلمية C.N.R.S.
المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (القسم السادس)

الملحق 1

تعليمات موجهة للباحثين

الموضوعة الأولى :

ما الذي يدهشك في رفيقك في العمل ؟

أ (هيأته (فيزياء) ؛

ب (تعبير وجهه ؛

ج (قوله ؛

د (عمله ؛

هـ (موقفه تجاهك ؛

و- موقفه تجاه أحد زملائكم في العمل ؛

ز- روحه التضامنية تجاه مجموع رفاق العمل ؛

زا - تجاه فريق عملك

ط- موقفه تجاه الرؤساء ؛

ي- موقفه تجاه المرؤسين .

تفضل بترتيب الأبواب السابقة .

الموضوعة الثانية :

إذا دقت النظر بالأمر ، ما الذي يساعدك على الوصول إلى صورة أدق

عن الآخر ؟ هل يساعدك :

أ - التماثل معك أو التباين عنك ؟

ب - ما ينبغي أن يكون عليه زميلك في العمل ، أو ما لا ينبغي ؟

ج - درجة التأثير في فرقك ؟

ج 1 - خارج العمل ؟

د - المحادثات التي أجريتها معه ؟

هـ - العمل المشترك الذي قمت به معه ؟
تفضل بترتيب الأبواب السابقة .

الموضوعة الثالثة :

- عندما تظن أنك تمتلك صورة واضحة عن الآخر ، كيف تتبدل هذه المعرفة ؟
(أ) هل تتبدل ببطء أو فجأة ؟
(ب) تحت تأثير أية ظروف ؟
(ج) تعتقد أنك انخدعت نادراً أو غالباً في معرفة زملائك في العمل ؟
(د) اعتبر أن زملائك ينخدعون غالباً بشأنك ؟
(هـ) ما هو الأكثر تواتراً : انخداع الآخرين بك أم انخداعك بالآخرين ؟

الموضوعة الرابعة :

الاتصال والمعرفة

- (أ) هل تعتقد بسهولة أم بصعوبة علاقاتك مع زملائك في العمل ؟
أ - بسرعة أو ببطء ؟
(ب) الكلمات المتبادلة هل تجعلك تعرف زملاءك في العمل على نحو أفضل ؟
(ج) إذا كان الجواب بالنفي ، أعط مثلاً من الحالات التي لا يفيد فيها الكلام المتبادل هذه المعرفة ، أو حتى أنه يلحق الضرر بها .
(د) وإذا كان الجواب بالإيجاب ، أعط مثلاً عن المحادثات أو المناقشات مع زملائك في العمل التي تساعدك على معرفتهم بشكل أفضل
دا - صنف بالتراتب مواضيع المحادثات والمناقشات الأكثر كشافاً لهذه المعرفة ؛
هـ - هل يساعدك اتصال دون كلام مع زملائك في العمل ، على معرفتهم بشكل أفضل ؟
و - إذا كان نعم ، فبأية أشكال ؟
ز - في أية ظروف ؟
ملاحظة : هذه التعليقات ليست استمارة جاهزة ، هي إطار للمقابلة الحرة مع الأشخاص المستجوبين .

الملحق 2

اليكم على سبيل المثال بعض النتائج المقومة بالنسب المثوية للإجابات التوكيدية (0 = نعم) والسلبية (N = لا) . المتحققة من خلال الأبواب المختلفة الماثلة في التعليقات المعطاة للباحثين .

(بالنسبة للموضوعة 1 ، اليكم النسب المثوية للردود الايجابية والسلبية الخاصة بأهمية شتى أبواب هذه الموضوعة (مثل : a= الفيزياء ، b = تعبير الوجه ، الخ) في مجموعات القطاع الصناعي : منشآت صناعية

	a	b	c	d	e	f	g	h	i	
Renault semi-auto	57	70	70	57	57	41	33	33	0	نعم
Renault auto	27	90	63	51	27	90	51	63	27	
Péchiney	34	46	66	52	71	66	52	63	56	
Fonderie	24	46	59	59	56	48	46	48	50	
Renault semi-auto	33	22	22	22	33	49	49	57	49	لا
Renault auto	39	0	27	27	51	0	0	27	27	
Péchiney	49	43	22	31	04	04	24	19	28	
Fonderie	56	40	18	22	24	32	32	27	32	

2 (بالنسبة للموضوعة 2 ، اليكم مجمل المعطيات الكمية المتعلقة ، بخصوص الباب (a) بالتبئين (D) أو التائل (R)، وبخصوص الابواب الأخرى

	Turgot	Th.	Renault 2	Renault 1	Péchiney	Fonderie	اداريون	رغبون
a { D.....	37	30	35	51	40	33	37	12
R.....	27	21	41	39	31	39	37	53
b { O.....	33	30	57	63	40	39	42	
N.....	53	45	22	0	38	29	42	
c { O.....	75	45	68	51	55	53	57	45
N.....	15	30	0	27	31	24	29	32
c' { O.....			32	27	47	33	42	
N.....			32	27	29	43	46	
d { O.....	74	60	68	90	80	61	75	53
N.....	16	30	22	0	10	14	10	29
e { O.....	41	72	68	90	66	53	75	
N.....	37	18	22	0	19	24	14	

بالإجابات التوكيدية (O) أو السلبية (N) المتعلقة بأهميتها في تكوين صورة أدق عن الآخر :

3 (بالنسبة إلى الموضوع 3 ، اليكم النسب المئوية للإجابات المتعلقة بالفئتين : (d,c)

	مثقفون		مصنع		اداريون		ريفيون	
	c	d	c	d	c	d	c	d
غالباً	41 60	43 45	49 63 54 63	41 39 31 48	59	31	59	45
نادراً	36 30	41 37	41 27 24 18	41 39 39 38	29	49	26	37

(4) بالنسبة للموضوع 4 ، يعطى الجدول التالي النسبة المئوية للإجابات عن الاسئلة الواردة في الفقرتين : a , a'

	مثقفون		مصنع		اداريون		ريفيون	
	a	a'	a	a'	a	a'	a	a'
بسهولة وسرعة	57 60	40 60	57 63 42 69	75 51 51 54	59	51	63	45
بصعوبة وببطء	27 36	15 30	33 0 40 21	24 39 31 33	31	39	27	45

واليكم النسبة المئوية للإجابات عن سؤال الفقرة e المتعلقة بالاتصال دون كلام :

نعم				لا			
مثقفون	مصنع	اداريون	ريفيون	ريفيون	مصنع	اداريون	ريفيون
45 60	57 63 52 45	63	42	45 30	33 27 33 21	25	42

مراجع في علم اجتماع المعرفة

- (1) **Ansart- Pierre:** Les cadres sociaux de la doctrine morale de Saint-Simon, Cahiers int. de Sociologie, 1963, 34, pp. 27- 46.
- (2) **Aries- Philippe:** Le temps de l'histoire. Monaco, éd. du Rocher 1954.
- (3) **Aron- Raymond:** Dimensions de la Conscience historique, Paris , Plan 1960.
: Sociologie allemande sans idéologie? Archives Européennes de Sociologie. 1960. 1, N° 1, pp. 170- 175.
- (4) **Barber- Bernard:** Sociologie de la science , Sociology of Science, Current sociology, 1956, 5, N° 2, pp. 91- 153.
— Sociology of Knowledge and Science, 1945- 1946, Sociology in the United states of America; A trend report, éd. par Hans Lennart Zetterberg, Paris Unesco, 1956.
- (5) **Baathes- Roland:** Mythologiques, Paris, éd. du Seuil, 1957.
- (6) **Bassoul- (R), Maucorps (p-h.):** Jeux de miroirs et sociologie de la connaissance d'autrui, C.int. de sociologie, 1962.
- (7) **Bastide Roger:** Groupes Sociaux et transmission des légendes, psyché, 1949, N° 34, Août , pp. 716- 755.
— Sociologie et littérature comparée, C.int. de Sociologie 1954, 17, pp. 93- 100.
— Les cadres sociaux de l'anthropologie culturelle américaine, C.int. de Sociologie. 1959, 2c, pp. 15- 26.

- (8) **Bettelheim- Charles:** Idéologie économique et réalité Sociale, C.Int. de Sociologie, 1948, 4, pp. 119- 134.
- (9) **Cassirer - Ernst:** An essay on man, an introduction to a philosophy of human culture. Garden city, N.Y., Doubleday. 1er éd., 1944, dernière éd., 1954.
- (10) **Cazeneuve- Jean:** La connaissance d'autrui dans les sociétés archaïques, C.I. de Sociologie, 1958, 25, pp. 75- 99.
- La mentalité archaïque, Paris, A. Colin, 1961.
- (11) **Cuvillier - Armand:** Sociologie de la connaissance et idéologie économique, C.int. de Sociologie, 1951, 11, pp. 80- 111.
- (12) **Dufrenne- Mikel:** Pour une sociologie du public, C.int. de Sociologie, 1949, 6, pp. 101- 112.
- : Coup d'œil sur l'anthropologie culturelle américaine, C.int. de Sociologie. 1952, 12, pp. 26- 46.
- La personnalité de base, un concept sociologique, Paris, P.U.F., 1953, 344 p.
- (13) **Durkheim- Emile:** Les formes élémentaires de la vie religieuse, le système totémique en Australie, Paris, P.U.F., 1960.
- (14) **Duvignaud- Jean:** Problèmes de Sociologie de la Sociologie des Arts, C.int. de Socio., 1959, 26, pp. 137- 148.
- : L'Acteur ; Esquisse d'une sociologie du Comédien, Paris, Gallimard, 1965.
- : Sociologie du théâtre, Paris, P.U.F., 1965.
- (15) **Eliade- Mircea:** Le mythe de l'éternel retour , Paris, Gallimand, 1949.
- : Images et Symboles, Paris, Gallimand, 1952.
- : Mythes, Rêves et mystères, Paris, Gallimand, 1957

- : Prestiges du mythe cosmogonique, Diogène, 1958, N° 23 Juil-Sept. pp. 1- 17.
- (16) **Galdmann- Lucien**: Pour une sociologie du Roman, Paris, Gallimand, 1964.
- (17) **Hersch- Jeanne**: Idéologies et Réalité, Paris, Plan, 1956.
- (18) **Kahn- Paul**: Les symboles dans la psychologie sociale de M. Mead, C.Int. de Socio., 1949, 6, pp. 134- 149.
- (19) **Lévi-Strauss-Claude**: Anthropologie structurale, Paris, Plan, 1958.
- : La pensée sauvage, Paris, plan, 1962.
- : Le totémisme aujourd'hui, Paris P.U.F., 1962.
- : Mythologique, 4 vol., Paris plan, 1964.
- (20) **Lévy-Bruhl- Lucien**: L'expérience mystique et les symboles chez les primitifs, Paris, F. Alcan, 1938.
- (21) **Luckacs- Georg**: Eocistenialisme au marxisme? , Paris, Nagel, 1948., (col. pensée.).
- (22) **Malrieu- Philippe**: Les Origines de la conscience du temps, Paris, P.U.F., 1953.
- (23) **Mannheim-Kârl**: Idéologie et Utopie, Paris, M. rivièrè. 1956.
- (24) **Maquet- J.**: Sociologie de la connaissance; Lauvain, inst. de R.E.S., 1949.
- : Le conditionnement social de l'anthropologie culturelle, Paris , 1960 et 1963.
- (25) **Marx- Karl**: Misère de la philosophie, Paris, A. Costes, 1950.
- (26) **Zoltowski- Victor**: Les fonctions sociales du temps et de l'espace, Revue d'histoire économique et sociale, 1940- 47, 26, N° 2, pp. 113- 137.

: La théorie de la connaissance et le rythme de l'histoire, Année Sociologique, 1949- 1950.

: Les cycles de la création intellectuelle et artistique, Année Sociologique, 3em serie, 1952, pp. 163- 206.

محتويات الكتاب

تمهيد	5
-------------	---

مدخل

المسألة	9	الفصل الأول :
تعريف علم اجتماع المعرفة	22	الفصل الثاني :
علم اجتماع المعرفة والأصولية	25	الفصل الثالث :
انواع المعرفة وأشكالها	28	الفصل الرابع :
تاريخية علم اجتماع المعرفة	54	ملحق المدخل :

الباب الأول

ميكروسوسولوجيا المعرفة

إيضاحات أولية	73	الفصل الأول :
الجماهير كأطر اجتماعية للمعرفة	77	الفصل الثاني :
الجماعات كأطر اجتماعية للمعرفة	80	الفصل الثالث :
المتحدات كأطر اجتماعية للمعرفة	84	الفصل الرابع :

الباب الثاني

التجمعات الخاصة كأطر اجتماعية للمعرفة

اعتبارات تمهيدية	89	الفصل الأول :
التجمعات المتميزة وفقاً لطريقة البلوغ والمعرفة	92	الفصل الثاني :

96	 الأسرُ والمعرفة	الفصل الثالث :
99	 التجمّعات المحلية الصغيرة النطاق ومعرفتها	الفصل الرابع :
102	 المصانع والمعرفة	الفصل الخامس :
105	 الدول ومنظوماتها المعرفيّة	الفصل السادس :
112	 الكنائس ومنظوماتها المعرفية :	الفصل السابع :
113	 أ) الكنيسة الكاثوليكية ونظامها المعرفي	
115	 ب) الكنيسة الارثوذكسية ونظامها المعرفي	
118	 ج) الكنائس المستصلحة وانظمتها المعرفية	

الباب الثالث

الطبقات الاجتماعية ومنظوماتها المعرفيّة

123	 ملاحظات تمهيدية	الفصل الأول :
127	 الطبقة الفلّاحيّة ونظامها المعرفي	الفصل الثاني :
132	 الطبقة البورجوازية ونظامها المعرفي	الفصل الثالث :
138	 الطبقة البروليتارية ونظامها المعرفي	الفصل الرابع :
148	 الطبقة التقنوبيروقراطية المُضمّرة ونظامها المعرفي	الفصل الخامس :

الباب الرابع

انماط المجتمعات الشاملة ومنظوماتها المعرفيّة

157	 ملاحظات تمهيدية	
160	 علم الأنثام وابعاث علم الاناسة الفلسفية	الفصل الأول :
164	 المجتمعات القديمة ومنظوماتها المعرفية	الفصل الثاني :
166	 1 - القبائل ذات الهيمنة العشائرية	
170	 2 - القبائل ذات التجمّعات المتنوّعة والقليلة التراتب	
173	 3 - القبائل المنتظمة على أساس الفرق العسكرية والأسر والعشائر	
175	 4 - القبائل المنتظمة في دول ملكية	

182	المجتمعات اللاهوتية الباهرة ونظامها المعرفي	الفصل الثالث :
190	المجتمعات الأبوية ومنظوماتها المعرفية	الفصل الرابع :
195	الخواضر - الدول المتحوّلة امبراطوريات ومنظوماتها المعرفية	الفصل الخامس :
211	المجتمعات الاقطاعية ومنظوماتها المعرفية	الفصل السادس :
225	النظام المعرفي في المجتمعات الشمولية المولّدة للرأسمالية	الفصل السابع :
239	النظام المعرفي للمجتمعات الديمقراطية - الحرة	الفصل الثامن :
255	المعرفة المتوافقة مع الرأسمالية المنتظمة والموجّهة	الفصل التاسع :
265	المعرفة المتوافقة مع المجتمع الفاشي التقني- البيروقراطي	الفصل العاشر :
272	النظام المعرفي للدولانية الجماعية المركزية	الفصل الحادي عشر :
281	النظام المعرفي للجماعية التعددية اللامركزية	الفصل الثاني عشر :
292	ملحق : استطلاع اجتماعي حول معرفة الآخر	

الأطر الاجتماعية للمعرف

" حصيلة سلسلة من المحاضرات، " وخلاصة تأملات وجهود بدأها المؤلف منذ العام 1944، وتفاقت بالشكوك حول إمكان الاحاطة بموضوع بالغ الاتساع والتعقيد كـ "علم اجتماع المعرفة" .. وقد سعى المؤلف، كما في كل أعماله الاجتماعية السابقة، إلى إبراز التنوع الوافر والتغاير اللامتناهي سواء في الأطر الاجتماعية أم في التجليات المتوافقة مع المعرفة. وهنا يستلهم المؤلف القول الجازم بأن "التجريبية النسبية" هي الجهاز المفهومي الضروري لعلم اجتماع معرفة علمي حقاً، أي لعلم اجتماع معرفي متحرر من كل ابتسار ومن كل مفهوم شائع. ويرمي المؤلف من وضعه هذا الكتاب، إلى صياغة برنامج جديد للأبحاث، أكثر مما يرمي إلى تقديم نتائج نهائية، يحاول باستمرار أن يكتشفها ويصوغها بتواضع علمي رفيع. وفي ضوء هذا التعريف، تشكل ترجمة كتاب "الأطر الاجتماعية للمعرفة"، إضافة ضرورية إلى مكتبة علم الاجتماع العربية والمكتبة الفلسفية.

ISBN 978-9953-463-90-2



9 789953 463902

علي مولا

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

